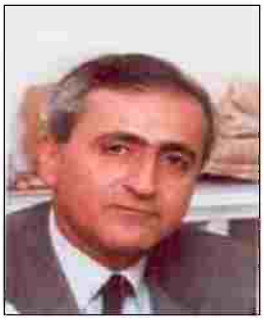

الدكتور صلاح صلاح

مفخرة فلسطين الطبيب العبقري جراح الدماغ والأعصاب

ضمه جلالة الحسين إلى أسرة مدينة الحسين الطبية فزهت به وزها بها

قال لجلالة الملك حسين: لكي ينجو هذا الطيار المصاب، أنا في حاجة إلى سائق سيارة ممتاز ينقله إلى المستشفى في أسرع وقت. فقال له الملك بتواضع: أنا سأقود السيارة

أجمع خمسون طبيباً أردنياً وفلسطينياً على حبه

فقد سما فوق الفردية والمنافسة وحلق بإنسانيته إلى آفاق الطبيب الإنسان

صديق الفقراء.. لم تعرف أسرته بمدى حب الناس له في حياته

وإنما عرفت ذلك بعد رحيله

اعذروني...

لا أستطيع أن أسيطر على عواطفي ومشاعري، وأتحكم في أحاسيسي وفكري ووجداني، لأقدم لكم الطبيب النابغة الجراح صلاح عيسى صلاح مع باقة ورد ومحبة إجلالا لعبقريته ونبوغه الإنساني الرفيع؛ الذي بهر به كل من عرفه وتعامل معه أو التقاه، نبوغ في العلم، وعبقرية في الجراحة، ونبوغ وعبقرية في المشاعر والإنسانية والتواصل مع الناس البسطاء والفقراء في أدق وأصعب المراحل من حياتهم، وهم يواجهون لحظات عصيبة أمام مرض خطير رهيب شديد الخطورة.

تجمعني بوالدته وأسرته صداقة عمر وجوار امتدت أكثر من ثلاثين سنة، فنحن نقيم في رام الله في بيت يكاد يكون متصلا، تجمعنا فيه ذكريات ودموع وأشجان ونتقاسم فيه عبق الياسمينة المشتركة، وصحبة الأزهار والورود، تجمعنا الابتسامات والدموع والذكريات الحزينة في رحلة العمر، من عكا إلى الشتات إلى أن جمعتنا مدينة القلب والروح والفؤاد رام الله الجميلة.

كيف أستطيع أن استأنس الكلمات، وأرتب العبارات والأفكار وأصوغ مشاعر إنسانية متدفقة عن صديقنا صلاح النابغة في جراحة الدماغ والأعصاب؛ والذي رفع اسم فلسطين والأردن عاليا وسجل في صفحات التاريخ مجداً زاهياً لعبقرية العقل العربي ونبوغه. فأكد ما نذهب إليه دائما من وجود الهوية

الفلسطينية القادرة على التفوق والنبوغ، والتي تسجل دائما في سفر الحضارة أروع الصفحات وأزهى الفصول.

في كل حقل من حقول العلم والمعرفة والحضارة نلتقي بهؤلاء النابغين ونتوقف لحظات قليلة أمام عبقريتهم لنقدم لهم باقة ورد ومحبة تشحذ همم الأجيال القادمة وتنير لها الطريق وتتخذ منهم قدوة ومثالا.

بانوراما في رحاب العبقرية

والدكتور صلاح عيسى حنا صلاح ابن مدينة رام الله حيث ولد والده وترعرع وهو الصيدلي الرائد صاحب صيدلية صلاح في قلب مدينة رام الله والتي شكلت مَعلما تاريخيا من معالم المدينة.

الدكتور صلاح النابغة في جراحة الدماغ والأعصاب يحتل فصلا كاملا من فصول العباقرة من أبناء فلسطين، حيث يعد أبرع وأشهر أطباء جراحة الدماغ والأعصاب في العالم وهو من الرعيل الأول من أطباء أمراض الدماغ والأعصاب والعلوم العصبية في الأردن. عمل رئيساً لقسم جراحة الدماغ والأعصاب في مدينة الحسين الطبية قبل أن يفتتح عيادته الخاصة. ويعتبر الدكتور صلاح من مؤسسي الجمعية الأردنية للعلوم العصبية عام 1983 والجمعية العربية لجراحة الدماغ والأعصاب عام 1996.

اعذروني على اضطراب أفكاري وانفعالاتي، فمن أين تأتي الحكمة، وكيف لي أن أتحكم في الكلمات، وكيف أحرك القلم ليصوغ أحاديث وذكريات أربعين سنة أو تزيد قضيتها مع والدته السيدة وداد خوري (أم صلاح)، نتذاكر في أحاديث السياسة والأدب والشعر، ونتبادل الأشجان والدموع حول أحبائنا الذين تفرقوا في عواصم أوروبا يطلبون العلم، ويشقون طريقهم إلى النجوم، فإذا عصفت بنا الأحداث وهبت رياح الغزو والبطش، في ليالي الاجتياح والحصار، كنت ترى سيدتين صديقتين رفيقتين في درب العمر وحيدتين تلجآن إلى ممر معتم في الدور الأرضي تتبادلان الأحاديث والآمال والأماني هاربتين من الرصاص والنار والموت والمطاردة.

سيدتان تجمعهما الصداقة والجوار والحب والثقافة والأحاديث المشتركة والآمال والأماني، وتستذكران أفراد العائلة البنات والبنين والإخوة والأخوات على أضواء الشموع الخافتة، وأصوات الرصاص والقصف ترتفع حتى تجعل حديثهما الصامت مجرد وشوشات غير مفهومة، حيث يرتفع دوي المدافع وأزيز الطائرات وأصوات الهلع والخوف والرعب على بعد مئات الأمتار في المقاطعة، وليل منع التجول الممل القاتل الرهيب، ونحن نحتمي بثقافة الشجاعة والصبر والأمل لنكسر حواجز الخوف والترقب.

وأنى لسيدتين وحيدتين أن تعرفا طعم الأمان، في ظل عدو غادر، وقسوة جيش محتل يسقينا مسلسل الرعب والحصار يوما بعد يوم، وكان صوت صلاح يأتينا مخترقا أصوات الصواريخ والمدافع والرصاص وهو في غرفة العمليات في عمان، أو في عيادته حيث كان بيت أم صلاح قريبا وعلى بعد أمتار فقط من المقاطعة المستهدفة بالنار والمدافع والصواريخ. وكنا نشعر بمدى لهفته وقلقه على أمه حيث يتكرر اتصاله بنا عدة مرات في اليوم الواحد.

صلاح عيسى صلاح.. فصل في تاريخ الجراحة

تشهد جميع الدراسات المعاصرة، التي صدرت في فلسطين أو الأردن، لتؤرخ للنهضة الطبية العظيمة التي رعاها جلالة الملك حسين بأن الكثير من الكفاءات الفلسطينية والأردنية، تم استقطابها بفضل رعاية

الملك وتوجيهه، ومن أهم هذه الشخصيات الدكتور صلاح صلاح، حيث ستبقى أعماله وانجازاته في قلوب وعقول الجماهير، التي عرفت فضله وآمنت برسالته، وأحبت الحياة على يديه، وآمنت بالإنسانية وعرفت ان هناك نفرا من الناس لا تَستهويهم المادة وإنما تحركهم المبادئ والمشاعر.

لقد كان صلاح عيسى صلاح أحد الرواد في جراحة المخ والأعصاب، وتجلت عبقريته كقائد ومعلم ورائد في تخصصه الذي كان يواكب أحدث الدراسات والأبحاث، وكانت أبحاثه ومحاضراته تنتشر عبر المؤتمرات والمجالات الطبية العربية والعالمية.

وعندما التحق الدكتور صلاح بمدينة الحسين الطبية رئيسا لجراحة الدماغ والأعصاب بفعل توجيهات جلالة الملك حسين، كان الرجل المناسب في المكان المناسب، وكان الموهبة الفذة والعبقرية التي تبحث عن المسرح لتشدو عليه بألوان من العبقرية والإبداع في مجال جراحة الدماغ والأعصاب وأمراضها.

الرجل المناسب في المكان المناسب

عاد الدكتور صلاح عام 1979 من النمسا بعد أن أنهى دراسته وتخصص، وقد تزوج من ابنة أستاذه وهي سيدة نمساوية فاضلة، وتسلم لفوره رئاسة قسم جراحة الدماغ والأعصاب في مدينة الحسين الطبية خلفا للدكتور إسحق مرقة الذي عرفته عندما كان مديرا للمستشفى الوطني في نابلس، وكان جراحا متفوقا.

وقد تابع الدكتور صلاح صلاح عمله في مدينة الحسين الطبية، ومن ثم في عيادته الخاصة، وكان من مؤسسي الجمعية الأردنية للعلوم العصبية عام 1983، والجمعية العربية لجراحة الدماغ والأعصاب عام 1996، وقد كرس كل جهد ممكن لدعم هاتين الجمعيتين طيلة سني عمره.

وقد امتاز الدكتور صلاح صلاح بشهادة كل من زامله وعمل معه بصفات إنسانية رفيعة، وخلق نبيل جعله موضع الحب والاحترام والتقدير، خاصة وأنه جمع بين عبقرية الجراح، وعبقرية الإنسان مما جعله علما من أعلام جراحة الدماغ والأعصاب في الأردن وفلسطين والعالم العربي بأسره.

كان مُعلما وصديقا وأستاذا، لعشرات الأطباء الذين زاملوه، وتعلموا على يديه حتى عُد بحق رائدا من رواد هذا الفرع الدقيق من الجراحة الخطيرة الهامة.

الطبيب الإنسان والجراح العالم

لحق الدكتور صلاح صلاح بالرفيق الأعلى وهو في الثامنة والستين من عمره، وقد أمضى حياته العملية طبيبا بارعاً وجراحاً متفوقا، طاف بآفاق العبقرية، وكان رجل عطاء ومبادئ، متمكنا من عمله يجمع بين البراعة والتفوق والعلم والدراسة، فكان طبيبا بارعا في جراحة الدماغ والأعصاب، على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي.

وكان- بعون الله وتوفيقه- شافيا لآلام وأوجاع كافة طبقات المجتمع، فكان رمزا من رموز أطباء جراحة الدماغ والأعصاب، صادقا في عطائه الطبي والإنساني والخيري. بارزا في مجال اختصاصه، متواضعا في تعامله الإنساني، خادما لأصدقائه ومحبيه، مدافعا عنيدا عن الفقراء والمحتاجين سخيا في عطائه.

وتقول أخت الدكتور صلاح السيدة "سلفيا" المحاضرة في عدة جامعات في أمريكا وبيرزيت: كان أخي صلاح بمثابة صديق حميم لي. فارق السن بيننا لم يتجاوز ثلاث سنوات، ولكن صداقة حميمة وتواصل وجداني وانسجام في مفهوم الأخوة كانت تربطني به، ولم نكن جميعنا على علم بمدى ما يكنه الناس من حب وإعزاز له إلا بعد رحيله.

لقد اكتشفنا صلاحا على حقيقته بعيد رحيله مباشرة، عشرات، بل مئات الناس جاءوا ليعبروا عن حزنهم الشديد لرحيله وليذكروا له أياديه في شفائهم والوقوف إلى جانبهم.

وكان أكثر هؤلاء من الناس البسطاء الفقراء، الذين يشعرون نحوه شعورا قويا جارفا بالامتنان حيث ساعدهم ومد يد العون لهم بعلمه وكفاءته ومبضع الجراح النطاسي البارع، ومن ثم تولى دفع نفقات المستشفى من جيبه الخاص.

وكان كرم أخلاقه، وعفة نفسه، وأصالة مواقفه الإنسانية، موازية تماما لعبقريته المهنية كأعظم جراح للدماغ والأعصاب عرفته الدوائر الطبية في المملكة الأردنية وفلسطين.

مع جلالة الملك حسين

من المعروف أن جلالة الملك حسين انشأ مدينة الحسين الطبية في عمان، لتكون صرحا طبيا عالميا، على أرقى المستويات، وبأعظم الكفاءات وعلى أحدث الأساليب. كان يريدها ملاذا لمرضى العرب، حتى لا يذهبوا إلى أوروبا، وكان يخطط لها لتنافس أي مركز طبي آخر في الشرق الأوسط.

وبالتجربة والبرهان نافست "هداسا" وكانت على مستوى الكفاءة والمصداقية العالية مهنيا وإنسانيا.

وقد تنامى إلى علم جلالة الملك حسين معلومات مؤكدة عن عبقرية الطبيب الفلسطيني الأردني، صلاح عيسى صلاح، الذي تخرج من جامعات النمسا.

وعلى الفور، أمر جلالة الملك، بما عرف عنه من حكمة ومبادرة وحسم، أمر باستدعاء الجراح العبقري وعهد إليه بمهام توازي عبقريته ونبوغه فتم تعيينه كرئيس لقسم جراحة الدماغ والأعصاب في مدينة الحسين الطبية.

وكان صلاح على مستوى المسئولية، تواصلت عملياته الناجحة ودراساته ومقالاته ومحاضراته وسجل برفقة رعيل من الأطباء الفلسطينيين والأردنيين نجاحات باهرة.

عندما قاد جلالة الملك السيارة بنفسه

وفي حادثة ترويها الأسرة، بكثير من الفخر والاعتزاز عن ابنها البار الدكتور صلاح عيسى: ذات يوم سقطت إحدى الطائرات لشركة الطيران "عالية" في قطر، وتسبب الحادث الأليم في إصابة "الطيار" إصابة بليغة في رأسه، ولما حطت الطائرة بالركاب المصابين في مطار عمان، كان جلالة الملك حسين في انتظار الطائرة، وشعر بخطورة إصابة "الطيار" فاستدعوا على عجل الدكتور صلاح الذي مثل بين يدي جلالة الملك. وأدرك صلاح الموقف بسرعة، واستمع إلى الملك وهو يقول له:

- هذا الطيار يجب أن ينجو، بإذن الله، يجب أن ينجو. فماذا تريد؟

قال صلاح:

- أريد سائقا ممتازا، يتخطى كل عقبات المرور ليصل به إلى المستشفى في أقرب وقت.

قال جلالة الملك، بتواضع نبيل وحسم:

- حسنا، أنا سأقود سيارة الإسعاف.

ووصلت السيارة إلى المستشفى في الوقت المناسب، وقام الدكتور صلاح بإجراء العملية للطيار، ونجحت العملية، وشفي الطيار، الذي لا يزال حتى هذه الساعة على قيد الحياة.

***

لقد هزني هذه الحكاية، وأنا استمع إلى تفاصيلها لأول مرة، لأن الدكتور صلاح كان كتوما، ولا يتحدث عن أي شيء يتصل بعمله، أو بما يمكن أن يدخل في مجال الاعتزاز أو الفخر أو التفوق، كان كتوما، لأنه يرى في ذلك شيئا بديهيا. أما عندما يتصل الأمر بمساعدة فقير أو عاجز أو مأزوم، فانه يتعامل مع معطيات هذه المواقف بمبدأ التحريم، فلا تعرف شماله ما فعلت يمينه.

مشوار العمر

ولد صلاح عيسى حنا صلاح يوم 1944/8/25 في مستشفى القدس، لعائلة عريقة من رام الله، فوالده السيد عيسى حنا صلاح الصيدلي المعروف الذي أسس صيدلية "صلاح"، وأمه السيدة وداد عوض خوري، ووالدها المربي الكبير مربيا للأجيال والرواد في مدارس الفرندز.

درس المرحلة الابتدائية والإعدادية في "الكلية الأهلية"، وكانت نتائجه تؤكد تفوقه، وتبشر بأنه سيكون له مستقبل واعد.

التحق بجامعة فيينا لدراسة الطب. وكانت الدراسة باللغة الألمانية، وتخرج عام 1969، وكان أسرع من تخرج في الجامعة حيث كانت الدراسة تعتمد على نظام غير تقليدي يعتمد على كفاءة الطالب واختياره للمساقات التي يدرسها. وقد تخصص صلاح في جراحة الدماغ والأعصاب، وتفوق فيها بصورة تدعو إلى الإعجاب.

ويعالج أُستاذه

وعندما أُصيب أُستاذه في الجامعة بمرض في الدماغ، قام باختيار صلاح لإجراء العملية له، لأنه كان يثق بنبوغه وعبقريته. وعلى أثر هذه العملية سمع جلالة المغفور له الملك حسين بن طلال عن صلاح، فاختاره عندما عاد إلى عمان ليؤسس قسم عمليات الدماغ والأعصاب في مدينة الحسين الطبية.

وكان صلاح قد تزوج ابنة أستاذه في جامعة فيينا السيدة مارتينا، وأنجب منها سبع بنات، تخرجن كلهن من الجامعات المختلفة دون أن تقترب أي منهن من دراسة الطب، لأن الوالد أراد إبعادهن عن هذه المهنة الخطرة التي يتحمل فيها الإنسان مسئولية حياة غيره، وتحتاج إلى الجد والشجاعة والجرأة والثبات. وقد عرف الدكتور صلاح متاعب مهنته فأشفق على فلذات كبده من خوض غمار هذه الحياة الصعبة.

بصمات مبضعه في أنحاء العالم العربي

طارت شهرة الدكتور صلاح لتحط في جميع أنحاء العالم العربي، وخاصة دول الخليج، فتلقى دعوات لعمل عشرات بل مئات العمليات الدقيقة التي حققت أبهر النتائج، ومع ذلك ظل صلاح على تواضعه وحبه

للفقراء والبسطاء وسعادته الحقيقية كانت دائما في إسعاد الآخرين والأخذ بيدهم إلى آفاق الصحة والعافية.

وكانت رحلاته العديدة في المدن الأوروبية لإجراء العمليات وإلقاء المحاضرات فتوحات حضارية وعلمية ومفخرة لوطنه الأول فلسطين ووطنه الثاني الأردن.

كانت عملياته تدرس في كل مستشفيات العالم، وكان أسلوبه وأصابعه السحرية تؤكد قدراته وثقته بنفسه ومعرفته لإسرار عمله بذكاء وتفوق.

وكانت والدته تتابع الأحاديث عن فلذة كبدها، وهي لا تكاد تحبس دموعها التي تنطلق بين لحظة وأخرى ممزوجة بمشاعر الإعجاب والانبهار والفخر.

ومما أثار شجونها هذه المفارقة العظيمة، فأعظم أطباء العالم العربي، وأشهرهم، صلاح صلاح، يداوي بأصابعه السحرية آلام كل من عانى من نزيف الدماغ، ولكنه وللأسف الشديد يقضي نحبه ويصعد إلى السماء بنفس هذا المرض "نزيف في الدماغ". حقا ما أصدق قول من قال: طبيب يداوي الناس وهو عليل.

علاقات حميمة مع أفراد أسرته

تقول والدته: كان صلاح ابنا بارا، وفي حياته المدرسية كان هادئا وديعا، منكبا على دروسه، عاشقا للتفوق، وكانت هوايته للسيارات تملأ عليه أوقات فراغه، كان يحب السيارات بشكل ملفت للنظر، وهذه الهواية لازمته طوال حياته.

وكانت صداقته وحبه لأخته سلفيا تملأ البيت بالسعادة والهدوء، أما حبه لأخيه جوني، فكان أنموذجا للأخوّة القائمة على الصداقة والتواصل قلما نجد لها مثيلا.

عاشق الفن التشكيلي

تقول شقيقة الدكتور صلاح السيدة سلفيا: كان أخي صلاح عاشقا للفن التشكيلي، وكان بيته في عمان يعد متحفا رائعا لإبداع أعظم اللوحات الفنية لمشاهير الرسامين في العالم، وكان عشقه الأول والأخير بعد السيارات الفن التشكيلي، وفي كل مرة كان يزورنا فيها ونحن نقيم أنا وزوجي في لوس انجلوس في الولايات المتحدة الأمريكية، كان يقوم بجولات مطولة على الكنائس القديمة، والمتاحف، والأماكن التاريخية يسأل عن المعارض، ويمضي وقتا طويلا في زيارتها للوقوف على آخر الاتجاهات في الفن التشكيلي.

وفي عام 2007، جاء يزورنا أنا وزوجي، الذي يعمل جراحا هو الآخر، توجهت معه إلى متحف قريب من بيتنا، فأخذ يطوف بأقسام المتحف واللوحات، وراح يشرح لي تاريخ كل لوحة وحياة كل فنان، وأخذ يقص علي طائفة من حكايات الرسامين العالميين، بل وأخذ يحلل لي أسلوب كل واحد والمدرسة التي ينتمي إليها، كان عاشقا للفن عن وعي ودراسة وإدراك، ويخيل إليك وهو يتكلم أنه أستاذ جامعي يحاضر في طلبة كلية الفنون الجميلة.

وهذا التوازن في حياة المبدعين، أمر مفهوم ومطلوب، فالجراح الذي يخوض عملا بالغ الدقة والحرج، ويمارسه بأعصاب مشدودة ودرجة تركيز عالية، ويعايش لحظات حاسمة بين الحياة والموت، لا بد له من أن يمارس هوايات أخرى تحقق له المتعة والتوازن في حياته، وكانت هواية السيارات، والفن التشكيلي هما

المعادل الموضوعي في حياة أخي، جراح الدماغ والأعصاب، على امتداد مئات العمليات، وربما آلاف العمليات في كل أنحاء العالم.

حياة حافلة بالانجازات

وكان الدكتور صلاح محبا لوطنه، معتزا بانتمائه لرام الله التي أمضى فيها فترة صباه وشبابه الباكر، وكان من أولئك النابغين الذين تخرجوا في "الكلية الأهلية".

وكان يتردد على رام الله من آن لآخر ليزور والدته، وليسترجع ذكرياته، ويجدد الحنين إلى كل ذرة رمل في وطنه الذي فرض عليه الاحتلال أن لا يزوره إلا بتصريح وجواز سفر وتأشيرة. فما أغرب هذه الحياة؟ وما أعجب ناسها، وأهلها، وما أبغض السياسة وقيودها، حيث يحرم الابن من زيارة أمه إلا بمراسم وأوراق حتى لو كان ذلك الابن هو نابغة الجراحة وعبقري المبضع الدكتور صلاح عيس صلاح!.

لقد حصل الدكتور صلاح في حياته على العشرات من الجوائز ونياشين التكريم – لعل من أهمها تكريم جلالة الملك الحسين له، واحتضانه له، وتشجيعه له، ولا عجب في ذلك فالعبقرية دائما موضع تكريم من يعرفون للرجال أقدارهم وللعلماء منزلتهم وللعباقرة حجمهم.

وكذلك نال الدكتور صلاح تقدير وتكريم الأميرة علياء، والأميرتين بسمة بنت الحسين، والأميرة ياسمين وكان موضع تقدير الأسرة المالكة، لعبقريته الفذة ولخدماته الجليلة للعديد من الجمعيات، ولأنه كان دائما نصير الفقراء والبسطاء من الناس، فلم يكن ينشد من وراء إخلاصه وإبداعه في عمله، إلا وجه خالقه ورضاه، وحرصه على نقاء ضميره وسريرته تجاه معتقده الديني النقي الطاهر، مما جعل المسيحيين والمسلمين يلتفون على حبه، وإعزازه وتقديره فالدين حب وتسامح ونقاء وسلوك إنساني رفيع المستوى وما عدا ذلك مجرد تفاصيل ثانوية.

رحل في يوم زفاف ابنته

للدكتور صلاح سبع بنات، كأنهن البدور، تحتفظ الجدة بصورهن في تتابع جميل، وهن يرتدين الروب الجامعي، كلهن جامعيات حصلن على درجة الماجستير في مختلف العلوم والفنون.

واحدة منهن تدعى ميس تقدم لخطبتها شاب نمساوي. وتوجهت الأسرة، وعلى رأسها الدكتور صلاح من عمان إلى فيينا، لإتمام مراسم الزواج، حيث أن العرس يتم على مرحلتين عرس مدني، ثم عرس كنائسي. وقد تم العرس المدني. وما أن بدأت التحضيرات للعرس الكنائسي في الكنيسة في فيينا حتى سقط الدكتور صلاح من على درج الكنيسة، فقد كان يعاني من الضغط الذي كان يرتفع في بعض الأحيان، ولكن هذه المرة فاجأته وهو يحضر لمراسيم الاحتفال بزواج ابنته "ميس" وعلى درج الكنيسة في قلب مدينة فيينا، حيث درس وتعلم وتخرج، كانت الضربة حادة وقاتلة، فقد نقلوه إلى المستشفى وحاولوا إسعافه وسحب الدم، ولكن لم يمر يوم واحد على مكوثه في المستشفى حتى مات في لحظة فرح ابنته.. فتأمل هذه الحياة!

أليست مهزلة كما يقول شكسبير، أن لحظة حزن واحدة تساوي عُمرا بكامله كما يقول أبو العلاء المعري: مات الطبيب الإنسان الذي أنقذ حياة عشرات المئات من الناس، وهزم بمبضعه وعلمه وأصابعه الساحرة، المرض ألف مرة ومرة، ولكن القدر في لحظة غدر، نادرة، اغتاله، قبل أن يطبع القبلة الأخيرة على جبين ميس وهو يزفها إلى عريسها، ان موت العظماء، يأتي دائما عظيما غير تقليدي، يأتي دائما دراماتيكيا عنيفا يهز المشاعر والوجدان. فالعظماء، في حياتهم لا بد أن يكونوا عظماء مميزين في رحيلهم.

الحكيم النطاسي والعالم والإنسان

وتحت عنوان "صلاح صلاح- الحكيم النطاسي والعالم والإنسان" كتب د. عميش يوسف عميش:

يقول جبران خليل جبران في كتابه "النبي": "هل انقطاع التّنفس غير تحرير النّفَس من دورانه المتواصل، لكي يستطيع أن ينهض ويحلق في الفضاء ساعياً إلى خالقه من غير قيد ولا عائق". "أودعكم وأودع الشباب الذي قضيت بينكم، فهناك سنبني برجاً آخر في السماء، حينئذ تنشدون لي أنشودة أوقع في نفسي من أنشودة اليوم". نعم أيها العزيز والصديق الوفي، نعم أيها الإنسان العالم الحكيم المتواضع. عرفناك ذا خلق عظيم، تتحدث بصوت خافت دافئ، وتصل الليل بالنهار ترعى مرضاك وتدرب الأطباء، بكل الصبر والتحمل. لقد تركتنا على عجل، وكنت نبع المحبة والعطاء. كنت لا تعطي إلا نفسك ولم تكن تأخذ إلا من نفسك الكريمة، استطعت أن تعدي محطات حياتك الصعبة والطويلة. وكانت سيرتك العطرة المتواضعة، بدأت من رام الله البلد الحبيب حيث مولدك وأهلك الكرام، وبعد إنهاء دراستك الثانوية كان طموحك كبيراً، فاخترت فينا ودرست الطب فيها واخترت تخصصاً صعباً، لكنه كان ما يريده قلبك ووجدانك- جراحة الدماغ والأعصاب. وأبدعت وكنت من المميزين وكرمتك جامعة فيينا لتكون ضمن هيئة التدريس وتدريب الأطباء، فأتقنت ذلك بامتياز. وبعد حين قررت أن تفي بالواجب الملقى عليك نحو بلدك- فلبيت نداء وجدانك عام 1979 وعدت لتعمل مستشاراً باختصاصك في مدينة الحسين الطبية حيث قمت بعلاج الآلاف وتدريب كوكبة من الأطباء في مجال اختصاصك من داخل وخارج الخدمات الطبية الملكية. ثم بدأت فترة الانتقال إلى القطاع الخاص، وبدأت بالعمل من شارع الخالدي وأجريت العمليات الكثيرة في مستشفيات عمان. لم تكن تملك شيئاً أكبر وأكثر من محبتك لمرضاك وعملك الدؤوب. كنت معطاءً بلا حدود، وكنت تعلم أن لا قيمة لما تعطيه ما لم يكن جزءاً من ذاتك، لأن بين الناس من يعطون قليلاً من الكثير الذي عندهم من اجل الشهرة، وأنت كنت لا تملك سوى نفسك الكبيرة ومن خلفك تدعمك المرأة الفاضلة زوجتك وتحيط بذراعيك وقلبك كريماتك السبعة ووفاء أصدقائك الأحياء منهم ومن قضوا المحبين لك. أما قدرتك غير المسبوقة في مجال اختصاصك، فلقد أعطيت من خلالها الكثير. فلقد آمنت بالحياة وسخائها، فكان لا حساب لديك لسهرك وإرهاق ذهنك وجسدك الرقيق من اجل مرضاك، ومساعدة الفقراء والمحتاجين. كنت تعطي بفرح وكان فرحك هو المكافأة الوحيدة التي تريدها. عطاؤك كان عظيماً لأنك أعطيته لمن لا يسألك، وأنت تعرف حاجته. وبعد ماذا أقول لك أيها الحبيب والأخ الذي لم ولن يغادرنا بروحه وعقله وعظمة أخلاقه، لأنك تركت سيرة طيبة عطرة وإرثاً عظيماً لن ننساه، وستظل دوماً معنا.

جراحاً فذاً بكل معنى الكلمة

وتحت عنوان "صلاح صلاح" كتب د. إبراهيم صبيح: كلما كُتب تاريخ جراحة الدماغ والأعصاب في الأردن، فسوف يُسطر اسم الدكتور صلاح صلاح كعلم من أعلام هذا التخصص في الأردن والعالم العربي، وسوف يبقى موقع عيادته في شارع مستشفى الخالدي في قلوب وعقول الكثيرين من مرضاه ومحبيه. كان جراحاً فذاً بكل معنى الكلمة، قائداً، معلماً، جريئاً ومقداماً في تخصصه الذي أثراه بالكثير من الأبحاث والمقالات بالإضافة إلى فصول كاملة في كتب علمية معروفة. كان مع الأطباء أنطون ترزي واسحق مرقة ومحمد السرطاوي والأطباء أحمد هنية وتوفيق أبو الرب وصالح طوالبة من الرعيل الأول الذين بنوا مع

زملائهم أطباء أمراض الدماغ والأعصاب والعلوم العصبية ومنهم الدكتور أشرف الكردي والدكتور إبراهيم عايش والدكتور محمود فياض بنوا السمعة الطيبة التي تحلت بها مدينة الحسين الطبية بشكل خاص والأردن بشكل عام في مجال جراحة الدماغ والأعصاب وأمراضها.

عزيزي الدكتور صلاح..

ما أكثر المبدعين في مجالات العلم والطب والجراحة والفكر الإنساني، وما أقل أولئك الذين يجمعون بين بريق التفوق والذكاء العلمي؛ وبريق وتفوق وطهارة القلب والضمير والحس الأخلاقي الرفيع.

كثيرا ما تأخذ العبقرية والنبوغ والتفوق صاحبها إلى آفاق الفردية، والغرور، والتعالي عن الناس، وبذلك تضع حاجزا أو جدارا بين العبقري وبين مجتمعه.

وربما أفسدت إنسانيته؛ فإذا به مزهوا متكبرا، متعاليا، ينظر إلى الناس والجماهير نظرة فوقية، فهو في نظر نفسه من طينة غير طينتهم فحق له أن يرثي لغبائهم وصغائرهم وأمورهم التقليدية العابرة. ولكن ذلك لا ينطبق على جميع العباقرة في نادي النبوغ والتفرد، فقد كنت تجمع بين عبقرية الجراح وشجاعته وجرأته، وبين رقة الإنسان النبيل الذي يشارك الفقراء أحاسيسهم ومشاعرهم، فكرست نبوغك وعلمك لإسعاد الناس.

وما أروع هذا الموقف الرفيع في حياتك، بل وفي حياة كل إنسان سوي حكيم، حيث يستمد سعادته من سعادة الآخرين، لأنه يدرك أن لذة العطاء تفوق ألف مرة لذة الأخذ.

إني أُكبر فيك هذه الروح الطيبة، التي فهمت حقيقة الحياة أفضل فهم والتي تربيت فيها على يد والدتك الرائدة المثقفة التي تنطوي على فهم عظيم وخلق نبيل وثقافة رائعة، كما أنني استذكر أخلاق والدك العظيم وثقافته المميزة واستذكر أن والديك كانا محبين للسفر عاشقين للثقافة وما اختيارهما للنمسا لدراستك إلا نتيجة طبيعية لعشقهم للثقافة الأوروبية ولموسيقى شتراوس الموسيقار العالمي وخاصة مقطوعة الدانوب الأزرق، وكان جو بيتكم يوحي بالارستقراطية الرفيعة بمعناها الثقافي حيث أصوات الموسيقى الكلاسيكية والعزف والكتب واللوحات الفنية تملأ جو البيت، وكنت بصدق أشعر بأن والدتك تمثل الارستقراطية النمساوية، فهي في مظهرها وملابسها وروحها وعشقها وجمالها صورا محببة لسيدة من نبلاء مدينة فيينا ولا عجب فقد كنت أطلق عليها لقب "فينيز ليدي" (سيدة فيينا).

وكان والدك وسيما جميلا يجمع بين جمال الشكل والمضمون. فقد كان مثقفا رقيقا مهذبا ميالا للمرح والفكاهة وكان حاضر البديهة جميل التعليقات. تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت. فهو من رواد المثقفين الذين حصلوا على درجات علمية ونال ثقة الجماهير كعضو في مجلس بلدية رام الله.

وطن العباقرة على خريطة العالم

إن العبقرية لا وطن لها، والإبداع والتفوق يمكن أن يولد في كل بقعة وكل مكان، وفي كل جامعة ومعهد.

وتأسرني في الحقيقة وبهز وجداني بشدة هذه اللفتات الإنسانية العبقرية من جلالة الملك حسين، وكم أشعر بالفخر والاعتزاز أنك اقتربت من الملك، وتواصلت معه، وأحب فيك العبقرية والنبوغ وأحببت فيه روح المبادرة والشجاعة فأتاح لك أن تعمل وتبدع وتتفوق، وهو ما نعرفه جميعا عن جلالة الحسين الذي

كرس كل العبقريات الفلسطينية والأردنية للتفوق والنبوغ والبناء وأتاح للشعبين الانصهار في بوتقة وحدة ومسيرة كفاح فأبدعت الكفاءات الفلسطينية- الأردنية.

لقد رفعت رأسنا وكنت عند حسن ظن جلالة الملك بعلمك وعبقريتك ورفعك علم النبوغ والذكاء الى هذه المنزلة الرفيعة.

الجراح صلاح صلاح من الرواد على مستوى العالم العربي

وأنا واثقة من حقائق التاريخ ومسيرات الدول وأعلم أن فلسطين ستكون دولة مستقلة في وقت قريب، لكنك أوجدت على خريطة العلم والتفوق والإبداع في كل أنحاء العالم عندما نشرت أبحاثك في الجامعات الأوروبية،

وعندما حققت أروع النتائج في عشرات بل مئات العمليات في دول الخليج وأوروبا، فكنت رائدا وسفيرا لامتك وبلدك ورفعت علم وطنك في الصدور والقلوب والأرواح والمنتديات العلمية والدوائر الطبية.

وكنت مواكبا للمناضلين السياسيين وربما كنت سباقا عليهم.

يقول شوقي: "بالعلم والمال يبني الناس مُلكهم"، وكان علمك هو النافذة المشرقة التي أطلت فلسطين والأردن عبرها على العالم لتؤكد أن صلاح صلاح ابن رام الله ولد وترعرع، وكان غرسا للعبقرية العربية التي تستحق مكانا تحت الشمس.

(2012/11/9)

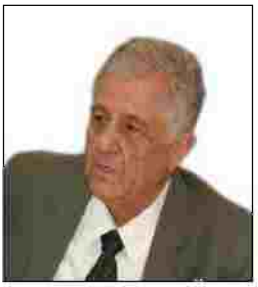

القاضي عبد الرحمن الزعبي

عبقرية فلسطينية نادرة عَبَرَ الأشواك والصخور والحواجز
ووصل إلى أرفع المناصب القضائية
حاكم العنصرية والجريمة والإرهاب في عقر دارها
وسل عليها سيف العدالة والقانون وانتصر لوطنه وضميره
ترافع في قضية وطنية شغلت الرأي العام الفلسطيني
وحقق انجازاً رائعا، فلما قدموا له "عشرين ألف دينار" تبرع بها للحركة الوطنية
الرجل الذي قال "لا"

شهادتي مجروحة في الصديق النبيل عبد الرحمن الزعبي، ولكني لا أرتكب خطأ في حق التاريخ وحق شخصية عبقرية نبيلة نادرة. فالتواطؤ بالسكوت أخطر من التواطؤ بالأفعال.

عبد الرحمن، رجل مواقف، إنه الرجل الذي قال "لا" في أخطر المواقف وأدقها. قال "لا" لعشرين ألف دينار، قدمت له كأتعاب في قضية وطنية ترافع فيها لصالح مناضلات فلسطينيات، كان يترصدهن حكما بالمؤبد، فخفض الحكم، ثم سعى لإطلاق سراحهن.

وقال "لا" للعنصرية والسلبية والجهل، وحارب الفقر والحواجز والانغلاق، وغرد على فنن العبقرية والتفوق، محاميا لامعا، وأستاذا ومنظرا، تُدرس مرافعاته في أعرق الجامعات.

وقال "لا" لمنظري السياسة ومفكري الصهيونية. فإسرائيل دولة لا يمكن أن تجمع بين الديمقراطية واليهودية. وقال "لا" من فوق منابر المحاضرات في أمريكا، عندما قدم دراسة أثبت فيها أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تعرف قانون المساواة والعدالة.

عبد الرحمن الزعبي قال "لا" لكاتم الصوت عندما تعرض لحادثتي اغتيال، فلم يتراجع، ومضى كصاحب رسالة وموقف، وقاضٍ شريف نزيه، لم يرهب رصاصهم، لأنه آمن بان فاقد الشيء لا يعطيه.

عمالقة ذلك الجيل

الأستاذ القاضي عبد الرحمن الزعبي، واحد من عمالقة ذلك الجيل، بل لعله آخر العمالقة، ذلك الجيل الفذ الذي أنجب خليل السكاكيني، وإسحق موسى الحسيني، وعارف العارف، ومحمد إسعاف

النشاشيبي، وفدوى طوقان، وهشام شرابي، وأحمد الشقيري، وإدوارد سعيد وغيرهم، هذه النخبة الرائعة من صفوة الرواد ممن حملوا لواء فلسطين ورفعوه عاليا خفاقا بين حضارات الأمم في العلم والأدب والفكر والقانون والسياسية. وقبل كل ذلك في فن الحياة، والانتماء، والإيمان بان الرائد لا يكذب أهله، وأن قدره أن يحمل صليبه، ويمضي، قدره، أن يكون جنديا من جنود الحق والخير والجمال، وان عليه أن يشق طريقه في الأشواك والصخور، ليؤدي رسالته، ويرضي ضمير أمته، كجندي من جنود الحقيقة والعدالة.

عرفت القاضي، المحامي عن قرب، ففي مشوار حياتي الإعلامية والنضالية كان قدري أن التقي بهؤلاء الرواد، ممن تعلمت على أيديهم مواقف الرجال، والفكر والشجاعة، وخضنا معا تجارب النضال والصراع مع خصم لدود، وعدو لا يرحم، وقارعنا الخطوب والأحداث والنكبات، وأدمت الرحلة أرواحنا وأجسادنا وعقولنا، ولكننا حصدنا النصر، ونشوة التفوق وسعادة الضمير، في ظل وطن منكوب، وشعب كتب عليه أن يمضي حاملا صخرة سيزيف لعله يصل يوما إلى آفاق شمس الحق والحرية والعدل.

ليس من السهل علي أن أقدم الأستاذ عبد الرحمن بكر محمد سعيد الزعبي في مقال محاصر بأعمدة محدودة، وكلمات معينة، فهو صديق أولا، صديق قريب من عقلي ووجداني، وهو حالة فكرية وقانونية تضج بالعبقرية والتفوق، وهو مدرسة في القانون والمحاماة والقضاء، وقبل كل ذلك، فهو أنموذج رائع للوطنية الصادقة الواعية المستنيرة التي تفخر فلسطين بأنها أنجبتها، لأنه غرس مميز قوي شامخ عريق يضرب في تربة فلسطين بجذوره العميقة في أعماق الانتماء والثقافة والعقل المستنير والوجدان الحر اليقظ.

عبقرية تتحدى معطيات القدر

تخطى عبد الرحمن الزعبي، عقبات التاريخ والجغرافية، وقفز فوق أشواك ومعطيات القهر والظلم والعنصرية والبغي، ظل صامدا على أرض بلاده، ولم يهاجر، ولم يتشرد، تمسك بجذوره، وأرضه وصمد، كان وعيه وفكره، وبصيرته وقراءته لتاريخ وطنه على درجة عالية من الشفافية، فرفض أن يترك أرضه، أرض آبائه وأجداده، ظل صامدا على تراب وطنه.

درس، وتفوق، وناضل، بثبات وعزيمة، لينال أعلى الدرجات العلمية في سلك المحاماة والقضاء، وتفوق على العقبات ووصل إلى أرفع المراكز في القضاء والمحاماة، ندا قويا عنيدا مثقفا واعيا، ذكيا، قديرا في كل ساحة من ساحات القضاء، وفي كل منصب من مناصب العدالة، في الوطن السليب.

لم يغرد لحظة واحدة في حياته خارج السرب، كان دائما ابن سولم القريبة من جنين والتابعة لمدينة الناصرة الحبيبة وفي كل منبر، وفي كل موقع، وفي كل محكمة، وفي كل قضية، محاميا، أو قاضيا، أو شاهدا. كان عبد الرحمن الزعبي ابن فلسطين البار، وضميرها الحر، ووجدانها الخافق، بحب الحياة والحرية، الباحث عن العدالة، الساعي إلى إدراك حق وطنه، في غابات المحاكم، ودنيا القانون، حيث تتصارع الفلسفات والمفاهيم والأهواء والنوايا والأهداف، وحيث يحتاج الحق إلى معادلة فريدة قوامها الفكر والذكاء والعلم والشجاعة والعفة والنزاهة وقبل كل ذلك، الشفافية والضمير الحر اليقظ.

التصدي لفلاسفة العنف والعنصرية

في رحلة حياته مع القانون، قاضيا ومحاميا، وعبر أكثر من أربعين عاما شارك الأستاذ عبد الرحمن في التحقيق، ونظر مئات القضايا الوطنية التي تشكل فصولا كاملة في تاريخ القضية الفلسطينية. وكان وجوده على منصة القضاة، أو وقوفه محاميا مترافعا، يتم عبر معطيات واضحة أساسها الكفاءة والعلم والنزاهة والشفافية، وهي أمور لا تخضع للمجاملة، والزلفى فإن أساسها، الموضوعية، والتجرد، وقوامها الحقيقة الناصعة، فأنت كما يقول الرئيس الأمريكي الأسبق جفرسون تستطيع أن تخدع بعض الناس كل الوقت، وتستطيع أن تخدع كل الناس بعض الوقت، ولكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت.

والشاعر العربي القديم يقول:

"ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم"

وكان عبد الرحمن، أنموذجا رائعا من الصفاء والإنسانية والنقاء، اختاره من يختلفون معه لغة ودينا ومذهبا، ليكون فوق منصة العدالة والحكم لأنهم يثقون بعلمه وضميره وخلقه، فسعى إلى هدفه، وفي وجدانه وطن جريح وأمة تنزف، وشعب يقاتل، قبل دائما، أن يتصدى للمعادلة الصعبة، التي تجعله قريبا من قلب ووجدان شعبه وقضيته، وفي نفس الوقت قريبا من أمانة القاضي ونزاهة الحاكم وعدله.

اختير عضوا في لجنة التحقيق الدولية الحكومية التي بحثت المجزرة الدموية التي ارتكبها في الخليل المتطرف اليهودي باروخ غولدشتاين وكان ذلك يوم 25 شباط 1994 حيث قتل 32 فلسطينيا في المسجد الإسماعيلي في الحرم الإبراهيمي في الخليل.

الجاني والأيادي القذرة

يقول الأستاذ عبد الرحمن: "على منصة لجنة التحقيق في الجريمة: كان يجلس بجانبي أعضاء شرفاء جدا، رئيس اللجنة شمغار، وبجانبه غولدبرغ مراقب الدولة، وكان قائد الجيش السابق موشيه ليفي ضمن أعضاء اللجنة بالإضافة إلى رئيس الجامعة المفتوحة البروفيسور "يعلون" بالإضافة الى عبد الرحمن الزعبي.

وقد جرت محاولات مستميتة لإقالتي من اللجنة، موجهة إليّ اتهامات بالتطرف، وذلك على ضوء تصريحاتي حول القضية وتأكيدي بان وجود المتطرفين في الخليل غير شرعي، وانه يجب إخراجهم من هناك.

ولكن هذه المحاولات الهستيرية باءت بالفشل، لقد كانت اللجنة عادلة، وقد بحثنا جذور القضية محاولين أن نعرف من هو وراء هذا المجرم المأفون الذي ارتكب هذه الجريمة المرعبة.

وسعيا وراء هذا الهدف قمنا باستدعاء ما لا يقل عن مائة شخصية سياسية وقيادية من العسكريين، منهم اليوم ثلاثة يتولون مناصب عسكرية قيادية هامة ومنهم رئيس الوزراء السابق إسحق رابين.

لقد حققت معهم شخصيا، وكان التحقيق يجري بصورة سرية، وكنت أحاول أن أجد الذين ساعدوا على ارتكاب هذه الجريمة حتى أوجه الاتهام إلى النظام السياسي والعسكري الذي يسيطر على الضفة الغربية.

كانت القضية شغلي الشاغل، وكان الإخلاص في هذا العمل بهدف تقديمه إلى الرأي العام، واستطعت بجهودي وجهود المخلصين من اليهود والعرب أن أضع يدي على أوامر عسكرية جاء فيها: "إذا رأيتم مستوطنا

يطلق النار على عربي فلسطيني، فلا تتدخلوا، ولا توقفوه حتى يفرغ سلاحه من الذخيرة، فإذا أعاد شحن سلاحه بالذخيرة، فلا تتدخلوا".

وكانت إذاعة هذه الحقائق بشكل فضيحة عالمية، كان لها صداها في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وكافة دول العالم الحر. وكان الإعلام يتابع خطواتي وأنا أكشف عن هذه الحقائق الرهيبة.

وكانت ردة فعل الطرف المعادي شديدة الوطأة، كانت حمقاء مجنونة عابثة، فقد حاولوا اغتيالي مرتين. وانتهت القضية بما ارتأيناه، وهو تنظيم الصلاة في الحرم بحيث يدخل المسجد الإسماعيلي أربعمائة مصلٍ من المسلمين، ويسمح لليهود بالدخول في مواسم أعيادهم الدينية.

وما أستطيع أن أقوله بضمير مستريح أن أعضاء اللجنة كانوا على درجة عالية من الشفافية، وكانوا مقتنعين بان هناك إيادٍ قذرة كانت وراء الجاني، ولكننا جميعا لم نستطع أدانتهم".

القانون في خدمة الجنود

عندما وقعت هزيمة عام 1967 اشتعلت المنطقة بالمقاومة حيث نقل أبو عمار قيادته من الأغوار ومناطق الحدود السورية إلى قلب القدس، وانتقل مع اثنين وسبعين رجلا إلى الضفة الغربية يؤسس القواعد لحركة فتح ويقود حركة المقاومة.

في تلك الأثناء توطدت علاقاتي مع الأستاذ المحامي عبد الرحمن الزعبي الذي كانت تربطني به صداقة عائلية ، وأشهد أنه في تلك الفترة قدم للشعب الفلسطيني واجب الالتزام والشرف والدفاع عن المناضلين.

يقول الصديق المحامي أبو بكر:

"عندما حدث الاحتلال كنت أملك مكتبا كبيرا جدا في "حيفا" ومن ثم تركت المكتب لشركائي لإدارته وتفرغت لقضايا العمل الوطني والدفاع عن أبنائنا المناضلين.

كنت متطوعا، أسافر يوميا بسيارتي لمقابلة أسر المعتقلين والمسجونين في نابلس، وطولكرم، والخليل، ورام الله، وانتقل إلى عدة أماكن في أنحاء الوطن كل يوم".

ذكريات لا أنساها

والحقيقة إني عايشت هذه الظروف، وعرفتها عن قرب فقد كانت الإقامة الجبرية مفروضة عليّ في بيتي، وكان الحرس على الباب يمنعون دخول الناس، وعند الضرورة يسجلون أسماء كل من يدخل ويخرج، وكان اسم عبد الرحمن يتكرر في دفاترهم، رغم كونه محاميا معروفا، إذ كان قد تبرع للدفاع عني وكان ذلك في عام 1976.

وقام عبد الرحمن في تلك الفترة بدور هام في الدفاع عن عشرات الشباب والفتيات، المناضلين والمناضلات وذلك لان المحامين الفلسطينيين كانوا مضربين، وكان المحامون اليهود يرفضون الدفاع عن المعتقلين الفلسطينيين، ولا شك أن العمل أمام المحاكم العسكرية يحتاج إلى خبرة، ولهذا وجد صديقنا نفسه أمام اختيار صعب وواجب مقدس لا مفر منه، فكان يترافع يوميا في قضيتين أو أكثر.

* * *

وفي معرض ذكرياته عن تلك الفترة يقول الأستاذ عبد الرحمن: "ذات يوم من أيام عام 1968 وكنت أقيم في الناصرة دق جرس الهاتف في بيتي فرفعت السماعة، فإذا بصوت ريموندا يأتيني قائلا: فدوى طوقان تريد أن تتكلم معك.

وفي الحال جاء صوت الشاعرة الكبيرة: أستاذ عبد الرحمن، الحركة الوطنية في نابلس اختارتك للدفاع عن ابنتين لنا، هما سهام الوزني ورندة النابلسي.

فلبيت النداء.

وكان هناك أمر هدم لبيت إبراهيم النابلسي، وهو قصر رائع، ومعنى نسفه هدم أكثر من خمسين بيتا بجواره.

ونجح عبد العزيز الزعبي النائب العربي في الكنيست مع وزير الدفاع موشيه دايان، وأنقذ البيت من الهدم، وأذكر أنني كنت قد بادرت إلى الاتصال بعبد العزيز الزعبي الذي ترتبطني به صلة معرفة وصداقة عائلية، فحضر ليقف على أبعاد الاعتصام ضد عملية نسف البيوت، وبادر عبد العزيز بالاتصال بموشيه دايان على وجه السرعة ونجح في وقف مجزرة هدم ونسف البيوت الفلسطينية.

ويواصل الأستاذ عبد الرحمن رواية ذكرياته عن تلك القضية فيقول: "وعندما قابلت الصبايا قلنَ لي: نحن لا نريدك أن تدافع عنا.

قلت: حسنا، ليكن.

ولكن فدوى طوقان وريموندا استطاعتا إقناع الفتاتين في معرض أن هذا محام فلسطيني مسلم قومي وهو كفاءة وخبرة وعلم. عُدتُ واستطعت أن أُدخل فدوى طوقان وريموندا الى المعتقل، ووقعت الفتاتان على توكيل لي".

وكان إدخال فدوى طوقان معجزة فقد كانت قصيدتها "على الجسر" تملأ فضاء الوطن العربي، وتتردد على شفاه وألسنة الجماهير وتجلد بقوة وغضب رموز الاحتلال وزبانيته وخاصة وزير الدفاع دايان، وعلى أثرها أمر دايان باستدعاء فدوى طوقان واستشاط غضبا لتعبيراتها القاسية وخاصة في قصيدتها "عند جسر اللنبي" وفيها تقول:

"ألف "هندٍ" تحت جلدي
فاغرٌ فاه، سوى أكبادهم لا
يُشبعُ الجوعَ الذي استوطن جلدي
آه يا حقدي الرهيبَ المستثارْ
قتلوا الحب بأعماقي، أحالوا
في عروقي الدَّم غسلين وقارا!"

حيث كان لهذه القصيدة صدىً عنيفا في الإعلام الإسرائيلي وفي الوزارة وخاصة وزارة الدفاع الإسرائيلية. ويواصل الأستاذ عبد الرحمن حديثه قائلا: "ولكني اشترطت أن انفرد بالقضية وحدي، وأن يتم استبعاد فيلتسيا لانغر، وعلي رافع، وحنا نقارة، ولا زلت أذكر كلمات فدوى. هذا محامٍ عربي، قومي، مسلم، وهم مخلص. فليست الكفاءة مقصورة على الشيوعيين".

ولا زلت أذكر وقائع تلك الجلسة، كانت نابلس كلها محتشدة في القاعة بالإضافة إلى الاتحاد النسائي في نابلس وإعداد غفيرة من الجماهير جاءت من كل حدب وصوب من الضفة وغزة والداخل واحتشد عدد كبير من المحامين والقضاة بينهم المحامون حنارة نقارة، وصفي المصري وحسين الجاغوب ورجال الإعلام والصحافة، والأهالي وكان الجميع في حالة ترقب يتساءلون:

- ما الذي سيفعله عبد الرحمن الزعبي.

وحبس الجميع أنفاسهم وهم يترقبون نطق القاضي بالحكم الذي أعلن:

- لقد تم تخفيض الحكم من مؤبد الى ثماني سنوات.

وانفجرت عاصفة من الهتاف والتصفيق لأن عبد الرحمن الزعبي نجح في تخفيض العقوبة من السجن المؤبد إلى ثماني سنوات سجن فقط. واذكر بان المدعي العام آنذاك كان ميخا ليندنشتراوس الذي وقف موقفا مشرفا وقدم المساعدة للحصول على هذا الحكم. ميخا هذا أصبح فيما بعد رئيسا للمحكمة المركزية في حيفا ومن ثمّ أصبح مراقب الدولة لفترة سبع سنوات، وأذكر أيضا بان مواقفه كانت دائما مواقف مشرفة من أجل المحافظة على حقوق الفرد والإنسان.

ويتابع عبد الرحمن قوله:

"ورغم أني ضد ترحيل أي معتقل، لكن خوفي على الفتاتين الجميلتين الشابتين جعلني أسعى لإخراجهما وترحيلهما، وكان ابن عمي عبد العزيز قد نجح في إلغاء أمر هدم القصر. وقد نجحت في إخراجهما من السجن بعد سنتين فقط. وعلى الأثر توجهنا إلى بيت إبراهيم النابلسي والد رندة النابلسي، وإذا بي وسط حشد من المدعوين جاوز الخمسين جاءوا من إسرائيل ومن الضفة والقطاع، وكان بينهم المحامي حنا نقارة، حسين الجاغوب، وعلي رافع، فيلتسيا لانغر، وصفي المصري، وحمدي كنعان رئيس بلدية نابلس وغيرهم الكثير. وتقدمت مني فدوى طوقان بعد تقديم شكرها لي وقدمت لي مظروفا في داخله عشرين ألف دينار ولكني قلت لها:

لقد جئت متطوعا وأقدم هذا المبلغ بواسطتك للحركة الوطنية.

قالت فدوى مخاطبة المحامي الكبير حنا نقارة:

- أرأيت كيف يكون الانتصار؟

كان ذلك في عام 1968، فرد عليها المحامي حنا نقارة:

- وهل تعتقدين أن الاحتلال سيدوم ثماني سنوات؟

فردت عليه الشاعرة فدوى طوقان:

- والله يا حنا لقد سألت عضو البرلمان عبد العزيز الزعبي عن مدى بقاء الاحتلال وكان جوابه:

- راجعيني يا أخت فدوى في أواخر التسعينيات".

* * *

ومن المواقف المشرفة للقاضي عبد الرحمن الزعبي، أن الرئيس عرفات كثيرا ما كان يرسل له مبالغ مالية ولكنه كان يرفض، كان إحساسه بأنه يقوم بواجبه يفوق أي مغنم مادي آخر، وكان حريصا في مرافعاته على أن لا يتفوه المناضل أو المناضلة بأي اعتذار، أو بأي طلب للرحمة، أو بأي إحساس يدل على الندم، وهي مدرسة في الدفاع انفرد بها عبد الرحمن الزعبي لفهمه لأبعاد النضال ونظرة القانون له.

أكذوبة الديمقراطية الأمريكية

ويضيف عبد الرحمن: "في عام 1996 سافرت إلى أمريكا (للجامعة الأمريكية في واشنطن D.C) في بعثة دراسية استمرت ستة شهور، بقصد عمل بحث حول حقوق الإنسان والقوانين التي تحميها، وقد قمت بإعداد بحث عن حقوق الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك قابلت شخصيات عربية وإسلامية عديدة منها: د. هشام شرابي، ود. حليم بركات، والأستاذ كلوفيس مقصود، والكاتب فوزي الأسمر، ومجموعة من القيادات العربية المقيمة في الولايات المتحدة الأمريكية والتي لها ثقل سياسي واجتماعي وعلمي في المجتمع الأمريكي. وأذكر في أحد الأيام أني ألقيت محاضرة توصلت فيها إلى نتيجة حاسمة وهي: أنه لا وجود لحقوق الإنسان في أمريكا! وتضمنت المحاضرة العديد من الأمثلة والشواهد التي تدعم وجهة نظري، ومنها العنصرية والتفريق بين الإناث والذكور، وبين السود والبيض، وبين الديانات المختلفة، وفي شتى مظاهر الحياة الاجتماعية والعرقية والثقافية.

ولكن أحد الأمثلة الصارخة على هذه التفرقة كان على النحو الآتي:

كان عليّ ذات يوم أن أحضر محاضرة للمدعي العام الأمريكي في واشنطن، وكان موعد المحاضرة الساعة التاسعة، ولكن المحاضر وكان يدعى جيمس وهو أسود اللون، لم يصل إلا في الساعة الحادية عشرة، فلما سُئل عن سبب تأخيره قال:

- سأقول لكم: لقد أوقفتني الشرطة وكانا اثنين من البيض مع كلب. ولما أفصحت لهم عن هويتي وقلت لهم إنني المدعي العام، وأنا مسؤول فيدرالي لم يكترثوا، بل كبلوا يدي وأدخلوا الكلب وفتشوا السيارة بدون إذن تفتيش وهذه مخالفة كبيرة في القانون الأمريكي ويترتب عليها مسؤولية خطيرة، ولكنهم لم يكتفوا بذلك فأهانوني وضربوني.

ويعلق الأستاذ عبد الرحمن على ذلك بقوله:

إن أسطورة الـ "هيومن رايتس" مجرد أكذوبة في بلاد العم سام".

بانوراما عبد الرحمن الزعبي

ولد عبد الرحمن بكر محمد سعيد الزعبي يوم 1932/11/19 في قرية صغيرة جدا تدعى "سولم"، تبعد عن جنين ثمانية كيلو مترات وتبعد عن الناصرة 17 كيلو مترا. وتقع في مرج ابن عامر على سفح جبل الدحي الجنوبي، وتبعد أيضا عن غور الأردن حوالي 10 كيلو متر.

في سنوات حياته الأولى لم يكن هناك مدارس في منطقة المرج، سوى مدرسة وحيدة في القرية كانت عبارة عن غرفة واحدة يتعلم فيها جميع أبناء القرية وأبناء القرى المجاورة من الصف الأول حتى الصف الرابع، ويقوم بتعليمهم جميعا معلم واحد.

فلما أنهى الصفين الأول والثاني الابتدائي، توجه إلى مدينة الناصرة المقدسة والتحق بالصف الثالث وكان انتقاله حدثا مهما في حياته، فها هو ابن الفلاحين يحضر إلى مدينة الناصرة التي كان عدد سكانها في تلك الفترة حوالي 11 ألف إنسان في حين يبلغ عدد سكانها اليوم 80 ألف نسمة.

في ذلك الوقت لم تكن في قرية سولم أية وسيلة نقل تسمح بالانتقال خارج سولم وخاصة الناصرة، ويذكر أن عدد السيارات لم يكن يتجاوز آنذاك أربع سيارات أجرة وسيارة باص واحد. وفي الشتاء لم

تتمكن لهذه السيارات أن تسير بانتظام لعدم وجود طرق معبدة بين القرى والمدن، فكان لا بد أن ينتقل عبد الرحمن إلى بيت عمه عمر الزعبي في مدينة الناصرة الذي رباه ورعاه وأنشأه، وهناك توثقت علاقة عبد الرحمن مع أبن عمه عبد العزيز الزعبي عضو البرلمان ونائب وزير الصحة فيما بعد وأصبحت تربطهم علاقة تفاهم اجتماعي وسياسي.

كان التعليم في ذلك الوقت مهما جدا لأسر الفلسطينيين بعد أن تعرضوا لنكبة الشتات ووجدوا أن مستقبل أولادهم ينحصر في التعليم وأن هذا التعليم سيكون المعادل الموضوعي لفقدهم فرص العمل والنجاح في الحياة. في هذه الفترة كان عبد الرحمن مشغوفا باللغة العربية وباللغة الانجليزية، ومن المدرسين الذين تأثر بهم في تلك الفترة مدرس اللغة العربية الأستاذ حنا إبراهيم والأستاذ حبيب حزن ومن مدرسي اللغة الانجليزية تأثر بحنا أبو حنا وهو لا يزال موجودا في حيفا.

السنوات من عام 1942 إلى عام 1948 كانت دراسته في فلسطين ومن خلال المناهج الفلسطينية فلم يكن هناك مجال لدراسة اللغة العبرية أو المناهج الإسرائيلية الأخرى، لم يكن الحكم الصهيوني موجودا ولم يكن الحلم الصهيوني قد تجسد في دولة إسرائيل.

وكان النظام المتبع أن الطلاب الأوائل في المدارس المختلفة يتم استيعابهم في مدرسة الكلية العربية بالقدس ، أما من كان ترتيبهم (الثاني) فكانوا يلتحقون بالمدرسة الرشيدية.

سنوات التعليم الثانوي

عندما قامت دولة إسرائيل لم يكن أمامي سوى الانتظام في إحدى مدارس الناصرة وذلك للحصول على شهادة البجروت. وقد تقدمت لهذه الشهادة عام 1953 فكنت من أوائل دفعتي، وكان مجموع من تقدموا 15 شابا وشابة. وكنت الوحيد الذي اجتزت الامتحان بتفوق. ومن ثم بدأت أفتش عن طريق لإكمال دراستي وكان ذلك في منتهى الصعوبة من الناحيتين المادية والاجتماعية.

وكان هناك تحفظ سياسي وعلمي يحول دون إكمال الطلاب العرب لدراساتهم الجامعية، ولكني تحديت كل الظروف وكنت مصرا على أن التحق بالدراسة الجامعية. وكانت ظروفي المادية لا تسمح لي بان أواصل الدراسة ورغم أننا نمتلك كثيرا من الأراضي إلا أني رفضت أن أتنازل عن شبر واحد من الأرض لإكمال دراستي.

وهكذا التحقت بالدراسة المسائية في مدينة حيفا فكنت أدرس في الليل الحقوق والاقتصاد وفي النهار كنت أعمل في التدريس حيث كنت أدرس أبناء البدو وفي بعض المدارس الخاصة المختلفة إلى أن أنهيت سنتين في مدينة حيفا. ومن ثمّ كان لا بد لي أن التحق بفرع الجامعة العبرية في تل أبيب لإكمال السنتين الباقيتين بحيث احصل على درجة البكالوريوس في الحقوق.

ومن ذكرياتي عن تلك الفترة أنني واجهت صعوبات مادية وأكثر من ذلك صعوبات من الحكم العسكري الذي كان يرفض أن أدخل حيفا إلا بعد الحصول على تصريح دخول لمدة شهرين وكان علي أن أقف في طوابير مطولة مع عمال البناء لأحصل على التصريح. وكان هذا يستمر طوال ساعات تستنزف كبريائي ومشاعري، ولكني كنت مهيئا للتضحية مُصرا على أن أواصل الطريق وأن أتحدى كل هذه المعوقات.. ولعل هذه الخاطرة تذكرني بما كنت أعانيه عندما كنت أرغب في الانتقال من الناصرة إلى حيفا أو إلى عكا فقد

كان علي أن أحصل على تصريح من الحكم العسكري، وها نحن بعد أكثر من خمسة عقود لا زلنا نعاني من مأساة التصاريح.. لا شيء يتغير في قاموس المحتل وفي أبجدية القمع.

ومن ذكرياتي في تلك الفترة أنني كنت ادرس الطلاب خلافا للمنهاج الإسرائيلي بعض القصائد الوطنية لشوقي أو حافظ إبراهيم أو إبراهيم طوقان. كنت حريصا على أن أبث فيهم الروح القومية والوطنية ولكن هذه الدروس كان يتسرب خبرها إلى المسؤولين فكتبوا فيّ التقارير مطالبين بإبعادي عن مهنة التعليم. ولكني لم أكن أبالي، فقد كنت مؤمنا بان رسالة المعلم قوامها الأمانة والإخلاص في تثقيف الأجيال ليعرفوا حقيقة أوضاعهم وخاصة أبناء فلسطين الذين كانوا يحاصرون بالمد الصهيوني في كل لحظة.

المحامي .. اللقب المحبب إلى نفسي

في عام 1957 تخرجت من الجامعة العبرية في تل أبيب، وكنت في الواقع أول خريج عربي في دولة إسرائيل.. والواقع أنه كان هناك العديد من المحامين منذ فترة الانتداب.

فترة التدريب كانت بالنسبة لي طويلة نسبيا وشاقة، ووجدت صعوبة لكي أجد مكانا يقبل أن أتدرب فيه، ولكن اهتديت أخيرا إلى التدريب على يد بعض المحامين وقد أنهيت فترة التدريب في 17 تشرين أول عام 1960 وحصلت على رخصة مزاولة المحاماة.

بدأت أمارس المهنة في حيفا في مكتب محامٍ يهودي هو الأستاذ موشيه عمار، وكان من أعضاء الحزب التقدمي "مبام"، ثم حدثت نقلة هامة في حياتي عندما تم تعييني قاضيا في المحكمة المركزية في الناصرة عام 1978 وكنت قد أمضيت إحدى وعشرين سنة محاميا في ذلك المكتب، علما أنني كنت شريكا فيه بنسبة 25 في المائة.

القاضي عبد الرحمن الزعبي

شهد عام 1978 حادثا خطيرا في حياتي وسجلت فيه سبقا حضاريا وقانونيا، فقد تم تعييني قاضيا في المحكمة المركزية في الناصرة. وقد سبقني إلى هذا المنصب القاضي محمد نمر الهواري، فقد كنت أنا الثاني. وأمضيت في المحكمة المركزية سنوات طويلة إلى أن خرجت للتقاعد. وقد تم تعييني في المحكمة العليا في 8 آذار عام 1999 لسنة واحدة، ثم تم تمديدها غالى سنتين، ولي أن أقول بكل تواضع: إن ذلك انجاز ليس لعبد الرحمن الزعبي وإنما لكل عربي جاد مخلص مستقيم في عمله يستطيع أن يحقق المعادلة الصعبة فينجح مهنيا ويظل رمزا من رموز الطهارة والنقاء والوطنية.

قضايا ومواقف تستحق التأمل

من القضايا التي شغلتني وحاولت أن أحقق فيها انجازات قانون جمع الشمل للعائلات الفلسطينية. فهذا القانون بالغ الصعوبة والتعقيد وكلما مرت الأيام كلما ازداد تعقيدا وعنصرية ونظرة عارية عن الإنسانية. وقد عانيت أنا على المستوى الشخصي من هذا القانون حيث كان عليّ أن اجمع شمل زوجتي سوسن سهيل زيد الكيلاني التي ارتبطت بها منذ عام 2000 ولم أتمكن من تحقيق جمع شملها إلا في فترة متأخرة.

وقد حاربت بكل ما أستطيع هذا القانون الذي يخلو من كل إنسانية. كما أني بكل صدق حاربت (يهودية الدولة). فإسرائيل كيان لا يمكن أن تتحقق فيه اليهودية والديمقراطية، وليس هناك في العالم كله من دولة تعلن أنها دولة دينية إلا دولتين في العالم هما إيران وإسرائيل. وقد بحثت المحكمة العليا بكامل هيئتها أحد عشر قاضيا قانون جمع شمل للعائلات الفلسطينية وقرر خمسة قضاة برئاسة رئيس المحكمة آنذاك البروفيسور باراك بأن قانون جمع الشمل قانون عنصري ولا يمت لأمن إسرائيل بصلة ويجب إلغاؤه، بينما قرر ستة آخرين بأن هذا القانون يجب أن يكون مفعوله نافذا لحماية أمن إسرائيل. وحتى الآن لم يلغَ هذا القانون العنصري.

عبد الرحمن الزعبي وقضايا الأراضي

ومن القضايا التي لا أنساها أنني استطعت أن أترافع عن العديد من مالكي الأراضي التي كانت معدة للمصادرة ونجحت في إلغاء المصادرة. وخلال جلوسي على منصة القضاء استطعت أن أصدر قرارات بتحرير أكثر من 1400 دونم من أراضي قرية مجدل شمس في الجولان التي كانت تحت سيطرة السلطة واعدتها إلى أصحابها الأصليين. كما استنجد بي أصحاب الأراضي في النقب من إخوتنا البدو لأتصدى للدفاع عن أراضيهم التي تتعرض للنهب وقد لبيت النداء ولكن ظروفي لم تسعفني لأواصل المشوار.

أول عربي يعين في محكمة العدل العليا

أما عن اختياري كعضو في محكمة العدل العليا الإسرائيلية فإني أسجل أن هذه المحكمة تمتاز بمصداقية عالية ولها صلاحيات إلغاء أي قرار من قرارات الكنيست، ولكن من المؤسف أن هذه القرارات بعد أن تصدر عن المحكمة العليا تصطدم بآلية التنفيذ المجحفة والغير عادلة.

ومن ذكرياتي التي لا تنسى أن عملي في المحكمة العليا عزز إيماني بأن الحق لا بد أن ينتصر وأن هناك نفراً من الناس بلغوا حدا من الشفافية في إقامة الحق والانحياز إلى العدالة من وجهة نظر مهنية خاصة، ولي أن أقول إني كنت واحدا من هؤلاء فكان واجبي المهني هو الذي يوجهني في كل القضايا التي حكمت فيها أو ترافعت فيها.

وقد مثلت قضاة دولة إسرائيل في المؤتمر العالمي لقضاة المحاكم العليا في النمسا في مدينة سالسبورغ عام 1999، كما مثلت قضاة إسرائيل في مؤتمر عقد في دبلن في ايرلندا. ولي أن أقول إني مثلت القضاة برأس مرفوع وبكلام واضح وبصورة مهنية صادقة، وقد أصدرت عدة قرارات وافق عليها زملائي القضاة الآخرون ولا تزال تعتبر سابقة قانونية تدرس في الجامعات.

ولا يزال نبع العطاء مستمراً

وأنا اليوم أترأس كلية سخنين لتأهيل المعلمين وهي كلية تمنح درجة البكالوريوس والماجستير لتأهيل المعلمين. كذلك أترأس مع صديق إسرائيلي آخر منظمة عالمية تدعى صندوق إبراهيم وهي تؤمن بالمساواة والتعايش السلمي وتعمل لمصلحة الشعبين داخل البلاد.

وبعد..

لقد كان عبد الرحمن الزعبي شخصية وطنية جمعتنا مبادئ الانتصار للحق ومقاومة الطغيان والفردية والتسلط، وقد وجدت في علمه وإخلاصه ومثابرته صديقا لزوجي ولجميع أفراد العائلة، الجأ إليه في كل ملمة صادفتها في حياتي المهنية والإعلامية وكان دائما سندا لي في مواجهة كل المحن التي كانت سلطات الاحتلال تطاردني بها سواء أكان ذلك في نابلس أو القدس أو رام الله، فحق لي أن أقدم له هذه الباقة اعترافا بفضله كما أقدم خالص إعزازي ومودتي مع باقات ورد ومحبة لصديقتي الراحلة (أم بكر) شقيقة عبد العزيز الزعبي والزوجة الأولى لعبد الرحمن، كما أقدم حبي وإعزازي وتقديري لزوجته الحالية الأخت سوسن الكيلاني مستذكرة في هذه المناسبة إن الطيبين للطيبات. وتلك شهادتي للأمة والحق والتاريخ.

(2012/11/16)

أحمد سعيد الجعبري

حوّل تنظيمات القسام إلى جيش منضبط، وقسم القطاع إلى ستة قيادات مستقلة لها حرية اتخاذ القرارات وكان القائد. عقليّة عسكرية فذة تتلمذت في ساحة المبدأ والتجربة والفداء وكانت أكبر شاهد على أن قوة الحق قادرة على أن تكون نداً لحق القوة. عامل "شاليط" بإنسانية مرهفة، فحول قناعاته، وأخفاه عن أكاديمية شياطين المخابرات الإسرائيلية والأمريكية خمسة أعوام كاملة

ها هو فارس جديد في قافلة شهداء فلسطين يترجل عن جواده، فارس شجاع مؤمن، كان أعظم ما في حياته، أنه كان يسعى إلى الشهادة.

بطل حقيقي، واجه الحياة وتصدى للعدو بالصدق مع ربه ونفسه، عرف ماذا يريد، وسعى إليه بكل ما أوتي من مفردات القوة والإيمان.

إنني في هذه الحلقات، لا أكتب رثاء تقليديا، ولا أسطر عبارات إنشائية من وحي الواجب والمناسبة، ولكني أبحث معكم عن مساحات العبقرية والتفرد والنبوغ الإنساني والأخلاقي والنضالي في ملفات حياة هذه الصفوة.. وكان أحمد الجعبري واحدا منهم.. واحدا من تلك الصفوة النادرة، التي تفيض على كل من حولها نضالا وشجاعة وبرّا وخلقا. وعندما التقي بهذا الأنموذج من الأنماط الإنسانية النادرة أشعر بالأسى والحزن والشجن، يكاد يخنقني ويزهق أنفاسي، عندما تمتد يد الغدر والقدر لتخطفهم في لحظات عاصفة غادرة قبل أن يستكملوا رسالتهم ويفيئوا على شعبهم وأمتهم بالعطاء والجمال والخير والشجاعة والحب.

أحمد الجعبري..

رجل من معدن الذهب الأصيل، الذي لا تزيده نيران الاحتلال وجبروته وغدره إلا أصالة وتألقا، إنه الفارس القائد الذي غاب عن ساحة الميدان، وهي أشد ما تكون حاجة إليه.

كان قائدا فذا.. كأنه كتيبة من المقاتلين، كأنه هيئة أركان حرب قائمة بنفسها، يخطط ويقاتل ويعلم وينظم، ويجمع بين عبقرية الفكر العسكري وبين نبوغ القائد، الذي يبث في روح جنوده الشوق إلى الشهادة والنصر، وقهر العدوان والبطش.

في تاريخي النضالي والإعلامي، التقيت عشرات الشهداء والأبطال واهتز، وجداني بعبقريات الأبطال الذين سقطوا ضحية الغدر والعدوان، ولكن أحمد الجعبري حالة خاصة جدا، بطولة نادرة، وشخصية فذة.

أقوى من الموساد

رجل دوخ آلة المخابرات العسكرية بكل ما فيها من النظريات والأبحاث والدراسات والتجارب والآلات والعدد والمستحدثات. رجل واحد فرد، هزم استخبارات الموساد والـ السي. أي. ايه، وتفوق على هيئة أركان الجيش الذي لا يقهر، وحافظ على أسيره "جلعاد شاليط" أكثر من خمس سنوات. إن فضيلة الشجاعة تنحني أمامها كل الرؤوس، فإذا جمع القائد بين نبل الأخلاق، وصدق الرؤيا، وقوة الحق وحرارة الإخلاص والمبدأ شكل أنموذجا فريدا رائعا لشعبه وأمته وللإنسانية جمعاء. كان أحمد الجعبري واحدا من هؤلاء، واحدا من الصفوة النادرة، تلك التي تلتقيها في مسيرة عظماء القادة والتاريخ، لا أقول إنه كان إياهم، ولكني أقول إن في حياته لمحات من حياتهم، كان في حياته قَبس من مسيرة المناضل عمر المختار، وكان في حياته لمحات شجاعة وفروسية نجدها في بطولة خالد بن الوليد، وكان في زهده وعفته فصولا رائعة من حياة صلاح الدين الأيوبي. فمن أي معدن كان هذا البطل القائد من أبناء فلسطين؟!

ومن رحم السجون ولد قائداً

أمضى في سجون الاحتلال ثلاثة عشر عاما، فلما خرج، انطلق إلى ميدان المعركة جنديا محاربا فذا، لم تؤثر فيه سنوات السجن، ولم تنسحب ظلماته على عينيه غشاء من السواد، وإنما تألقت بين جوانحه شمس الحقيقة والنضال والقتال في الصفوف الأولى، طالبا الشهادة، بعلمٍ وصبرٍ وشجاعة وتخطيط، ليسقي العدو كأس المنون والهزيمة.

ولعل أروع ما في حياة الشهيد احمد الجعبري ذلك الفصل المثير الذي ارتبط بالتخطيط والتنفيذ لعملية الأسير جلعاد شاليط، فقد كان أحمد الجعبري وراء العملية تخطيطا وتنفيذا، فلما عاد المقاتلون بالأسير تسلمه وحافظ عليه ولازمه طوال أعوام طويلة وعامله معاملة إنسانية رفيعة مستوحاة من الخلق الإسلامي الرفيع الذي يضمن للأسير كرامته وإنسانيته.

ولا شك أن آلة المخابرات الجهنمية الإسرائيلية المعروفة بالموساد، وآلة المخابرات الأمريكية المعروفة بالسي.اي.ايه كانت تتبع وتلاحق أحمد الجعبري مؤملة أن تستطيع استعادة شاليط، ولعل الحملة العسكرية التي أطلق عليها "الرصاص المصبوب" عام 2008، كان من أهم أهدافها البحث عن شاليط وتحريره ولكن ذلك لم يتحقق بفضل عبقرية أحمد الجعبري وحسن قراءته للفكر العدواني الغادر.

لقد حافظ عليه، بل وحاول التأثير عليه بالمنطق والعقلانية وشرح له حقيقة الشعب الفلسطيني وأقنعه بصورة رائعة بمدى ظلم وغطرسة وعدوان الآلة العسكرية الإسرائيلية التي تريد أن تغتصب أرض الآخرين وأن تحرمهم من حق الحياة.

حافظ أحمد الجعبري على شاليط وضمن له حالة صحية ونفسية سليمة وظل في رعايته حتى سلمه إلى أهله بعد أن تم الاتفاق على الإفراج عن ألف أسير فلسطيني.. وها هي إسرائيل ترد له الجميل فتغتاله غدرا مع مرافقه بصاروخ لم يبقِ من سيارته إلا أشلاء.

هذه العبقرية العسكرية التنظيمية، التي تجمع بين الإنسانية والذكاء والخبرة، والمقدرة الفذة، هي التي تجعل العقلية الفلسطينية قادرة على الانتصار والتفوق، فقطاع غزة، لا يزيد عن 368 كيلو مترا مربعا، ومع ذلك حاولت الآلة الجهنمية الشيطانية أن تصل إلى شاليط، ولكن أحمد الجعبري، استعصى عليهم.

وليس ذلك فحسب؛ فالروح الإنسانية النبيلة، والخلق الإسلامي الرفيع والتسامح والرحمة والتواصل، كانت أسلوب أحمد الجعبري في التعامل مع الجندي الأسير، الذي أدرك، كم هو إنساني ونبيل ونظيف الإنسان الفلسطيني، حتى لو سلبوه وطنه وأرضه وشردوه، فهو، فوق الأحقاد، والعنصرية، والنقمة والتشفي.

كان أحمد الجعبري كالتبر الحقيقي الذي نستخلص منه الذهب الأصيل بالمحن والنار والبارود والمتفجرات. قائد شجاع، يعرف أن الموت يترصده، وأن العدو يتربص به، ويدرك أنه مستهدف، وأنه على قائمة الاغتيال. ولكنه لم يتراجع، لم يجبن ولم يتردد، تأمل قائمة الشهداء الأبطال من رفاقه، ومضى مقاتلا مؤديا رسالته، يسعى للشهادة مؤملا أن يلحق بالرفاق، هذه الروح البطولية الفدائية، تجلت في الشيخ أحمد الجعبري، وكانت شعلة وضاءة تنير له الطريق ليمضي قدما مجاهدا متحديا، مصمما على تحرير وطنه وإعلاء كلمة الحق في سبيل الله والوطن والواجب.

لمحات بطولات عائلية

استشهد ابنه الأكبر "محمد" فاحتسبه عند الله شهيدا ولم يتراجع، ولم يتردد، بث في أولاده، فلذات كبده.. بث فيهم روح الجهاد وحب الوطن والرغبة الصادقة في حمل الرسالة بوعي وعلم وخلق، وبانضباط ديني رفيع في أداء الصلاة، وبحب إنساني خلاّق لقيم الحق والخير والجمال.

يقول مؤمن الجعبري "19" عاما عن والده الشهيد: إن اللحظات الأخيرة التي سبقت استشهاد والدي كانت تشير إلى أنه يستعد لملاقاة ربه. فقد انتهى من تحقيق أمنيتين له كان في شوق دائم لتحقيقهما وهما: أن تقر عينه برؤية الأسرى محررين، والحج إلى بيت الله الحرام.

وكان بعد عودته من الحج يفضل التقرب من الناس، ويتعامل مع لجميع بروح عالية من الشفافية والمودة، وتلمع في عينيه وملامح وجهه آيات من الحب والتواصل الوجداني البديع، كانت نظراته وإشاراته توحي بأنه كان يودع الدنيا، والحقيقة أن هذا السلوك قد تجلى أمامنا الآن بصورة واضحة بعد استشهاده.

ويقول مؤمن: وقبيل استشهاده طلب مني أن أسلم بعض الأمانات والديون إلى أصحابها، وأوصاني بإخوتي وطلب مني أن أحثهم على الصلاة بالمسجد، والتشبث بالجهاد والمقاومة.

وقال مؤمن: إن والده كان يمتلك حسا أمنيا عاليا، كان شديد الحذر في كل تحركاته، وكان على وعي تام بخطط العدو الذي يتربص به، ولذلك عجزت أجهزة العدو الاستخبارية عن استهدافه لسنوات وسنوات، ولكن في هذه المرة جاءت لحظة القدر لملاقاة ربه لتنال منه طائرات الاحتلال، ليصعد شهيدا للقاء ربه كما كان يدعو دائما.

وكان والداً محباً عطوفاً

ويقول مؤمن: رغم أعباء والدي القيادية والعسكرية، ورغم متابعته لملف الأسرى، فإن شخصيته القوية الحازمة، شخصية القائد العسكري القوي، كانت تتلاشى عندما يتعامل معنا، بتواضع وحب وقلب

يخفق بالحنان والرقة والطهارة والعطف، وكانت توجيهاته لنا قائمة على: النصح والإرشاد والإقناع، وكان قريبا منا كأصدقاء له يغمرهم بالحب والاهتمام.

ويكشف ولده معاذ "17" عاما عن جوانب أخرى من شخصية الشهيد أحمد الجعبري فيقول: كان والدي شديد الحرص على متابعة شؤون أُسر الشهداء والجرحى والأسرى، وكل ضحايا الاحتلال، وكان والدي يشارك في كثير من الاحتفالات والمهرجانات الجماهيرية الشعبية، ولكن بعيدا عن كاميرات الإعلام، وإنما في الصفوف الأخيرة التي لا تلفت الأنظار. وأضاف معاذ: لم يكن والدي يتقدم في الصفوف الأولى إلا في ميادين المواجهة حين ملاقاة العدو.

عاشق التاريخ وجغرافية فلسطين

ويكشف ابنه مالك "15" عاما عن جوانب أخرى من شخصية البطل الشهيد فيقول: كان والدي قد حصل على درجة جامعية في التاريخ والجغرافيا، وكان يحثني دائما على دراسة الجغرافيا لأكون على علم بتفاصيل بلدي، واستوعب كل شبر من خريطة فلسطين التاريخية، ولأتعرف على ثرواتها التاريخية، واكتشف تضاريسها ولأدقق في كل طبيعتها وسهولها وجبالها ووديانها وكل ذرة رمل من ترابها، وكان والدي حريصا على أن يبين الثروة الحقيقية لفلسطين، وأسباب اليهود في الحرص على احتلالها.

ويساهم أحد أقارب الشهيد في رسم صورته وإلقاء الضوء على ملامح شخصيته فيقول: كان أبو محمد (أحمد الجعبري) يحرص على أن يبين لنا إن قوة العدو تقوم على شراء الصواريخ، أما نحن فعلينا أن نعتمد على أنفسنا ويجب أن نقوم بتصنيعها بأنفسنا.

ويضيف هذا القريب الصديق الذي يدعى "أبو أحمد": كان أبو محمد يتقدم صفوف المقاومين، وكان قائدا شعبيا محبا لجنوده ورفاقه، يفضل الاحتكاك بهم، والتعرف على أفكارهم وآرائهم، ويصغي باهتمام لاقتراحاتهم، ويتلمس سبل احتياجاتهم، محاولا دائما التركيز على إثراء تجارب وخطط ومفاهيم جنوده، طارحا الحلول للعقبات والصعاب التي تعترض خطط المقاومة والتصدي لجيش الاحتلال.

عقلية عسكرية فذة

وقالت عنه صحيفة "نيويورك تايمز" الأمريكية: إن كتائب القسام، الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية، أصبحت بفضل قيادة أحمد الجعبري، ذات تنظيم عالٍ ومهنية متزايدة، وأصبحت تتبنى أنظمة تدريب وتسلسل قيادي واضحين، كما أصبحت أكثر مهنية وأشد انضباطا عسكريا، وقد وصل عدد المنتظمين فيها أكثر من عشرين ألف مقاتل.

وتضيف الصحيفة: إن الجعبري عزز خلال السنوات الأخيرة القوة السياسية للفرع العسكري، كما أصبح بطلا شعبيا تملأ صوره الملصقات واللافتات على نطاق القطاع.

وتقول الصحيفة: إن القسام تعمل منذ فترة طويلة على هيكل لا مركزي، حتى إذا فقدت قيادتها، فإن قيادة جديدة تنهض لتحل محلها، فهي مقسمة إلى أجزاء شبه مستقلة، وهم يعملون على شكل خلايا، ولذلك حتى إذا كان الجعبري هو القائد، فهناك قادة آخرون.

وذكرت الصحيفة أن أحمد الجعبري قسم قطاع غزة إلى ست مناطق جغرافية، لكل منطقة قائدها الذي يخضع لسلطته، ولكل منطقة مدفعيتها، ومضادات للدبابات والطائرات، بالإضافة إلى قناصتها ومهندسيها ومشاتها، علاوة على قوات خاصة بالاتصالات والأعمال اللوجستية، والتهريب، والأسلحة والاستخبارات والعلاقات العامة.

ولد وعاش ليكون ثائراً

ولد أحمد سعيد الجعبري عام 1960 في حي الشجاعية شرق مدينة غزة، وحصل على شهادة البكالوريوس، تخصص تاريخ من الجامعة الإسلامية بغزة.

وقد استهل الجعبري حياته النضالية في صفوف حركة فتح، ومن ثم اعتقل مع بداية عقد الثمانينيات على يد قوات الاحتلال، وأمضى ثلاثة عشر عاما في سجون الاحتلال، بتهمة انخراطه في مجموعات عسكرية تابعة لفتح خططت لعمليات فدائية ضد الاحتلال عام 1982.

وانتمى لاحقا لحركة حماس، وعمل بمكتب القيادة السياسية لها، وتأثر بعدد من قادتها ومؤسسيها الأوائل وكان من أبرزهم:

- الشهيد عبد العزيز الرنتيسي
- الشهيد إسماعيل أبو شنب
- الشهيد نزار الريان
- الشهيد إبراهيم المقادمة

كما تأثر إلى حد بعيد بعقلية وفكر الشيخ الشهيد صلاح شحادة.

وعقب الإفراج عنه من سجون الاحتلال عام 1995، تركز نشاطه في إدارة مؤسسة تابعة لحركة حماس تهتم بشؤون الأسرى والمحررين، ثم عمل في العام 1997 في حزب الخلاص الإسلامي، وفي تلك الفترة توثقت علاقة الجعبري بالقائد العام لكتائب القسام "محمد ضيف" والقائدين البارزين، عدنان الغول وسعد العرابيد، وساهم معهم إلى جانب الشيخ صلاح شحادة في بناء كتائب القسام.

أحمد الجعبري .. واختراق حاجز الخوف

ويقول ايتان برونر مراسل صحيفة "هيرالد تريبون" في معرض حديثه عن بصمات الشهيد احمد الجعبري: لقد حول القائد أحمد الجعبري قوات المقاومة ذات العيار المنخفض إلى قوة منضبطة، ذات أسلحة متطورة مثل صواريخ "فجر 5"، وزاد إلى حد كبير من الخطر على المدن الكبرى في إسرائيل، ولهذه الصواريخ مدى 45 ميلا، وتطلقها طواقم مدربة من منصات إطلاق تحت أرضية.

وكانت إستراتيجية الجعبري فعالة ومخيفة بالنسبة إلى إسرائيل، بل إن الجعبري نجح في تطوير أسلحة المقاومة الفلسطينية، وإنتاج وتصنيع صواريخ طويلة المدى، وكذلك طائرات من دون طيار، كان الجعبري يخطط لها بأن تحلق في سماء إسرائيل فوق مدنها تماما، كما تطوف الطائرات الإسرائيلية من دون طيار أجواء غزة ناشرة الرعب والخوف في صفوف المواطنين الآمنين.

ويقول أحد خبراء الأمن الإسرائيليين: إن الجعابري الذي يعتبر خبرا استراتيجيا حاذقا، استطاع منذ العام 2007 أن يحول عملية الدفاع عن الأحياء السكانية إلى عمليات تصدٍّ يقوم بها جيش حقيقي، فقد استطاع أن ينظم ما كان ميليشيا على شكل سرايا، إلى كتائب وألوية، وقام بإرسال العديد من القادة إلى سوريا وإيران ليقوم الحرس الثوري بتدريبهم، ثم بنى من كل هذه الفروع مؤسسة لتطوير تكنولوجيا عسكرية تركز على الصواريخ الطويلة المدى.

وقال جيفري وايت- وهو محلل سابق في استخبارات الدفاع الأمريكية: إن لدى المقاومة الفلسطينية، في أي حال تشكيلة من أنواع الصواريخ والأسلحة في ترسانتها، بالإضافة إلى "فجر 5". كما أنها تمتلك بضع مئات من صواريخ غراد من عيار 122 ملم، وذات رؤوس حربية فاعلة.

لن نموت صامتين

لقد كان الشيخ الشهيد يجسد في كل قراراته وممارساته واجتهاداته إرادة القتال، والدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني، ضد أشرس قوة عسكرية حديثة، تستند إلى قوى البغي والعدوان الأمريكي والغربي، وبينما يرفض العالم الدفاع عن الفلسطينيين، دعا الجعبري إلى ضرورة أن ندافع عن أنفسنا، فإن لشعبنا الحق في الحياة والدفاع عن النفس.

وكان أحمد الجعبري يؤمن بما يقوله موسى أبو مرزوق: "لن نموت صامتين بعد الآن".

وكان أحمد الجعبري عقلانيا في قراراته وتصوراته، كان إيمانه يدفعه إلى الطموح، إلى النصر والاستشهاد، ولكنه كان على وعي بان هزيمة العدو ليس أمرا يسيرا، ولكن في وسعنا أن نقف أمام الطغيان الإسرائيلي والعربدة المجنونة التي قوامها القوة العمياء، في استطاعتنا الوقوف أمامها بحزم، وفي مقدورنا أن نشل الحياة في جزء كبير من البلاد وذلك حق مقدس لنا، يجب أن نحرص عليه في ظل الربيع العربي الذي سيغير موازين القوى، حيث تلتقي الأيادي وتلتف كلها حول رايات المقاومة الفلسطينية والعلم الفلسطيني.

ومن المقولات المعروفة عن الشهيد الجعبري قوله: ما دام الأعداء يحتلون أرضنا، فليس لنا سوى المقاومة. ومن مقولاته: إن كتائب القسام لم ولن تسقط من حساباتها أي خيار ممكن من أجل تفعيل المقاومة، وتحرير الأسرى، وقهر العدو، وستبقى عيوننا شاخصة صوب القدس، والأقصى، ولن تنحصر داخل حدود غزة، وإن مشروعنا المقاوم سيمتد كما كان دوما ليشمل كل مدننا وقرانا وأراضينا المغتصبة.

لمسات إنسانية في حياة القائد

أنجب الشيخ أحمد الجعبري اثني عشر ولدا وبنتين، وعاش حياته في سرية تامة، حيث نأى بنفسه عن كل وسائل الإعلام، ولم يظهر إلا في نطاق بعض التدريبات العسكرية للمناضلين، ويوم تسليم الجندي الإسرائيلي الأسير جلعاد شاليط لمصر ظهر وهو ممسك به إلى جانب القيادي المناضل رائد العطار، كما ظهر في بعض المناسبات الخاصة بتكريم الأسرى المحررين لدقائق قبل أن يختفي.

وكان القائد الشهيد يتقن اللغة العبرية، وكان يحث جنوده على ضرورة تعلم اللغة العبرية مصداقا للمقولة الحكيمة "من تعلم لغة قوم أمن شرهم"، وكان إتقان اللغة العبرية يساعد على تفهم نفسية

العدو، وطريقة تفكيره كما كان يساعد على فهم اتجاهات الرأي العام الإسرائيلي، وفهم فلسفة الأحزاب وخططها وبرامجها والوقوف على إبعاد الشخصيات والزعماء الإسرائيليين.

ومن اللحظات الحرجة في حياة الشهيد، أنه تعرض لأربع محاولات اغتيال قبل ذلك، وفي إحداها وكان ذلك عام 2004 استشهد ابنه البكر محمد، كما استشهد شقيق له، وبعض أقاربه.

وقد قاد أبو محمد عملية تبادل الأسرى الأخيرة، المعروفة باسم "صفقة شاليط" حيث تمت عملية التبادل عام 2010 وفيها تم مبادلة الأسير شاليط بـ 1027 أسيرا وأسيرة فلسطينية بعضهم من ذوي الأحكام العالية.

في سجل الخالدين

البطل الشهيد أحمد الجعبري، صوت وصورة وتاريخ وهامش هام في ذاكرتي، ووجداني وأيامي، فارس جديد، ينضم إلى قافلة الأبطال الأصدقاء الذين عرفتهم وزاملتهم وعايشتهم، واكتويت بنيران فراقهم وبكيت الدموع دما، حسرة وألما وحزنا عليهم وهم يُختطفون في لمح البصر بيد الغدر والعدوان والقافلة طويلة، طويلة، والذكريات معطرة بشذا البطولة، والفداء، وعبقرية النضال. ها هو أحمد الجعبري يأخذ مكانه بين صفوة الشهداء، الذين احتلوا أنصع الصفحات في تاريخ أشرف ثورة وأعظم مسيرة.

تلك القافلة الرائعة من صفوة الشهداء، ممن استوقفوا التاريخ فانحنى إجلالا أمام بطولاتهم: صلاح خلف (أبو اياد)، خليل الوزير (أبو جهاد)، الشيخ احمد ياسين، أبو على مصطفى، ماجد أبو شرار، عصام سرطاوي، وائل زعيتر، سعيد حمامي، محمود الهمشري، عبد العزيز الرنتيسي، صلاح شحادة، هايل عبد الحميد، غسان كنفاني، ناجي العلي، أبو علي حسن سلامة ، يحيى عياش، وغيرهم كثيرون.

هذه نخبة من القادة، الأبطال الذين قُدر لي بحكم عملي الإعلامي أن ألتقيهم، وأتواصل معهم، وأقف على خبايا عبقريتهم النضالية والإنسانية، ولهذا كان حزني عليهم، يترك بصماته على شرايين قلبي ووجداني، فلا نكاد نفقد واحدا منهم، إلا ويأتي فارس جديد، يجدد أحزاننا ويشعل في وجداننا نيران الألم والحزن.

وها هو أحمد الجعبري، ينضم إلى هذه القافلة من نخبة الإبطال والقادة الذين يشكلون بمواقفهم وبطولاتهم علامات بارزة في تاريخ الثورة الفلسطينية.

أحمد الجعبري .. موحد الشعب والقيادة

وقبل أن استرسل في رسم صورة البطل لا بد لي أن أقف أمام الشهيدين الرائدين: الرئيس ياسر عرفات، والشيخ أحمد ياسين، وقد أتاحت لي المتغيرات النضالية والإعلامية في حياتي أن اتخذ من عرفات قائدا ومرشدا ومعلما ونبراسا وأنموذجا ورائدا، عايشت حياته واكتويت بآلامه وشربت كأس المرارة، الذي فرض على كل فلسطيني حر أن يُسقاه وهو يواكب حياة الرئيس وما فيها من حروب ومؤامرات.

كم انتشيت وحلقت في سماء المجد لانتصارات الرئيس وصلابته وصموده وبطولاته، حتى غدا علما من أعلام النضال المعاصر لكل المناضلين في إفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا وفي شتى الأمم والشعوب المقهورة المحاربة، في يمينه جائزة نوبل للسلام وفي يُسراه شهادة كاسترو ومانديلا وشيراك وغيرهم من العظماء الذين انحنوا إجلالا أمام نضاله ورسالته.

الجعبري القائد الذي تتلمذ على يد شيخه

وأما الشيخ أحمد ياسين فهو صنو للرئيس عرفات، ورفيق لنضاله، ومفجر لثورة وقيادة حكيمة، إنه صورة نابضة للبطولة والرؤيا وبصيرة رائعة وفكر خلاق وجرأة لا تتوفر إلا في الرواد.

هكذا كان يراه عرفات وهكذا لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال.

تابعت ثورته وأعماله وواكبت بطولاته في كل معركة وموقعة ومرحلة وذلك من خلال عملي الصحافي وعبر منابر إعلامية عربية وأجنبية كان لي شرف تحريرها وإصدارها في الوطن والخارج.

وها نحن اليوم ننحني إجلالا لعبقرية فريدة استلهمت النضال والبطولة وروح المقاومة من الرئيس ياسر عرفات والشيخ الشهيد أحمد ياسين، إنه أحمد سعيد الجعبري الذي يحتل منزلة رفيعة في قائمة الشهداء الأبطال الرواد.

إن كل قطرة دم تسقط في ميدان الشرف موضع إجلالنا واحترامنا، وإن كل شهيد من شهدائنا هو منارة وعلم وراية خفاقة فوق ربوع بلادنا. ولكن التنافس في ساحة النضال والمجد والتسابق إلى ميدان البطولة أحد معالم ثورتنا في تاريخنا المعاصر وأرضنا المقدسة أرض الأنبياء والبطولات التي أنجبت أحمد سعيد الجعبري.

نفحات بطولية من وحي التاريخ

والواقع أن الشهيد أحمد الجعبري كان قائدا فذا، لقد كان نسيجا وحده فهو يتحلى بمصداقية رائعة حتى مع العدو الغادر، فالصحافة العالمية بل وبعض الصحف الإسرائيلية تقول إن يد الغدر الآثمة التي اغتالت أحمد الجعبري كانت يدا جبانة أخذته غدرا.

لقد كانوا يتفاوضون معه بطريقة أو بأخرى على التهدئة، قبل ساعة واحدة من استهدافه ومن ثم، اغتالوه،

وقدموا بذلك دليلا جديدا على أساليبهم الحاقدة الرخيصة التي لا تحفظ عهدا، ولا تؤمن بفضيلة، ولا تقيم وزنا لأي أخلاق أو إنسانية.

لقد استقصيت أنباء العملية الغادرة في شتى المجالات والمنابر الإعلامية العالمية، وكلها تدين هذا الاغتيال الذي سيفتح على إسرائيل أبواب جهنم.

لقد كانت شخصية أحمد الجعبري مزيجا نادرا من شهامة الفارس وصدقه، وبطولته واستقامته وفي نفس الوقت فقد كان ندا وخصما شريفا ومقاتلا صادقا يتحلى بصفات المحارب المسلم النزيه الذي لا يلجأ إلى أساليب الغدر والخيانة.

إنه يؤكد شهامة القائد المحارب الذي ينأى بنفسه عن أساليب الغدر والخيانة والبطش والتعذيب والانتقام ودليلنا على ذلك أسلوبه في التعامل مع أسيره جلعاد شاليط.

لقد وصفه أحد العاملين في مجالات الأحزاب السياسية بأنه كان رجلا حقيقيا، وعندما قيل له: ولكنه قاتل. أجاب: إن رابين وشارون ودايان وبن غوريون وكل قادة إسرائيل ينطوون على هذه الصفة،إنه محارب صاحب قضية وموقف.

* * *

إن دماء أحمد الجعبري لن تذهب هدرا، وسيأتي يوم الحساب لتدفع الأيادي الآثمة ثمن ما اقترفته من خسة وحقارة ولؤم.

أحمد الجعبري..

قائد محارب فذ غير تقليدي تلتقي في شخصيته نفحات من بطولات القادة المحاربين الأبطال من صفوة التاريخ الإسلامي، كأنه بحق يستقي مواقفه من بطولات صلاح الدين وعمر المختار وخالد بن الوليد وفي حياته لمحات من حياتهم، فقد كان دارسا للتاريخ وعارفا بحقيقة الرجال ومواقفهم. وليس كثيرا أن يكون أحمد سعيد الجبري قدوة ومنارة ومثالا لكل أبنائنا الصاعدين.

وكل صحافة العالم تقول: لماذا هذا الغباء في قتل القائد أحمد الجعبري وماذا استفادت إسرائيل من قتله؟ واعتقدت إسرائيل أن بقتله سوف تقضي على المقاومة. ولكن بالعكس، بموته ابتدأت شعلة المقاومة من جديد.

(2012/11/23)

المحامي الدكتور إبراهيم شعبان

وجود قانونَين في جناحي الوطن: مأساة وطنية وأخلاقية.

المحامي كالطبيب كلاهما يمارس مهنة: الخطأ فيها قد يدمر حياة الإنسان.

السياسي يسعى دائماً للسيطرة على القانوني وإخضاعه بشتى الوسائل،

في حين أنه لا يوجد من هو فوق القانون.

علم الكثيرين علم القانون وغرس فيهم حب سيادة القانون وحقوق الإنسان

على مدى ثلاثة عقود في جامعتي النجاح والقدس.

حاولت إسرائيل أن تجعل القدس عاصمة لها، فرفض العالم ذلك بالإجماع

ما عدا الكونغرس الأمريكي القابع على تلة الكابيتول.

أسس مع آخرين من قيادات العمل الوطني المجلس الفلسطيني للإسكان في بداية

تسعينيات القرن الماضي وترأسه مرتين فالوطن هو البيت ومن لا بيت له لا وطن له.

المحامي الدكتور إبراهيم محمود شعبان مسكون بمدينة القدس، وهي بالنسبة له قضية حياة أو موت، مسكون بالقدس عاشق لها، مشغول عليها، يراقب كل ما يحدث لها بقلق راجف، وفكر ممزق، وإرادة عاجزة. إبراهيم شعبان يؤمن بقوة أنه إذا كان العالم العربي كله يقدس القدس فإن الوطنية الصادقة تعمل ولا تتقول وطحن وليس جعجعة، وهو على حد تعبير الشاعر العربي القديم يردد في أسى:

"وفي الهيجاء ما جربتُ نفسي ولكن في الهزيمة كالغزالِ"

إن العالم العربي والإسلامي ويا للأسف يكتفي بالتفرج، ويكتفي بالبيانات، والشجب والاستنكار، والاجتماعات، والهتافات وكلام الخطابة والإنشاء، ولكنه لا يعمل، في حين تتمزق القدس وتتعثر ويسقط جزء هنا أو هناك كل يوم أمام عيون أكثر من مئتي مليون عربي ومسلم دون أن يقيموا صندوقا لها أو نشاطا أو أمرا مماثلا.

إبراهيم شعبان يحارب في الخطوط الأولى، مدافعا عن كل ذرة من تراب القدس، المدينة التي نشأ وترعرع في حماها. وشهدت شوارعها وحاراتها وأبنيتها ومنتدياتها فترة صباه وشبابه وحياته كلها، إنه يضع قلمه وفكره وخبرته وتجاربه ودراساته في القانون في خدمة المدينة الباسلة، وهو يواصل قرع الجرس ودق

جدار الخزان بكل ما لديه من خبرة، وفقه قانوني، وإصرار ومثابرة ليلفت الأنظار إلى قضية العرب الأولى، القدس الشريف ولكن يبدو أنه حوار من طرف واحد، مع أنظمة عربية ومسلمة مستسلمة تسمع ولا تستجب، وتقرأ ولا تفهم، وتشاهد ولا تتحرك، كأن حالها معنا كحال الشاعر عندما قال:

"لقد أسمعتَ لو ناديتَ حيّا ولكن لا حياة لمن تنادي"

أنا والقدس من المهد إلى اللحد

يروج الكثيرون إلى أن القانون أحد أدوات السياسة، مثله في ذلك مثل الاقتصاد والقوة العسكرية، والاجتماع والأخلاق، ولكنه حقيقة يختلف عن الجميع، في أنه يشكل سندا للمشروعية وأساسا لسياسة القانون، ومرجعا للدولة القانونية ولا غنى عنه لأي سلطة تمثيلية أو تشريعية أو قضائية ليكون عملها قانونيا ومشروعا، سواء أكان هذا القانون داخليا أو خارجيا فالأمر سيان.

يقول إبراهيم: " كمواطن مقدسي فإني أواكب كل التغيرات التي تجري على المدينة، وأشعر بالألم يعتصر قلبي وأنا أقف عاجزٌ لا أستطيع أن أغير إلا قليلا من هذا الظلم الشديد، الذي ينصب على سكان القدس وأحيائها وتاريخها. فعلى الصعيد الإنساني عاشت الأسر المقدسية محنة التقسيم والتشتيت والتهجير، وحرمت إسرائيل بأمر عسكري العواطف الإنسانية، وعلى رأسها الحب. فلو قُيض لشاب فلسطيني مقدسي، أو شاب من عرب الداخل أن يقع في هوى فتاة فلسطينية من الضفة الغربية أو العكس، أومن العراق أو سوريا فليس لهواه مستقبل في القدس. ويجب عليه أن يحمل عصاه ويرحل طلبا لود أو غرام وأسرة وأطفال.

وعلى صعيد البنيان والعمران تم تشويه صورة الفلسطيني العربي المقدسي، بأنه محب لمخالفات البناء، وأنه يعشق البناء المخالف، والذي هو بدون ترخيص، مع أن السبل قد سدتها أمامه السلطات الإسرائيلية والبلدية، حيث سعت لترحيله وطرده خارج حدود مدينته الفاضلة ومعشوقته الأبدية التي عودته على عبق التاريخ وعمقه ".

دموع زهرة المدائن

إن الهجمة الإسرائيلية على مدينة القدس زهرة المدائن أصعب من أن يتصدى لها الفلسطينيون المقدسيون وحدهم. فهم يحتاجون لكثير من المساندة والمعاضدة والدعم في المحافل الدولية. ووسائل التصدي لأسرلة المدينة عديدة، وهي ليست متأخرة وإن جاءت بعد أربعة عقود ونيف وبالقطع فهي تراكمات برزت على مر الزمن.

يضيف إبراهيم: إنه كثيرا ما قدم التوصيات إلى الدول العربية لتقديم شكوى جزائية لإنصاف المقدسيين أو طلب رأي إفتائي من محكمة العدل الدولية في حقوقهم المدنية، كما قُدمت التوصيات لتأسيس صندوق مالي لشؤونهم، مهمته شراء العقارات المهددة بالتسرب، وتأسيس صندوق مالي مهمته تغطية الغرامات العالية المفروضة على السكان المقدسيين بشكل كامل، وتعويض من يُهدم منزله المبني بغير ترخيص، وإنشاء صندوق وقفي عام لدعم القدس العربية سكانا ومشاريع بطريقة غير تقليدية، ووقف تشتيت الصناديق والمنافسة بينها، كما دعونا مرارا لإنشاء لجنة مركزية فلسطينية مقدسية كبديل لمجلس بلدية القدس، وكشخص قانوني اعتباري تختص بشؤون القدس، وسكانها وتنقسم إلى لجان فرعية

متعددة مكونة من مقدسيين مهنيين.. وماذا أقول؟ هناك عشرات التوصيات التي تقدمت بها أنا شخصيا وغيري ممن ارتبطوا بقضية القدس ولكنها ظلت حبرا على ورق.

محارباً في الخط الأمامي من أجل القدس

وما أعرفه عن المحامي إبراهيم شعبان، أنه شخص صدامي، وأنه قوي الشكيمة، لا يستسلم بسهولة وإذا آمن بأنه يحارب أو يدافع عن قضية حق، فإنه لا يتراجع مهما كان خصمه ومهما كانت الأسلحة التي يتعرض لها. لقد تصدى الأستاذ إبراهيم لقرار وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي آفي دختر أمام محكمة العدل العليا الإسرائيلية عام 2008 وانتزع منها إلغاء قراره القاضي بإغلاق مقر مجلس الإسكان الفلسطيني في شارع علي بن أبي طالب في القدس، وتصدى للاتهامات الباطلة الظالمة للمجلس ودافع وعن المجلس وأظهر للجميع مصداقيته وشفافيته وأخذ يردد بصوت ملؤه الشجن والانفعال:

"أُعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار فيَّ تجولُ"

وتأتي هذه الباقة في ظرف مناسب، لأني أقدمها لجندي من الجنود المدافعين عن حمى القدس العربية، فقد أصدر القضاء الفلسطيني ممثلا بمحكمة العدل العليا الفلسطينية حكما عادلا لصالح المجلس الفلسطيني للإسكان، حيث ألغى قرار وزير الداخلية السابق الخاص بحل المجلس الفلسطيني للإسكان. {فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}.

ولا زلت أذكر لمحة من لمحات تواضعه وعفته، فقد استقبلناه مع الدكتور إبراهيم الصوص وبعض المسؤولين من منظمة التحرير في باريس باعتباره ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيسا لمجلس الإسكان الفلسطيني. يومها رفض أن ينتقل بموكب رسمي وصمم على أن يستخدم الميترو كوسيلة للمواصلات في تنقلاته لخدمة قضية الإسكان مع وزارة ومؤسسة الإسكان الفرنسيتين .

بانوراما المحامي القانوني إبراهيم شعبان

ولد عام 1946 في قرية سلوان الملاصقة للقدس من الناحية الجنوبية، ودرس في مدارس القدس المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية، إلى أن نال الشهادة الثانوية العامة فالتحق بكلية الحقوق في جامعة دمشق عام 1963 وتخرج منها عام 1967، وحصل على الماجستير في الحقوق من جامعة القاهرة عام 1977، كما حصل على دبلومي القانون العام والقانون الجنائي، ثم أقام سنة في مدينة براد فورد في بريطانيا عام 1986 تمهيدا لنيل درجة الدكتوراه. وقد عمل محاضرا للقانون في قسم العلوم السياسية في كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية في جامعة النجاح الوطنية من عام 1979 حتى عام 1997 وبعدها عمل في كلية الحقوق في جامعة القدس حتى اليوم ليغرس في الطلبة بذور القانون المتمثلة في احترامه وأنه الحكم والفيصل ولو بدا خصما لهم. وقد أسس مع نفر من زملائه الوطنيين المجلس الفلسطيني للإسكان عام 1991 وترأس مجلس إدارته مرتين، فكان أول رئيس لهذا المجلس وهو الآن الرئيس الحالي له، فأنظمة المجلس لا تسمح برئاسة المجلس لأكثر من دورتين متتاليتين. وهو محام مسجل في نقابة المحامين الفلسطينيين، ومتقاعد من نقابة المحامين الأردنيين النظاميين. ومن أهم مؤلفاته:

* الانتفاضة الفلسطينية في عامها الأول (دراسة في ضوء أحكام القانون الدولي العام 1989).

* مجزرة الأقصى ولجنة زامير سنة 1991.

* القانون الدولي لحقوق الإنسان (الحقوق المدنية والسياسية 2008).

*القدس في قرارات الأمم المتحدة، 2011.

* كما أصدر كثيرا من الأبحاث عن المركز القانوني لمدينة القدس، إثر قيام الدولة الفلسطينية، والقانون الواجب التطبيق في الأراضي المحتلة، والقانون والإسكان في فلسطين، الحرية الدينية في الأراضي المحتلة، عناصر الحل النهائي للنزاع الإسرائيلي- الفلسطيني. كما كتب مئات المقالات عن الشأن القانوني الفلسطيني والسياسي في الصحف المحلية والمجلات.

أعلام .. رفاق وأساتذة وذكريات

عندما يعود الأستاذ إبراهيم إلى ذكرياته في سلوان منذ العام 1946يستذكر المدرسة الابتدائية الأولى التي تعلم فيها وهي المدرسة (البكرية) وكانت في القدس القديمة، كما يستذكر المدرسة (العمرية) في القدس القديمة وكيف كان يخطو بخطواته الطرية من وادي حلوة في سلوان، ماراً بباب المغاربة وحارتها التي غدت أثرا بعد عين بعد هدم الاحتلال الإسرائيلي مبانيها، محتميا بلواوين الحرم القدسي الشريف من المطر الغزير. ولكي يتم المرحلة الإعدادية أجبر هو وغيره من طلبة المدرسة العمرية على الالتحاق بمدرسة عبد الله بن الحسين في الشيخ جراح التي شيدت حديثا، ومن ثمّ المدرسة الرشيدية. وكان قد شهد أول دفعة من طلبة الشهادة الإعدادية العامة وامتحاناتها التي تقررت عام 1959.

ومن أساتذته في تلك الفترة يقول المحامي شعبان (محمد القيمري) وكان مديرا صارما حازما، وكانت السيجارة لا تفارق فمه، كان ذلك في المدرسة العمرية. أما الأستاذ يوسف جلاجل فكان مديرا للمدرسة الرشيدية، وهو من الشخصيات التربوية التي تركت بصماتها على أجيال من أبناء القدس، وأستذكر من أساتذتي في تلك الفترة الأستاذ أحمد عودة والأستاذ راتب الرابي معلم الكيمياء.

أما الزملاء الذين درس معهم وربطته بهم علاقات وثيقة فمنهم اسحق البديري، المحامي والصحافي المقدسي المعروف، والمحامي مفيد أحمد سعيد، والمهندس علي بركات، والدكتور أنيس القاق، والمحامي وليم خوري، والمدرس موسى عاشور الزعزوع، ومن أصدقاء تلك الفترة الذين توثقت علاقاته بهم ويعد رفيق عُمره الشاعر الصحافي إبراهيم قراعين.

ومن أساتذته في الرشيدية كان الأستاذ منذر صلاح الذي أصبح فيما بعد رئيسا لجامعة النجاح ومن ثم رئيسا لجامعة القدس المفتوحة في الأردن، ووزيرا للتعليم العالي في فلسطين. وكان منذر صلاح قد تخرج من جامعة القاهرة ومن ثم التحق بسلك التعليم في القدس، كما يذكر الأستاذ محمد الشيخ وهو مدرس عربي فاضل امتاز بقدرات وموهبة ويعد موسوعة في اللغة العربية.

ومن الأساتذة الذين لا ينساهم يوسف إبراهيم النجار الذي درّسني الفلسفة في المدرسة الإبراهيمية وهو صحافي وكاتب ومأذون شرعي، وكان من أوائل من كتبوا وحرروا في جريدة القدس وامتاز بخطه الجميل، كما يذكر الأستاذ طاهر النمري مدرس الجغرافيا القدير ورئيس مجلس أمناء جمعية المقدسي.

أبي وأمي .. أياد بيضاء لا أنساها

أما الشخصية الحقيقية التي أثرت في حياته بصورة كبيرة، فكان والد بثقافته الواسعة وخبرته في الحياة وحبه الشديد لأولاده، كان في بادئ أمره يعمل في شرطة فلسطين التابعة للانتداب البريطاني، ومن ثمّ التحق بالعمل في وكالة الغوث، ويذكر أنه كان قد حصل على التوجيهي وحاول إكمال دراسته في الجامعة العبرية، ولكنه لم يكمل، وأنه الابن الثاني من تسعة أبناء خمسة من الأولاد وأربع بنات، أما والده فكان وحيد أبويه، ولذلك كان ارتباطه شديدا بأولاده، وحرص على تعليمهم جميعا، ومنهم أخوه الدكتور محمود شعبان جراح الأعصاب المعروف الذي درس في ألمانيا وكان قد تخرج من الرشيدية وعمل في المقاصد. إن هؤلاء الأعلام هم نقطة في بحر مدينة القدس العظيمة التي أنجبت كوادر وأفواج من الجامعيين والمفكرين والكُتّاب ورجالات الدولة، أحاول أن استذكرها أمامكِ لأني أجد سعادة غير عادية وأنا أعود إلى أيام ذلك الزمن الجميل أستعرض الأسماء والشخصيات والأحداث.

"أثّر والدي فيَّ بصورة كبيرة فعلمني فضيلة الصمت، وأن لا أتصدى للحديث إلا في الوقت المناسب، وأن يكون نطقي وكلامي بعد تفكير فأكثر ما يسيء إلى الإنسان أن يكون قوالا كثير الكلام، قليل الأفعال. وكان حبي الشديد له يجعلني أؤمن بهذا المبدأ وأسير عليه. ورغم أن والدتي (أم محمود) كانت لا تجيد القراءة والكتابة إلا أنها كانت صورة مبكرة من (أم سعد) كما رسمها كاتبنا الكبير غسان كنفاني".

في مواجهة جحافل الغزاة

"لقد ربت فيَّ والدتي السيدة جميلة (أم محمود) قوة الشخصية وعلمتني كيف أكون قويا، صبورا في مواجهة الشدائد، والحقيقة أنها كانت أنموذجا فريدا في مواجهة الاحتلا؛ فعندما دخل اليهود عام 1967 سلوان واقتحموا أرضنا في (وادي حلوه) كانت هي الوحيدة التي وقفت لجيش الاحتلال ومنعتهم من دخول البيت". وكان ذلك ضربا من الشجاعة الفائقة، لأن أجيال هذه الفترة لا يعرفون مدى الرعب والخوف الذي كانت تمثله جحافل الغزاة في تلك الفترة.. أريد أن أقول إنهم كانوا يسببون الرعب والهلع في النفوس بسبب ما عرف عنهم من القسوة والظلم وإطلاق النار عند أول كل بادرة".

"تصدت لهم والدتي ومنعتهم من دخول البيت مما جعلها على كل لسان لشجاعتها وقوة شخصيتها ولأن الجنود الذين تصدت لهم لم يملكوا إلا الانسحاب من أمامها، ورغم كل شيء كانت تحثني دائما على الدراسة، وتشجعني بكل السبل لكي أكون من الناجحين المتفوقين وكانت تضحي بكل شيء من أجلنا بل إنها باعت مصاغها لكي أكمل تعليمي الجامعي، لقد حصلت على التوجيهي المصري عام 1962 من المدرسة الإبراهيمية، وأذكر في تلك الفترة أن كثيرا من الشباب كانوا يتوجهون إلى الامتحان للحصول على التوجيهي المصري دون الأردني لان ذلك كان نوعا من التعاطف مع المد الناصري من جهة ولان مصداقية التوجيهي الأردني لم تكن ذات وزن في تلك الفترة".

نجاح برسم الأحزان

يقول إبراهيم: "وبعد أن أنهيت دراستي الثانوية توجهت إلى دمشق لدراسة الحقوق، والحقيقة أن والدي كان يرغب أن أدرس المحاسبة في كلية التجارة، ولكني آثرت أن أدرس الحقوق وكان عمري في تلك

الفترة 16 سنة فكنت من أصغر طلاب الجامعة لأني التحقت بالمدرسة بشهادة ميلاد أخي الذي كان قد توفي، وكان اسمه إبراهيم أيضا وكان سني خمس سنوات. ومن هنا أستطيع أن أقولإأنني كسبت عامين حيث أنهيت دراستي الثانوية في سن مبكر.

كنت أدخل من الباب الخلفي في جامعة دمشق العريقة، كما كنت أجلس في المدرجات في الصفوف الخلفية لأن الطلاب حولي كانوا أكبر مني سنا بل كان بعضهم من اللاجئين السياسيين في دمشق، وكان ذلك في ذروة أمجاد حزب البعث العربي الاشتراكي عام 1963.

وللحق أقول إن حزب البعث كان مناصرا للقضية الفلسطينية وكانوا متعاطفين معنا، كما هو دائما شأن الشعب السوري. ومن أعلام تلك الفترة: يوسف زعين، وإبراهيم ماخوس، ونور الدين الأتاسي، وصلاح شديد، وحافظ الأسد. وأذكر أن صلاح شديد كان الشخصية الأقوى في تلك الفترة. وأن بعضهم حذره من حافظ الأسد، ورغم أن كليهما علوي إلا أن حافظ الأسد قام بانقلاب على صلاح شديد وألقى بكل الرموز وكوادر السلطة في السجون وبعضهم مات في سجن المزة".

جامعة دمشق وطريق الأشواك

كانت جامعة دمشق في تلك الفترة من أعرق جامعات الوطن العربي، وكانت مناهجها مركزة وقوية وتقترب كثيرا من مناهج جامعة القاهرة، لم يكن دخول جامعة دمشق أو الالتحاق بها سهلا، ولم يكن التخرج منها سهلا، بل كانت المناهج لشدة جديتها وصعوبتها تؤدي إلى نسبة متدنية في النجاح وكانت نسبة النجاح في بعض المساقات صفرا إلى درجة أنه كان يطلق على جامعة دمشق لقب جامعة (لم ينجح احد)، وأذكر أنه في إحدى السنوات كان المقرر علينا في أحد المساقات (800 صفحة) وكان علينا أن نجيب على سؤال واحد من سؤالين. وقد تخرج من جامعة دمشق جيل رائع وخاصة من كلية الحقوق .

"كانت في الواقع كلية الحقوق كلية عريقة وكان خريجوها من الصفوة الممتازة. وأذكر من أساتذتها في تلك الفترة رزق الله الأنطاكي وكان أستاذا أنيقا في ملبسه وحديثه، كما أذكر الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الزرقا والأستاذ الدكتور فؤاد شباط. كما أذكر أنه جاءنا أستاذ فلسطيني أصبح مستشارا للأسد وهو من حيفا ويدعى محمد عزيز شكري وكان يدرسنا محافظ البنك المركزي نور الله نور الله، كما كان يدرسنا الاقتصاد فؤاد الدهمان، وكنا في تلك الفترة نكن إجلالا واحتراما وهيبة لأساتذتنا، وما لا أنساه أيضا أننا كنا عشرين طالبا من القدس ندرس الحقوق وقد سقطنا جميعا في الدور الأول، وفي الدور الثاني كنت الوحيد الذي نجح. وفي تلك الفترة جاءنا عبر الهاتف من يقول: أبوك على الخط من الشام، وجاءني صوت الوالد يقول: لقد طلعت النتائج ونجحت.

"لقد تم تخرجي عام 1967 أي بأربع سنوات وهو أمر فريد لأي خريج في جامعة دمشق ، ولكن ويا للأسف لم أجد من يقول لي مبروك على النجاح. كانت أحزان وهموم حرب حزيران قد طغت على كل شيء وأطفأت قناديل الفرحة في كل نفس وفي كل بيت".

"كنت في دمشق وكان أهلي في القدس، ولم أتعرض لأي أزمة مالية لأني كنت أقيم في بيت والدي في الشام ولأن أصدقاءه التجار قالوا لي: "الوالد في القدس ونحن هنا، وكل ما تطلبه ستجده. وعرضوا استضافتي مطعما ومأكلا وملبسا ولكنني آثرت والتصقت بيت والدي (العربي) في باب الجابية".

"كنت أعاني ألما شديدا وتمزقا نفسيا وينتابني الألم والقهر لما حدث لمدينة القدس، وكنت في حالة من الهلع الشديد على أهلي وبخاصة بعد هدم حارة المغاربة عن بكرة أبيها وهدم مدرسة بنات باب المغاربة وهما معلمان كنت أراهما صباح مساء في غدوي ورواحي. وجاءني من يقول إن اهلك قد نزحوا إلى عمان، ورغم تشككي في من حمل الخبر، إلا أنني ذهبت لأبحث عنهم وتأكدت أنهم لم يتركوا القدس وكنت أعرف وواثقا أن والدي لا يمكن أن يغادر مهما كانت الأسباب والمبررات. ورغم أن بيتنا قصف أثناء الحرب لأن موقعا أردنيا كان قريبا من البيت إلا أن كل ذلك لم يجعل والدي يفكر في النزوح، ومن المؤسف أن عدد النازحين قد بلغ أكثر من 350 ألف من الضفة والقدس، عاد بعضهم وبعضهم ظل في حكم المهاجر".

أول خطواتي في المحاماة

"سجلت في عمان كمحامٍ متدرب عند الأستاذ العربي المسيحي الكركي صليبا الصناع، وكان مكتبه في وسط مدينة عمان التي كانت مدينة صغيرة لا تتعدى الدوار الأول والجبال السبعة القديمة وبضعة محلات وشوارع صغيرة.

سجلت في عمان في نقابة المحامين وأرسل لي الوالد تصريحا سنة 1968 فعدت إلى القدس وأخذت لم شمل وأنا في القدس، ثم نقلت تدريبي من عمان إلى مكتب المحامي جريس خوري في شارع صلاح الدين. وكان أيامها ممثلا لنقابة المحامين في القدس والضفة. وغدا معلمي الثاني بعد أبي فأحسن تعليمي وتثقيفي قانونيا وحياتيا وحتى سياسيا.

وقد أنهيت التدريب في عام 1970، وقد سبقني بعض الأساتذة أذكر منهم وليد العسلي، ومحمد الأيوبي، وعيسى أبو الهوى، وعبد المحسن أبو ميزر الذي أصبح فيما بعد الناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية. ورغم الفرص المتاحة للخروج والعمل في عمان أو الخليج كمحام إلا أنني آثرت البقاء والإنزراع بجانب معشوقتي الأبدية".

وقد قرر المحامون آنذاك، الانخراط في إضراب المحامين لأنه لا يجوز أن نذهب إلى المحاكم العسكرية الإسرائيلية ونعطيها شرعية، لأنها محاكم احتلال، ولا تحكم بالقانون، كما رفضنا الانضمام إلى نقابة المحامين الإسرائيليين رغم الإغراءات الكبيرة، فقد عرضوا علينا الانضمام لنصبح أعضاء بصورة تلقائية دون امتحان، كما قررنا مقاطعة المحاكم الإسرائيلية والمحاكم في الضفة الغربية لارتباطها بالسلطات. وفضلنا أن نظل على علاقاتنا مع النقابة الأم في عمان والتي دعمتنا في كل القطاعات ومنها تخصيص موارد مالية لدعم إضراب المحامين.

الالتحاق بالدراسة الجامعية العليا

"في هذه الفترة ونتيجة لجوعي العلمي المتزايد، قررت أن أذهب إلى القاهرة لأسجل لدراسة الماجستير وكان ذلك عام 1973 أي في سنة حرب أكتوبر المجيدة المعروفة. وهذا من مفارقات القدر، فقد أنهيت دراسي في دمشق مع إطلالة حرب حزيران وذهبت لدراسة الماجستير مع بداية حرب 1973. وقد أخذت الماجستير من جامعة القاهرة التي كانت الدراسة فيها عبارة عن خمس مساقات، يمتحن فيها الطالب تحريريا، فإذا نجح يتقدم إلى الامتحان الشفوي في خمس مساقات، فإذا رسب في أي منها كان عليه أن

يعيد السنة كلها. وكانت قوانين الجامعة تفترض أن ينجح الطالب في كل هذه المساقات، وأن يحصل على سبعين في المائة من كل مساق. وأذكر أن عدد طلاب الماجستير في ذلك الوقت كان خمسمائة طالب لم ينجح منهم سوى 25 طالبا، وكنت واحدا منهم.

من النجاح إلى بير زيت

في تلك الفترة تحولت كلية بير زيت إلى جامعة، ودار نقاش شديد في أواسط القوى الوطنية حول الترخيص الإسرائيلي، ولكن أخيرا تم تحويل الكلية إلى جامعة كما تم تحويل كلية النجاح إلى جامعة، ولم يكن فيها كلية للحقوق، بل كان هناك كلية اقتصاد وإدارة، ومن مساقاتها مدخل إلى علم القانون والقانون التجاري، فتقدمت للعمل في جامعة النجاح ورغم أن تقديري مقبول من جامعة دمشق إلا أنني قُبلت على اعتبار شهادة الماجستير التي حصلت عليها من جامعة القاهرة وتم تعييني في جامعة النجاح عام 1979.

"وقد بذلت جهدا كبيرا في الإعداد والتحضير للمحاضرات وكثفت قراءاتي ونوعت فيها بحيث جعلت الدراسة ترقى إلى المستوى الجامعي المأمول، وعلى ضوء دراساتي وكتبي ومنشوراتي ومحاضراتي تم منحي درجة الدكتوراه من جامعة القدس عام 2010. وكنت أدعو وأحبذ الرأي والرأي الآخر والتعددية والديمقراطية والانتخاب والحقوق والحريات العامة وأدعو لها وأطالب الطلبة بتبنيها وغرست فيهم هذه المبادئ السامية في جميع مراحلي التدريسية".

وما أذكره أن الأستاذ إبراهيم شعبان كان يشارك في جميع النشاطات الوطنية على مستوى الوطن كله وخاصة الفعاليات والنشاطات التي تقوم في القدس، وكان تردده دائما على مكتبنا في القدس مع نخبة من الرموز الوطنية والشباب الوطني المتحمس ومنهم فيصل الحسيني، وإبراهيم الدقاق، وأنيس القاق، وسري نسيبة، وحنا السنيورة، ود. محمد الوحيدي، وطارق زكي.. وكان إبراهيم شعبان يساهم مساهمة حقيقية بالرأي والموقف والتفاعل مع هذه الشخصيات الوطنية التي كانت في الواقع الجبهة الأولى في النضال الوطني السلمي ضد الاحتلال.

بين السياسي والقانوني

السياسيون لا يحبون القانونيين، لأن السياسي يريد دائما أن يبسط نفوذه على القانوني. ويجنده لخدمة أهدافه وأجندته السياسية، في حين أن القانوني يجب أن يكون دائما شخصية قوية مستقلة، وليس مجرد شاعر للبلاط تستهويه الألفاظ والمناصب، ويشترونه بحلو الكلام وبالمجاملات. القانوني رجل حازم مفكر صاحب شخصية قوية، منحاز إلى الحق، غير مداهن ولا متزلف ينحاز إلى الرأي السليم والى الحق. وأقول بحزن انه منذ قدوم السلطة، فإن سيادة القانون في بلادنا تتراجع، ورغم عدد القضاة ورغم المظاهر ورغم الأبنية، ورغم التقدم والثراء على المستوى المادي إلا أن جوهر القانون وسلطته قد تراجع.

ومن المؤسف أن تكون في بلادنا حكومتان في جناحي الوطن.. الضفة الغربية وقطاع غزة، ولكل منهما قانون خاص في حين أنه يجب توحيد القانون، وقد بدأ ذلك الحلم حينما كان إبراهيم شعبان مقررا لأول لجنة لتوحيد القوانين بين قطاع غزة والضفة الغربية عام 1999، لأن ذلك يعني توحيد الأماني والرغبات والتوجهات والأهداف، فحيث يكون انقسام يكون تشتت وضعف، ولا يمكن أن يكون هناك دولة واحدة في ظل وجود قانونين.

ويضيف الأستاذ إبراهيم وقد ظهرت على ملامح وجهه مظاهر الجدية والحزن: إن السياسي لا يريد محاكم مستقلة تماما تراقب أداءه، وتحكم على تصرفاته وقراراته، ولا شك أن السياسي من حقه أن يعمل بكل جهد ممكن على سن القوانين المناسبة العادلة وأن يضمنها رغباته وتوجهاته، فإذا تم ذلك كان عليه أن يكون أول المنصاعين لها. إن سيادة القانون فوق الجميع وعلى الجميع أن يكون تحت ظل القانون سواء أكان رجل امن أو مخابرات أو وكيل وزارة أورئيسا يجب أن يخضع الجميع للقانون وبذلك تتم سيادة القانون.

قصتي مع مجلس الإسكان

بعد نهاية حرب الخليج الأولى عن 1991 تنادى مجموعة من المفكرين والمثقفين في الوطن لإقامة مؤسسة للإسكان وذلك عقب فشل اللجنة المشتركة في هذا المجال. فقام مع آخرين من قيادات العمل الوطني بتأسيس مجلس إسكان فلسطيني ليشمل الضفة والقطاع والقدس وكان ذلك قبل قدوم السلطة. وكان الهدف من تأسيسه إقامة شركة لا تهدف إلى الربح وإنما تمارس نشاطها في هذا المجال القومي على أساس أن البيت هو الوطن. وأن من لا بيت له لا وطن له. ومحاولة بناء لبنة في حل أزمة الإسكان الفلسطينية المقدسية والغزية والضفاوية.

وبالفعل تم أعداد الدراسات اللازمة، وأجريت كافة تأسيسي الاستعدادات القانونية وتم تسجيل المجلس كشركة غير هادفة للربح. ومن ثم تم وجود أول مجلس للإسكان حيث تم انتخاب إبراهيم شعبان كأول رئيس لهذا المجلس. واستطاع المجلس أن يحصل على (28 مليون إكيو) أي ما يعادل 32 مليون دولار من الإتحاد الأوروبي لبناء شقق سكنية في كل من القدس والضفة الغربية وقطاع غزة. وكان جوهر عمل المجلس أن يقدم للمنتفعين شققا أو قروضا سهلة بقيمة 55 ألف دولار في القدس بدون فوائد على أن يسدد هذا المبلغ على 14 سنة وأن يكون المتقدم معفيا من السداد خلال السنة الأولى بشرط جوهري وهو الحصول على رخصة بناء.

يقول إبراهيم في وصف مجلس الإسكان: "كان هذا العمل الطموح نوعا من المواطنة في أزهى صورها وكان يعني تثبيت المواطن وزرعه في أرض بلاده ليكون بعيدا عن التهجير والاقتلاع، ولكن المجلس واجه صعوبات شديدة من قبل الاحتلال الإسرائيلي، بل إن المجلس واجه صعوبات لاحقة من بني جلدتنا وطبعا ظلم ذوي القربى أشد مضاضة.

وها قد عاد المجلس مجددا وعاد إبراهيم لرئاسة هذا المجلس، وتم وضع المجلس يديه على كافة الأوراق والمستندات التي تجعلني وزملائي في المجلس أكثر إصرارا على تحقيق أهداف هذا المشروع الأهم في تاريخ فلسطين، والذي شهد بناء آلاف الشقق والمساكن في الضفة والقطاع والقدس العربية، وسأعمل مع زملائي بكل ما لدينا من طاقة ومن قوة على استرداد حقوق هذا المجلس من جميع المستفيدين لإعادة تدويرها وتجنيدها لخدمة المواطن الفلسطيني فإن الحق الذي نطالب به لا يضيع مهما طال الزمن. ولا يفوتني في هذا المجال أن اشكر وأثمن الزملاء الذين ساعدوا في إنجاح هذا المشروع وتنفيذه وهم من خيرة الرجال العاملين من أجل رفعة هذا الوطن ومنهم: م. عدنان الحسيني، د. محمد أشتية، د. محمد شديد، د. عبد الرحمن حمد، م. نشأت طهبوب، د. علي شعث، م. إبراهيم عمرو، م. عاهد بسيسو، د. عبد الرحمن

أبو النصر، أ. سليمان أبو سنينية، م. لورنس خير، أ. حسين الفقهاء، م. عبد الله عبد الله، أ. فريح أبو مدين، أ. حسن العوري.

كما يهمني أن أؤكد أن مجلس الإسكان الفلسطيني كان من المؤسسات الرائدة، التي ينتخب لها رئيس ومجلس إدارة كل سنتين مرة، ولا يجوز أن يبقى الرئيس إلا لمدة دورتين متتابعتين فقط، كما أؤكد أن أكثر من عشرين ألف مواطن فلسطيني في القدس لوحدها قد أفادوا من هذا المشروع الحيوي وبنوا بيوتهم وسكنوها وقد تم صرف أكثر من سبعين مليون دولار للمستفيدين منها أكثر من عشرين مليون دولار عن طريق التدوير".

أخي إبراهيم..

إن القدس التي تكرس لها قلمك وأفكارك، تمسح دموعها، وتشرق ابتساماتها كلما عبرت عن آلامها وجروحها، وأبدعت في تصوير أشجانها، وبذلك تكون قد مسحت دمعة حرّى من على وجنتيها، فتضيء أنوارها بالتفاؤل والأمل.

إني كلما قرأت أفكارك أحسست أن واحدا من أبناء القدس يضيء شمعة، بدلا من أن يلعن الظلام. حينما أقابل طالبا من طلابك اذكر فيك شعلة الحرية ووهجها.

إن كتاباتك وأحاديثك المسموعة والمرئية والمكتوبة المتواصلة للدفاع عن القدس، تؤكد لي ما كنت تقوله دائما إن قضيتنا في الواقع قضية سياسية وقانونية، ويجب أن لا نضحي بواحدة حتى نكسب الأخرى فهما متكاملتان، وأننا يجب أن نحارب على كل الجبهات لنسترد عروبة القدس، وأنت كمحامٍ ومثقف قانوني تساهم في هذا التوجه، وتجند كل ثقافاتك وتجاربك وقلمك وفكرك لتخليص مدينة النور والأديان والتاريخ مسرى محمد عليه السلام ومهد المسيح عيسى رسول الإنسانية.

القدس أولا والقدس أخيرا أنها البداية ولن تكون النهاية، وهي غايتنا وعشقنا الأبدي،مهجتنا وبؤبؤ العين فينا، أملنا ورجاؤنا وهاجسنا وحياتنا ومماتنا وبدونها ليس لنا كبرياء ولا كرامة ولا عاصمة ولا حتى وطن، وهي المدينة العربية للأبد المحتلة مؤقتا. وكم أشعر بالحب والإجلال والتقدير لكل من يناضل في هذا التوجه لتحرير ثرى المدينة المقدسة.

وأشهد أن القدس لا تتحرر بالكلمات، القدس عروس عربتكم، ولكن إضاءة جوانب التاريخ وحشد الطاقات، ودق جدران الصمت وقرع خزان الفراغ والموت هو واجب مقدس.

وربما تكون الكلمة لا تساوي الرصاصة في المعركة، ولكن متى كانت الكلمة صوت الحق والضمير والفداء فإنها تنبه الأذهان، وتوقظ النفوس، وتحشد الطاقات، وتضيء ألف شمعة في الطريق إلى زهرة المدائن. كما أني أثمن محاولاتك لاختراق حصار البناء والإقامة في القدس وأشد على يديك بكل إخلاص فما أجمل ما يقوله الحكماء بان لكل شعب وطن يسكن فيه ولكننا نحن- الفلسطينيين- لنا وطن يسكننا والقدس تسكن في جوارح وقلوب أكثر من مئتي مليون عربي، ولا بد أن تعود يوما شاء من شاء وأبى من أبى كما كان يقول الرئيس الراحل ياسر عرفات.

(2012/12/14)

خالد مشعل

مدرس الفيزياء الذي ولد ثلاث مرات ليكون قائداً وزعيماً

يعرف طريقه إلى الشهادة والنصر

قالت زوجته: ستة عشر عاماً ونحن ننام مستيقظين في انتظار الذي لا يأتي..

تحرسنا رعاية الله

اجتمعت فيه البرغماتية والحكمة والشجاعة والقدوة

فتقدم الصفوف حاملاً لواء الثورة

نتنياهو يغتاله بالسم.. والملك حسين ينقذه ويركّع إسرائيل لشروطه

خالد إبراهيم إسماعيل مشعل: نشأ وترعرع في حِمى القرآن الكريم.. آمن بوحدة الصف، وحتمية الانتصار وتحرير فلسطين.

هناك لحظات تاريخية تسجل انتصار شعبنا بحروف من نور ونار..

من تلك اللحظات التي لا تنسى، عودة ياسر عرفات ونفر من أصحابه إلى غزة عام 1994، بعد سنوات طويلة من النفي بلغت سبعة وعشرين عاما.

تلك لحظة توهج تاريخية حافلة بالنشوة والانتصار تُذكرني بدخول جمال عبد الناصر دمشق في شهر شباط/ فبراير عام 1958 عندما دخل بطل القومية العربية دمشق واندفعت نحوه الجماهير وحملت سيارته على الأعناق.

بالدموع والعناق والهتافات استقبلت الجماهير السورية بطل القومية العربية، في لحظة تاريخية مفعمة بالحب والجلال والثورة والنشوة والانتصار.

ومن هذه اللحظات التاريخية العظيمة عندما خرج الآلاف من الشعب الأردني لاستقبال جلالة الملك الحسين بعد أن عاد من رحلة الشفاء، فقد كان الملك يمر بظروف صحية بالغة الحرج وكانت قلوب جماهير الشعب الأردني مفعمة بالأسى والحزن والترقب تضرع إلى الله بصدق وحرارة ليعود فارسها وقائدها إلى موقع القيادة.

وبملء مشاعري وصادق أحاسيسي أتأمل الآن التاريخ فأعرف كما يعرف الجميع أي قائد شجاع حكيم كان الحسين الراحل الذي أثبت بُعد نظره وصدق تصوراته وبصيرته الرائعة في قراءة الأحداث وقيادة الأردن دائما إلى بر الأمان والسلامة ما جعل الجماهير الأردنية تكن له الحب الصادق وتنظر إلى عودته سالما من رحلة استشفائه الخطيرة بكل مشاعر الود والحب وكان ذلك قبيل تسلم جلالة الملك عبد الله الثاني للعرش الأردني.

ومن المواقف التاريخية الرائعة التي يشهد الشعب الفلسطيني بأنها كانت علامات فارقة في طريق نضاله عودة الرئيس محمود عباس (أبو مازن) من نيويورك بعد أن انتصر في معركة الدولة وسجل صفحات ناصعة في تاريخ الثورة الفلسطينية حيث تحدى الموت ولم يضعف أمام الضغوطات وقصف كل حواجز الأشواك والصخور واستطاع أن يملي أروع صفحة في تاريخ قضيتنا عندما قالت 138 دولة نعم لدولة فلسطين. إن وجود هذه اللحظة التاريخية في متناول مشاعرنا وأحاسيسنا الذاتية الحاضرة قد لا تكشف أبعاد وروعة هذا النصر المبين الذي سجله أبو مازن، ولكن التاريخ وحده سيذكر دائما أن مناضلا مهاجرا، لاجئا خرج من صفد ذات يوم ليتولى قيادة الشعب الفلسطيني ويملي على قوى البغي والطغيان ذلك الاعتراف الرائع الذي يجعل من الرئيس أبو مازن قائدا تاريخيا فذا في مواجهة تاريخية مع قوى البغي والعدوان وتصادف أن كان ذلك أيضا في العام 2012.

وتكرر هذا المشهد للمرة الخامسة عندما دخل القائد الفلسطيني الثائر خالد مشعل مدينة رفح. استقبلته الجماهير الفلسطينية التي هرعت بالآلاف لتعلن حبها وتأييدها ومبايعتها للقائد البطل الذي حارب وانتصر. هذه الجماهير الفلسطينية الغفيرة البسيطةالعفوية الصادقة تندفع لتأخذ ابنها البار الشجاع وتضمه إلى قلبها لتؤكد أن فلسطين هي العنوان، وهي الهدف، وهي الغاية.

صلى خالد مشعل ركعتين شكرا لله

ثم صلى صلاة الظهر

وانطلق موكبه وسط هتافات الحناجر الفلسطينية التي تعشق الثورة والتحدي والثبات والإصرار وتستهين بالموت، وتفتح ذراعيها بكل إخلاص وحب للقائد النبيل الشجاع الصادق.

إن هذه اللحظات التاريخية هي اصدق معيار على نزاهة ومصداقية وعدالة قضيتنا.

نحن أيها السادة شعب عظيم مناضل تنقصنا دائما القيادة التاريخية الواعية المخلصة النبيلة.

جمال عبد الناصر في دمشق عام 1958

وياسر عرفات في غزة عام 1994

وجلالة الملك حسين في عمان عام 1999

ومحمود عباس (أبو مازن) في رام الله عام 2012

وخالد مشعل في رفح عام 2012

ميلاد قائد ورائد

لا تولد القيادات التاريخية كل يوم، ولا تنجب الحركات النضالية والثورية الزعيم الرائد بين عشية وضحاها، ومهما كانت شراسة المعارك التي تخوضها الشعوب الباحثة لنفسها عن مكان تحت شمس

الحرية والكرامة، فإن ميلاد القائد التاريخي يكون عسيرا وصعبا وقاسيا، وتكون الولادة قيصرية، وسط التحديات والعواصف والمتغيرات وعلى إيقاع الرصاص والنار والدم عبر حقول المحن والحدث والموت، ومؤامرات أعداء الحياة وجنود البغي والعدوان.

ولدت قيادة فلسطينية شابة ألهبت حماسة ووطنية الجماهير الفلسطينية في كل مدينة وبلدة ومخيم ومعتقل.

وميلاد القائد الزعيم خالد مشعل استمر مخاضه أكثر من ثلاثين عاما، وجاء في عصر يوم عندما وطأت أقدامه أرض رفح، فخر ساجدا لله الذي أنعم عليه، وكتب له هذا النصر المبين ليعود إلى وطنه لأول مرة بعد أربعة وعشرين عاما من الحياة في المنفى.

زعيماً لكل الشعب الفلسطيني

شعب فلسطين شعب معطاء، وثورته أطول ثورة في التاريخ المعاصر، ونكباته وكوارثه تشغل معظم صفحات التاريخ في العالم العربي، ولذلك ما أكثر ما أنجبت الأمهات الفلسطينيات من قادة وأبطال وشهداء.

على مدار السنوات والأعوام، تزدحم الرزنامة الفلسطينية بالشهداء والمناضلين والثوار، ممن يقدمون حياتهم فداء لفلسطين وشعبها.

ولكن معطيات القائد التاريخي الذي يعبر ساحة الخلود ليقف فيها قائدا ومنظرا ورائدا يخاطب العالم كله مدافعا عن حق فلسطين وشعبها بلغة نقية ومنطق ثوري وإرادة حديدية ورؤية إنسانية تسمو على "الفصائلية" والحزبية والفئوية. هذا القائد لا يولد كل يوم.

وخالد مشعل قيادة شابة حكيمة اكتملت فيها عناصر القائد الذي يحبه ويزهو به كل أبناء فلسطين.

وبقدر ما يحقد عليه العدو، وبقدر ما يطارده ويتآمر على حياته بما تكون مساحة الحب والمصداقية والفداء له في قلوب مواطنيه وشعبه وأمته.

لم يعد خالد مشعل قائدا لحركة حماس فقط، انه الآن في الصف الأمامي قائدا للشعب الفلسطيني كله جنبا إلى جنب مع القيادة التاريخية المنتخبة والمتمثلة في الرئيس محمود عباس (أبو مازن).

بمنطق التاريخ، لا بالهوى

المحن تخلق الأبطال والقادة، هكذا علمنا التاريخ، ولن أذهب بعيدا لأخوض في أعماق السنين والأحداث، ولكني كشاهدة على عصر الثورة الفلسطينية المعاصرة أقول: إن ياسر عرفات الذي أنجبته حركة فتح دق آفاق العالمية كزعيم ورمز لكل شعب مضطهد في أمريكا اللاتينية وإفريقيا وآسيا عاش عقودا متوالية من المعارك والمحن منذ عام 1948 حتى لحق بالرفيق الأعلى في تشرين الثاني عام 2004. وأحنى العالم كله إجلالا لمواقفه ونضاله.

كان عرفات زعيما للشعب الفلسطيني كله، وقد آمن بهذه الحقيقة الآن، كل أبناء فلسطين وجميع كوادره المفكرة والمنظرة والفاعلة، حتى تلك التي ناصبته العداء وتمردت عليه وأثخنته بجراح الافتراء والتآمر والكذب والخيانة.

وها هو قائد شاب يخرج من صفوف حركة فلسطينية ثورية إسلامية، ليقود المسيرة بفكره وإخلاصه وثباته وبعد نظره وعلينا جميعا أن نكون له عونا، ويدا، وجنودا، وأنا هنا لا أنظِّر ولا أخطط ولا أحابي ولا أزكي شخصية أو فصيلا على حساب التاريخ والمنطق والعدالة. وإنما أقدم خفقات قلبي ونبض مشاعري وصدق إحساسي لكل أبناء وطني اعتزازا بقائد مخلص ووطني شجاع وسط ليل مدلهم بالمؤامرات والمرتزقة وأعداء الحياة والحرية والشعوب.

يسعدني كل السعادة أن أعلن قناعاتي، بأن فارسا وقائدا ومفكرا ولد في رحاب الثورة الفلسطينية، ليشترك، مع القيادة التاريخية في حمل الأمانة والرسالة. الحدث وقع، وأنا ضمن الملايين التي ترصده وتسجله وتزهو به.

تأسرني هذه الروح المقاتلة

تأسرني هذه الروح المقاتلة من الزعيم القائد الأستاذ خالد مشعل، عندما يحضر إلى غزة، بلد الصمود والكفاح، متحديا كل احتمالات الاغتيال التي تتربص به هو ورفاقه الأحرار من عدو لا يرحم، وخصم لا يكترث بأي مبادئ أو اتفاقيات.

وكان الجنرال موفاز قد فضح الهواجس الإسرائيلية التي كانت تظهر أسفها الشديد على أنها فوتت فرصة اغتيال مشعل وهو يطأ أرض رفح، عائدا إلى وطنه في لحظة تاريخية نادرة.

إن الشجاعة الأدبية الفائقة التي أبداها خالد مشعل كقائد، يقدم روحه على كفه لوطنه وأبنا شعبه، مرحبا بالاستشهاد في سبيل المبدأ معرضا حياته وحياة رفاقه لغارات الطائرات التي تذرع سماء غزة ليل نهار والتي ترصد كل حركة وكل نشاط، خاصة تلك التي بدون طيار فهي تذرع سماء غزة وشوارعها، كما تذرع الدبابات والمصفحات الشوارع، ولكن إيمان القائد وشجاعته كانت فوق كل حسابات القدر والاغتيال.

إن شعبنا دائما في حاجة ماسة إلى مزيد من الثقة والحب والتواصل مع القادة، فقد آلمني والله، على امتداد حياتي الصحافية والإعلامية طوال عقود أن لا أقرأ ولا أسمع ولا أتناقش إلا عبر التشكيك في القيادات، وسماع كل ألوان الافتراء عن الفردية والقهر والنرجسية والارتزاق والخيانة. وكنت دائما في كل محاضراتي ومقالاتي ومداخلاتي الإعلامية أسلط الضوء على كل ما هو بديع ورائع وبطولي فنحن أحوج ما نكون إلى القدوة والريادة.

وأسعد، وتغمرني مشاعر التفاؤل والحب والإيمان بالنصر، عندما أجد هذه النماذج النبيلة الشجاعة القادرة على اختراق سحب الحملات الإعلامية، ودخان التعتيم، وعواصف الفرقة والتنافس والمزاحمة.

أثبت القائد الشجاع خالد مشعل أن الموت، ثمن زهيد من أجل فلسطين والقدس والشعب، وأضاء شمعة في درب الحرية، والفداء والأنموذج والقدوة.

في قافلة الأبطال الثائرين

إن تاريخ الثورة الفلسطينية وصمودها وكفاحها مليء بالنماذج الرائعة التي يجسدها أبو الوليد خالد مشعل، والعدو، يعرف حق المعرفة أن هذه القيادات الأنموذج هي مكمن الخطورة، وهي القادرة على انتزاع الحق منه، ولذلك، فإنه لم يكن يتردد لحظة واحدة في تصفية هذه النماذج الرائعة، ومما يبعث في

نفسي الألم والدموع والإحساس بالقهر، أن استذكر هذه النماذج، وأن اهديها اليوم، شذى وردة من جبال عيبال وذكرى ونفحة رائعة من سيرة بطل قومي حمل الأمانة، وتقدم بأخلاقيات القادة والأبطال، وليهدى غزة وشعبها والأمة العربية لحظة انتصار تاريخية.

إنني أعلم حق العلم أن القادة الأبطال مستهدفون دائما، ولكنهم قادرون على أن يستنبتوا من أبناء فلسطين من هم على دربهم سائرون ومن وحي تاريخهم ومسيرتهم سيمضون مناضلين، أذكر من قافلة الأبطال هذه:

- الرئيس القائد ياسر عرفات.
- الشيخ المناضل أحمد ياسين.
- عبد العزيز الرنتيسي.
- صلاح خلف "أبو إياد".
- خليل الوزير "أبو جهاد".
- يحيى عياش "المهندس".
- أبو علي حسن سلامة.
- غسان كنفاني.
- ماجد أبو شرار.
- وائل زعيتر.
- عصام سرطاوي.
- أحمد الجعبري.
- هايل عبد الحميد.
- وعشرات المنارات والأبطال والقادة ممن حملوا البندقية بيمينهم، والشهادة بشمالهم، ومضوا على درب النضال شهداء في سبيل الله.

أعرف وتعرفون أن الاغتيال سلاح الضعفاء.. وكم من قادتنا وأبطالنا من تحدوا كاتم الصوت وغارات الطائرات التي بدون طيار بشكل سطّر أروع فصول النضال في قصة الثورة الفلسطينية.

إن تاريخنا المعاصر في مواجهة العدو هو تاريخ النكبات والكوارث، تاريخ المذابح فمن دير ياسين إلى السموع ومن السموع الى خانيونس ومن صبرا وشاتيلا إلى قانا ومن قانا إلى بيروت ومن بيروت إلى تل الزعتر ومن تل الزعتر إلى طرابلس ومن تونس إلى المقاطعة.

"يا ويحهم نصبوا منارا من دم يوحي إلى جيل الغدِ البغضاء"

ملامح قائدٍ وفكر مناضل

عندما يطل خالد مشعل على الجماهير خطيبا أو محاضرا، تجده هادئا واثقا متمكنا، مؤمنا كل الإيمان بحق وطنه وشعبه، وهو قادر بملامحه وسمات وجهه وإشاراته وحركاته ولغته الواضحة ومفرداته البسيطة وأفكاره أن يجسد حق الشعب الفلسطيني في وطنه وأرضه وحقه في النضال من أجل هذا الهدف المقدس.

الاقتراب من فكر خالد مشعل السياسي يقدم صورة واقعية لإجماع الفلسطينيين والعرب، فمن أقواله "إن المقاومة لدينا وسيلة وليست غاية، فإذا وجد العالم طريقا ليس فيه مقاومة ودما يعيد إلينا فلسطين والقدس وحق العودة، فنحن أول من يرحب به".

ويقول في موضوع آخر: "إن المشروع الصهيوني ليس عدوا للشعب الفلسطيني وحده، بل عدو للأمة العربية والإسلامية". ويقول: "لا توطين، ولا وطن بديل، الأردن عزيز علينا".

بانوراما خالد مشعل

ولد خالد عبد الرحيم عبد القادر مشعل يوم 28 أيار "مايو" عام 1956 في بلدة سلواد قضاء رام الله، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها حتى عام 1967 عندما وقعت هزيمة حرب حزيران، فهاجر مع أسرته إلى الكويت، ومن ثم أكمل دراسته الإعدادية والثانوية في مدارس الكويت، وعندما حصل على الثانوية العامة التحق بجامعة الكويت، حيث حصل منها على بكالوريوس في الفيزياء.

والملاحظ أن مولد "مشعل" جاء في عام 1956، وهو العام الذي شنت فيه إسرائيل وبريطانيا وفرنسا العدوان الثلاثي على مصر، وحقق عبد الناصر نصرا سياسيا رائعا، أيقظ في الأمة العربية تيارات من النضال والمد الثوري لطرد الاستعمار وتحرير الوطن العربي.

وعندما التحق مشعل بالجامعة الكويتية كانت سنوات السبعينيات تشهد مدا قوميا جارفا للتصدي لهزيمة حزيران، ودحر إسرائيل من الأراضي التي احتلها.

من الجامعة كان المنطلق

وشهدت جامعة الكويت في تلك الفترة صراعات فكرية وأيديولوجية وسياسية نشطة، وكان الوجود الفلسطيني- ولعله لا يزال- له حضور مميز في جامعات الكويت ومحافلها وأعلامها، وقد ساهمت تلك الفترة في تكوين وصقل شخصية الطالب الجامعي المؤمن خالد مشعل فقد كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته وتنمية ملكاته، كما شهدت قمة عطائه ونضجه الفكري وعطائه في الحركة ما أهله إلى أن يقود التيار الإسلامي الفلسطيني في جامعة الكويت وشارك في تأسيس كتلة الحق الإسلامية التي نافست قوائم حركة "فتح" على قيادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الكويت.

وكما انطلقت حركة فتح من اتحاد الطلبة الفلسطينيين في جامعة القاهرة بقيادة ياسر عرفات وصلاح خلف، انطلقت حركة المد الإسلامي الثوري من جامعة الكويت بقيادة خالد مشعل لاتحاد الطلبة الفلسطينية في الكويت. إنهم جيل الأذكياء المثقفين أبناء النكبة، تحركهم دوافع الثورة والوطنية لإنقاذ وطنهم، يطلبون العلم فيؤجج في صدورهم الأفكار والمعاني، ويصوغ شخصياتهم وينضج وعيهم، ويفتح بصائرهم وبصيرتهم، على مأساة شعبهم، فيحملون الكتاب باليمين والرشاش باليسار.

ذلك ما حدث، في جامعة القاهرة يوما، وفي جامعة الكويت، وفي جامعة دمشق.

تخرج خالد مشعل عام 1978، وعمل مدرسا للفيزياء في الكويت، ثم تزوج بعدها بسنتين، وله من الأبناء سبعة، ثلاث فتيات وأربعة أولاد.

في ظلال القرآن الكريم

بلدة سلواد التي ولد فيها خالد مشعل، والتي غادرها وهو فتى في الحادية عشرة من عمره، للدين فيها أهمية واحترام ومن بين أبنائها ذهب الكثيرون لتلقي العلم في الأزهر، ومنهم الشاعر الأديب فتح الله السلوادي.

ولذلك كان طبيعيا أن ينشأ خالد وهو محب للقرآن كتاب الله العزيز، وهو في الواقع يحمل إجازة في القرآن الكريم بسند متصل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وبرواية حفص عن عاصم.

وقد بدأ مشعل بحفظ أجزاء من القرآن الكريم في مرحلة مبكرة من عمره، وفي المرحلة الثانوية، أتقن أحكام التجويد على يد الشيخ محمد عبد الرحمن من علماء الأزهر، وفي بداية مرحلته الجامعية حفظ سورة "البقرة" في أسبوعين، ومن ثم صورة آل عمران في عشرة أيام.

ولكن بسبب انشغاله بالجامعة لم يكن لديه الوقت الكافي للحفظ إلى أن سافر إلى سوريا، حيث تتلمذ هناك على أيادي شيوخ سوريا، فحفظ القرآن على يد الشيخ عبد الهادي الطباع، وأتم حفظ القرآن الكريم كله في عام 2007، وقد أجازه الشيخ بكري الطرابيشي، والشيخ عبد الهادي الطباع كما أجازه شيخ القراء الشيخ عبد الكريم.

هذه السطور من حياة خالد مشعل تكشف معدن شخصيته، معشق القرآن الكريم، والإصرار على حفظه رغم أن دراسته الجامعية في مادة الفيزياء، كل ذلك يدل على معطيات حقيقية لإنسان مستقيم عفيف نبيل صادق مخلص تطمئن إليه وتثق به، وإذا كانت السياسة قوامها من الدهاء والخبث، ومن معطياتها المكيافيلية والمراوغة فإن ذلك غير وارد لدى شخصية تربت على مبادئ القرآن.

إن كثيرين ممن التقيت بهم وحاورتهم كانوا يقولون هذه العبارة: إن أزمتنا الحقيقية هي أزمة أخلاق.

مساهماً في تأسيس حماس

انضم خالد مشعل إلى تنظيم الإخوان المسلمين- الجناح الفلسطيني عام 1971. وكان له دور كبير في انتماء العديدين لتنظيم الإخوان المسلمين، وفي هذه المرحلة احتل خالد مشعل موقعا قياديا هاما في حركة الإخوان المسلمين، وفي عام 1987 انضم إلى المكتب السياسي لحركة حماس، ومن ثم في عام 1996 أصبح رئيسا للمكتب السياسي للحركة.

محاولة اغتيال فاشلة في وسط عمان

في 25 أيلول عام 1997 قام خمسة من عناصر الموساد بالدخول إلى الأردن بجوازات سفر كندية مزورة، وأثناء سيره في شارع وصفي التل في قلب العاصمة الأردنية عمان هاجمه خمسة من عملاء الموساد محاولين رشه بمادة سامة قاتلة بموت بطيء، وافرغوا هذه المادة في أذنه اليسرى، وعلى الفور تدخلت قوات الأمن الأردنية، وألقت القبض على اثنين من العملاء في حين فر الثلاثة الآخرون ولجأوا إلى السفارة الإسرائيلية في عمان. وعندما علم جلالة الملك حسين بهذه المحاولة الجريئة غضب غضبا شديدا وطالب نتنياهو بإرسال المصل المضاد للمادة السامة، وهدد بإعدام العملاء الخمسة وإلغاء معاهدة وادي عربه، وهي معادلة السلام الأردنية - الإسرائيلية.

ونتيجة لضغط الرئيس كلينتون أرسل بنيامين نتنياهو الترياق المطلوب، وأفرج عن الشيخ أحمد ياسين وتسعة معتقلين أردنيين وواحد وستين سجينا فلسطينيا.

ولد ثلاث مرات

امتاز خالد مشعل بشخصية جذابة وقدرة فائقة على الإقناع، كما امتاز بحضور وقبول جماهيري، فهو على جانب كبير من "الكاريزماتية". وهو يمتاز بشدة الذكاء والحنكة السياسية ما أهله لقيادة المكتب السياسي لحركة حماس لمدة ستة عشر عاما في أخطر مراحلها التاريخية، وفي هذه الفترة تعززت مكانة حماس مع كثير من الدول العربية وتزايدت شعبيتها وخاصة عندما أعلنت رفضها لاتفاقيات أوسلو.

وفي عام 2004، أصبح خالد مشعل قائد حركة حماس في الداخل والخارج، وتولى بعدها بعامين إدارة أخطر ملفات الحركة الوطنية على الإطلاق:

كانت حركة حماس قد فازت بالانتخابات الفلسطينية التشريعية عام 2006، قبل أن تقع أحداث الانقسام الداخلي بين الضفة الغربية وقطاع غزة، ويفرض الحصار على الحركة ليشن الاحتلال الإسرائيلي عدواناً شرساً على القطاع أواخر عام 2008.

وسط ذلك كله، كان مشعل يتباحث مع مختلف الأطراف الدولية، ومستمراً في عقد جلسات الحوار مع حركة فتح، ضمن جولات استمرت لسنوات توجت مرات عدة بتوقيع اتفاقيات مصالحة مختلفة لم تجد طريقها للتطبيق حتى الآن لأسباب مختلفة.

ومنذ شهور أعلن مشعل عن "عدم ترشحه لرئاسة المكتب السياسي لحركة حماس" للدورة القادمة، بعد توليه منصبه لأربع دورات متتالية.

كان الرجل يريد أن يفسح مكانه قيادة جديدة، مدركاً بأن "التغيير" هو أساس الحياة السياسية. وشاء القدر أن تكون آخر أيام توليه للمنصب هي فترة "عدوان جديد" على قطاع غزة أذهلت خلاله المقاومة الفلسطينية جميع الأطراف بما لديها من قدرات عالية سواء من حيث الإمكانات العسكرية، أو التكتيكات التي استخدمتها.

وفيما انتهى العدوان، وعام 2012 يطوي آخر أيامه مفسحاً المجال لعام جديد، كان خالد مشعل يخطو خطواته الأولى على أرض فلسطين من جديد: دخل من معبر رفح بعد صلاة الظهر، وخر ساجداً قبل أن يتنقل في أرجاء هذا الجزء من بلده والذي يراه للمرة الأولى في حياته، ووسط أجواء احتفالية سادت المشهد. قال في كلمته أمام الجماهير التي جاءت لاستقباله قرب معبر رفح: إنها ولادتي الثالثة، فقد ولدت عام 1956، وأعتبر ولادتي الثانية يوم نجوت من محاولة الاغتيال عام 1997، والآن أعتبر هذا اليوم هو "تاريخ ميلادي للمرة الثالثة." !"

لمحات إنسانية من حياته الأسرية

يقول علماء النفس والأدباء والنقاد المهتمين بدراسة وتحليل الشخصيات الفارقة ذات الحضور الإنساني والتاريخي إن حياتهم العائلية هي أكثر من يلقي الضوء على شخصياتهم ومسلكياتهم، بمعنى أن موقف الشخصية أو العلم من أسرته وزوجته وأولاده وعلاقاته البيتية والحياتية بهم تكشف عن جوهره

الإنساني وعن طريقة تفكيره وتعاطيه مع الحقائق والأفكار التي تشكل مسيرته وفلسفته، وعلى هذا الأساس فنحن نعرض هذه اللمحات السريعة من حياة أسرة خالد مشعل.

تأسرني هذه الروح المقاتلة للأخت "أم الوليد" زوجة القائد خالد مشعل، فهي تعيش حياتها في ظروف قاسية، محفوفة بالمخاطر والخوف والمطاردة والمؤامرات وخطط الاغتيال الجهنمية وهواجس القصف والمداهمة، إنها في حركة مستمرة وتنقل دائم لا تعرف الاستقرار، ولا تنعم هي وأولادها وبناتها برفاهية الأمن والسلامة والتعاطي مع الحياة الآمنة التي قد تنعم بها أية أسرة.

حياتها، نارودم وأشواك وقلق وترقب، لأن القائد مستهدف وآلة الاغتيالات الجهنمية لا تيأس، ومع ذلك، فالسيدة أمل صالح البوريني صابرة صامدة متماسكة تستمد العزم والقوة والثبات من زوجها القائد الذي اختار طريقه، وعرف ما ينتظره فلم يتراجع ولم يتبدل ولم ينقلب.

أسرة خالد مشعل أنموذج رائع لأسرة الرائد الذي يحمل الراية متقدما الصفوف عاقدا العزم على إحدى الحسنيين سائرا على حد السيف فإما الشهادة وإما النصر.

وهنا، أتوقف لأشد على يد هذه السيدة المناضلة مُكبرة هذه الأسرة الفلسطينية الفريدة مستذكرة ما قاله أمير الشعراء:

"ويل لمن يجفو ترابا ضمه حب المواطن عد في الإيمان"

ذاكرة الكلمات

تقول زوجته أمل صالح البوريني (50) سنة: منذ البداية علمت أن طريقي مع زوجي محفوفة بالمخاطر والصعوبات، فأنا أعلم أن العدو يتربص به ويطارده ويحاول أن ينال منه بكل وسيلة ممكنة، وإن إدراكي للخطر الشديد الذي يحيط بالقائد تجعلني في حالة قلق شديدة وهذا ينسحب على أولادي السبعة، فالأسرة كلها تشعر أنها تحت مجهر أو عدسة البندقية المصوبة إلى كل منا.

ولكن إيماننا العميق بالله وبقضيتنا وحرصنا الشديد على أن نؤدي واجب الجهاد من أجل تحرير فلسطين والقدس، كل ذلك يجعل التضحية في سبيل هذه الأهداف النبيلة أمرا محببا إلى النفس قريبا إليها، ما يضفي على ملامح الجميع آيات من الرضا والطمأنينة والصبر والإيمان بقضاء الله وقدره.

يقول المتنبي:

"وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام"

وتضيف السيدة أم الوليد: إن الإيمان بالهدف العظيم سهل لنا أمورا كثيرة تبدو صعبة وشاقة، ولكن حياتنا وأرواحنا رخيصة فداء لديننا وأرضنا المباركة ولشعبنا الذي قدم قوافل الشهداء وتحمل سنوات العذاب والقهر، هذا الإيمان العميق الذي نستمده من إيماننا بالله ومن تشجيع ومباركة أبو الوليد جعلنا في حالة من الطمأنينة راضين بكل ما يجري لنا وصابرين على هذا الطريق.

أولادنا أكبادنا

وتقول السيدة أم الوليد: إن جميع أبنائي وبناتي قريبون من والدهم إن لم يكن شكلا فسلوكا وخلقا، ولكن أكثرهم شبها بوالده يحيى الصغير الذي كنا نناديه بيحيى عياش خالد مشعل البطل.

وتستذكر المناضلة أم الوليد بان شخصية زوجها لم تتغير منذ أن أصبح في مركز القيادة، فقد ظل إنسانا متواضعا نبيلا، لطيف المعشر جميل الأسلوب حاضر البديهة ميالا إلى المرح كلما وجد إلى ذلك سبيلا.

أما الشهرة التي جاءت على غير إرادة منا جميعا فهي لم تغير جوهر (أبو الوليد)، فقد ظل متعاونا متضامنا محافظا على روحه الطيبة بعيدا عن التذمر والسخط والقسوة ولكن في نفس الوقت ظل حازما في ملاحقة كافة الأمور سواء ما كان منها سياسيا أو أمنيا أو عائليا.

إن الشهرة تقيد الحرية وتحد من التحرك في الحياة اليومية بسبب الوضع الأمني الحساس لزوجي ونحن ندفع ضريبة هذه الشهرة أو لنقل ضريبة هذه الرسالة كأسرة، فنحن محرومون من متعة الخروج معه كعائلة في أوقات الإجازة ولا نستطيع كعائلة أن نخرج في نزهة بين أحضان الطبيعة، ولكننا مع ذلك راضون بأمر الله ملتمسين أن يكون لكل تضحية تقديرها عند من يقدرون كما أننا نحتسبها في سبيل الله والوطن.

ذكريات الاغتيال

حينما وصلني خبر محاولة الاغتيال شعرت بقلق شديد وألم يعصف بكل كياني، ورغم علمي أن حياة زوجي مهددة على الدوام إلا أننا عندما علمنا بنبأ محاولة اغتياله شعرنا بالحزن الشديد والخوف، فقد خشينا أن ترك الإصابة التي لحقت به إعاقة في جسمه، كما أن ابنتنا نور أصغر بناتنا كانت خائفة جدا أن يختطف والدها ويتعرض للتعذيب كما كانت تشاهد وتسمع وتقرأ.

ورغم هذا القلق فان الله أعانني وألهمني الثبات، فتصرفت بهدوء وكنت على يقين بان الله سيقف معنا فأنزل السكينة على قلبي وقلوب أبنائي وعائلة زوجي خاصة والده ووالدته.

لحظات اعتزاز وفخر

الموقف الذي أسعد فيه كثيرا عندما أرى أبو الوليد يتحدث بخطابه القوي للجماهير حيث نلمس فيه القوة والقدرة على التأثير في الناس ورفع روحهم المعنوية، والإصرار على طريق الجهاد والتمسك بحقوق شعبنا الفلسطيني، كما أسعد عندما أرى طريقته الحضارية في التعامل مع الناس بتواضع وتبسط. أما عن القيود المفروضة علينا فهي القيود الأمنية ولكن لأنها أمر اضطراري فلا بد منها من أجل أمن وسلامة زوجي.

وإني اصبر عليها وأتكيف معها. وأرى بصدق أن ما أعانيه إنما هو مشاركة وجدانية لجميع أسر المناضلين فأنا أتقاسم مع زوجات المناضلين المطاردين أو المعتقلين ضريبة هذا الطريق الذي اخترناه عن طواعية واختيار وأجرنا على الله تعالى. وأبنائي جميعا ربيناهم على التواضع. فليس منهم من يفاخر على زملائه لان والدهم في هذا المركز الحساس، بل إنهم يتصرفون مع زملائهم بكل تواضع ومحبة دون ترفع على أحد، وقد تعلمت من زوجي أن أغرس في أولادي الحرص على العبادات والأخلاق الحميدة والالتزام بالسلوك السوي ونظافة اليد واللسان والأمانة، إضافة إلى حثهم على أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم، وأن يكونوا على مستوى المسؤولية باعتبارهم أبناء خالد مشعل، كما أعمق لديهم روح الإيمان والتوكل على الله والعمل لقضيتهم والحرص على الانضباط والكتمان بحكم خصوصية البيئة التي يعيشون فيها. وهم ينظرون إلى والدهم دائما على أنه قدوتهم والمثل الأعلى الذي يقتدون به خاصة وأنه يتعامل معهم بمودة

ولين ونظرة حضارية تقوم على استيعاب حرية الأبناء ومناقشتهم والأخذ والعطاء معهم بثقة وطمأنينة وبروح الوالد الديمقراطي في بيته تماما كما هو ديمقراطي في قراراته السياسية والقومية.

***

وفي كلمة عجلى..

تعودت أن أتأمل حياة الزعماء والقادة، ولعل معظم قراءاتي تدور في هذا المجال حول كاسترو ونابليون وغاندي وجورج واشنطن وعمر المختار وعمر بن الخطاب وجمال عبد الناصر وديغول وغيرهم من القادة والزعماء.

أما حياة القادة الفلسطينيين فلي أن أقول بكل تواضع إني أكاد أعرف التفاصيل الدقيقة لحياة ياسر عرفات وجورج حبش وعصام سرطاوي وصلاح خلف وخليل الوزير وماجد أبو شرار وعشرات القيادات الفلسطينية في كل موقع، ولعل ذلك يسمح لي بأن أقول بكل حياد وتواضع أن خالد مشعل سيكون قائدا فلسطينيا رائعا له شأنه وله بصماته وسيحقق بإذن الله إنجازات تاريخية شأنه في ذلك شأن الرئيس الراحل ياسر عرفات، وإذا صح ما يقوله المراقبون والإعلاميون بأن صداقة حميمة تتنامى بين الرئيس أبو مازن والقائد خالد مشعل فإن ذلك يثلج صدر الجماهير الفلسطينية التي تؤمن بأن هذين الزعيمين وإن كان من جيلين مختلفين إلا أنهما سيكونان متكاملان، خاصة وأن عدونا قد فاوضناه اثنين وستين عاما ولم نخرج بطائل. فلعل التقاء القائدين على منهاج واحد وهدف واحد ورسالة واحدة يحققان إما النصر وإما الشهادة.

(2012/12/22)

البطريرك ميشيل صباح

التحمت يده بيد القائد ياسر عرفات ليثبت للعالم أنهما قادرتان
على مناطحة (مخرز) القهر والعدوان.
ابن الناصرة الذي نال شهادة الدكتوراه ورسم صورة بديعة لرجل الدين المحارب
المؤمن والفارس الذي يتقدم الصفوف رافعاً لواء الحب والتسامح.
رئيساً لمجلس أمناء جامعة بيت لحم سبع سنوات، فتأمل كيف يجمع بين الدين والدنيا
في تناغم إنساني بديع.
كان ولا يزال حرباً على الاحتلال وجدار الفصل العنصري والاستيطان
وكان حضوره عالمياً في متابعة قضايا القدس الشريف.
آمن بالأخوة الإسلامية المسيحية وفي كل مناسبة وحدث تاريخي كان يؤكد هذه الحقيقة.
آمن بالله وبقضية وطنه فخففت قلوب العرب بحبه
وانحنت هامات الفلسطينيين إجلالاً له.

أنموذج إنساني رفيع، مزيج من الإيمان والطهارة والنقاء، والانتماء الوطني، ثقافة رفيعة، وحب للبحث والحقيقة والعلم، معلم وأستاذ، ومنارة دينية رائدة، ومدافع عن ثرى الوطن ومقدساته ورسالته.

إنه ابن الناصرة الذي نشأ وترعرع على تلال الجليل، واستنشق عطر زيتونها، وتغذى بشمسها ورضع الحب والانتماء من كل ذرة رمل في ربوعها.

ربطت بينه وبين الزعيم القائد ياسر عرفات صداقة متينة، صداقة قوامها الحب والتقدير والإخلاص، لمبدأ واحد وهدف واحد ورؤية واحدة: عروبة فلسطين وتحرير القدس وإعادة شعب فلسطين إلى وطنه.

ان هذا التناغم الرائع بين القيادة السياسية والوطنية التي يمثلها ياسر عرفات، وتلك القيادة الأخلاقية الروحية الدينية التي يمثلها ميشيل صباح، هذا التناغم يسجل صفحة رائعة بديعة في تاريخ الأمم والشعوب.

أخوة ومحبة أقوى من أي رابطة

كان الدكتور ميشيل صباح مقربا من الرئيس الراحل ياسر عرفات الذي أحب الإخوة المسيحيين، وأنصفهم وكان نصيرا لهم كما كانوا نصيرين له. قوى شوكتهم كما حموا ظهره وقووا شوكته وهيبته وحافظوا على إيقاع زعامته في كل موقف، وفي كل موقع وفي كل بيت وفي كل كنيسة ومناسبة.

كان هناك تواصل دائم بين الرئيس وبين المواطنين الفلسطينيين المسيحيين، فقد اقترب منهم وتواصل معهم، وكان دائما بقيادته التاريخية وشخصيته الفذة، وذكائه الواعي، وعقليته الرحبة وحسه الإنساني والأخلاقي، كان دائما على تواصل بديع وانسجام كامل مع فكر ورؤى وتوجهات البطريرك ميشيل صباح.

وقد أدرك الدكتور صباح حقائق التاريخ وقرأ بعمق وأصالة، وبعد نظر جراح الوطن الفلسطيني، ووضع يده على مواطن الداء والدواء، وعرف بحسه وضميره وروحه المرهفة وثقافته العميقة، وبصيرته الواعية، عرف وشاهد وشارك واكتوى مثل جميع أبناء وطنه فلسطين بظلم العدو وقهره ولكنه كان صاحب رسالة وموقف.

ميشيل صباح تحسبه المهاتما غاندي

وعندما أطلتُ النظر في مسيرة هذا الرائد الوطني الروحي وجدته داعية سلام، يؤمن بالحب والإنسانية والحوار والتواصل بين أفراد الإنسانية مهما كانت مبادئهم ومهما تعددت لغاتهم، ومهما تباينت عقائدهم وأفكارهم، أن العنف يولد العنف، وأن المحبة تجلب المحبة، وليس هناك سلاح أقوى من الحب والإنسانية والمناقشة والبحث عن الحقيقة التي يجب أن تشرق في كل نفس وأن تسود في كل زمان ومكان.

لقد أدرك الدكتور ميشيل صباح حقائق ومعطيات المأساة الفلسطينية وعرف بفكره الرحب ورؤيته الثاقبة حقيقة الأوضاع.

عرف وأدرك مَن يظلم من

ومن يعتدي على من

ومن يسرق أرض من

ومن يغتصب حقوق من

ومن يجور على تاريخ من

عرف كل الحقائق فكانت مواقفه صورة مجسدة، لرجل الدين الشجاع الذي يؤمن بأنه يجب أن يكون رائدا وقدوة.

مع الرئيس عرفات يداً بيد

كان ميشيل صباح دائما إلى جوار أبو عمار وكانت جماهير الشعب الفلسطيني تشعر بالسعادة والغبطة وتأخذها مشاعر الفرح والابتهاج وهي ترى اليد المسلمة في اليد المسيحية ملتحمتين بصورة قدرية، ومباركة إلهية لتناطحا المخرز مهما كان هذا المخرز حادا ودراميا وساما وباغيا.

وأقول بصدق كم مرّ في تاريخنا من رؤساء طوائف، ورجال دين، مسلمين ونصارى، كثيرون.. ولكن ميشيل صباح والمطران كبوتشي من الشخصيات التاريخية العبقرية التي ربطت مواقفها وثقافتها الدينية ومبادئها العظيمة بالمواقف السياسية.

لقد ترجم ميشيل صباح كل ما آمن به وسكن في سويداء قلبه إلى سلوك وعمل، ومضى على درب أبو عمار في الجهاد والوطنية جنديا شجاعا في الخط الأمامي مدافعا عن الحق متصديا لجحافل الباطل، صادقا مع نفسه ومع شعبه، مدركا تمام الإدراك أن الإنسان موقف، وأن الأفعال دائما هي التي تجسد حقيقة الإنسان، وأن مبادئ الدين السماوية جوهرها العمل والفعل والموقف، لأن المقولات البليغة والشعارات الرنانة تتبخر في فراغ العدم إن لم تكن أساسا قويا للعمل الصادق الملموس الذي ينتصر للخير والوطنية والمبدأ، ويُعلي كلمة الحق التي يؤمن بها كل من آمن بربه ودينه ووطنه وأرضه.

ثورة في مفاهيم رسالة رجل الدين

لقد أحدث ميشيل صباح تغييرا جذريا في صورة رجل الدين الورع التقي، الوديع، الجميل، بسماته ومظهره مسلما كان أم مسيحيا.

رسم صورة أكثر عمقا، وأروع مظهرا وأعظم دلالة لرجل الدين. فالديانة ليست مظاهر، وليست طقوسا وليست مسوحا أو ثيابا، وإنما هي نضال حقيقي ضد الزور والفساد والهيمنة والاقتصاد.

إنها ثورة على هوى النفس، وشهوة التسلط، وأطماع الأنانية والامتلاك.

إنها موقف حضاري وقومي لكل من يستبيح دم أخيه في الإنسانية، ويغتصب أرضه وعرضه ويصادر حقه في رغيف الخبز ودفتر الكتابة ونور الشمعة ولمسة الدفء وحرارة الطمأنينة ووداعة النفس.

صورة البطريرك ميشيل صورة رجل الدين الوقور، العلامة، الدارس، الواعي، المحارب، الفارس الذي يجند كل ما لديه من طاقات وقدرات لخدمة وطنه وشعبه وطائفته ومبادئه ورسالته.

البحث عن شمس الحقيقة

ولد البطريرك ميشيل صباح في مدينة الناصرة عام 1933، والتحق بمعهد اللاهوت التابع لكنيسة اللاتين في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1949، وقد رُسِّم كاهنا في حزيران/ يوليو عام 1955، وأصبح مساعد كاهن في أبرشية مأدبة في الأردن. وقد عمل مدرسا للغة العربية في معهد بطريركية اللاتين في بيت جالا عام 1957.

وقد درس الفلسفة العربية في الجامعة اليسوعية في بيروت خلال الأعوام من 1959 إلى 1964، ثم عاد إلى فلسطين ليعين مديرا للشباب في البطريركية اللاتينية في القدس. وفي عام 1966 عين مديرا للمدارس الكاثوليكية، كما عمل مدرسا للغة العربية في جيبوتي عام 1968، وفي عام 1970 عُين أسقفا لكنيسة المسيح في عمان، وقد حاز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة العربية من جامعة السوربون في فرنسا عام 1973 ومن ثم تولى رئاسة مجلس أمناء جامعة بيت لحم لمدة سبعة أعوام من عام 1980 إلى عام 1987.

أول فلسطيني .. موقف نبوغ وتاريخ

وفي كانون الأول/ ديسمبر عام 1978 قام قداسة البابا يوحنا بولس الثاني بتعيينه بطريركيا لطائفة اللاتين ورئيسا لأساقفة القدس، وتمت المراسم الرسمية في روما في كانون الثاني/ يناير عام 1988.. وكان بذلك أول فلسطيني يشغل هذا المنصب.

كما عين رئيسا لمؤسسة المسيح الدولية منذ العام 1999، وهو عضو المجلس الاستشاري لمؤسسة الأراضي المقدسة المسيحية المسكونية. وقد عمل من خلال منصبه الديني وإيمانه بالعدالة إلى الدعوة إلى الحق والسلام، كما اهتم بعدة قضايا تتعلق بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وهو يتابع قضايا القدس وتحديات الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي المحتلة، وخاصة آثار جدار الفصل العنصري الإسرائيلي، كما أنه عضو في مجلس أمناء مؤسسة ياسر عرفات منذ عام 2008.

من أفكاره .. غَرفة من يم

إن الشعب الفلسطيني ليس ضعيفا، ولن ييأس من الدفاع عن أرضه وحمايتها، إن الأوضاع صعبة وإن إسرائيل تمارس القوة، وتفعل ما تريد، ولكن هذا لا يعني اليأس والضعف للشعب الفلسطيني، بل يجب رفض ممارسات الاحتلال لان قضيتنا عادلة، والله يقف دائما مع العدل، فحماية أشجار الزيتون والأراضي والمنازل التي هي نعمة أنعمها الله على البشر، يجب الدفاع عنها وحمايتها وفي النهاية ستكون الكلمة العليا لله وحده.

قال ميشيل صباح هذه الكلمات في ضاحية كريمزان في بيت جالا وكانت مهددة بالمصادرة من قبل سلطات الاحتلال لصالح بناء مقاطع جديدة من جدار الفصل العنصري.

ويقول البطريرك صباح إن رسالة هذا القداس هي رسالة المحبة التي هي طاقة أقوى من السلاح وقوة الإذلال والاعتداء فقوّة المحبة هي التي تعيد كرامة الإنسان.

إنه في ظل التعنت الإسرائيلي والقمع الذي تمارسه إسرائيل ضد شعبنا تتجاوز كل الحدود والأعراف ولا تلتزم بشرعية دولية غير أن ذلك لن يحقق لها النصر ولن يحقق لها السلام.

وقد تناقلت وكالات الأنباء والمحطات الفضائية والتلفزة هذه الصلاة الرائعة التي جسد فيها البطريرك صباح رؤيته الإنسانية والدينية طالبا من الله العلي القدير أن يلهم أصحاب القرار بالعدول عن مخططاتهم العدوانية، التي تسيء للإنسان وكان دائما يصلي من أجل أن يفتح الله عقولهم، وأذهانهم لصالح الإنسان ويقول بحرارة وصدق نحن نصلي من أجل حرية الجميع ومن أجل كرامة الإنسان.

رؤية إنسانية ونضالية

من المعروف عن ميشيل صباح، أنه يفتخر دائما بفلسطينيته، ويشارك أبناء شعبه المعاناة والألم، ويقف مع المظلوم مهما كانت ديانته، وهو يبحث عن العدالة والسلام دون عنف وسلاح ولا حتى حجر، وهو دائم البحث عن قيادي صادق لا يسعى إلى سلطة أو منصب، وعن زعيم لا يطلب لنفسه شيئا، ويكون رجلا زاهدا ناسكا قضى حياته إما في السجون أو مع الفقراء.

وكثيرا ما دعا المقدسيين والفلسطينيين إلى أن يؤمنوا بأنفسهم وأن يستعدوا بالمال والرجال للحفاظ على قدسهم قبل فوات الأوان.

وبعكس التشاؤم العام السائد فيما يتعلق بالنزاع الإسرائيلي- الفلسطيني يعبر ميشيل صباح البالغ من العمر سبعة وسبعين عاما والمفعم بالإيمان وبالتعايش المسيحي المسلم المتناغم في فلسطين. ويشارك بأفكاره ومواقفه في كل المتغيرات التي تعصف بفلسطين. ويقول البطريرك صباح: إن الشعب الفلسطيني الذي

يعيش تحت الاحتلال العسكري لا يحتاج إلى التعاطف، وإنما إلى العدالة، مؤكدا أنه لم يسمع أبدا عن اضطهاد للمسيحيين في فلسطين، مشيرا إلى أن الخوف من الإسلام وهم، وأن الشرق ليس حرا في اختيار مصيره لأنه خاضع للهيمنة الغربية والمشكلة الحقيقية، ليست في الإسلام وإنما في المجابهة بين الشرق والغرب. ويقول إن الوضع مماثل عند كل العرب في فلسطين، نحن مسيحيين ومسلمين نشكل الشعب نفسه والثقافة نفسها والتاريخ نفسه. نحن أمة في نزاع مع أمة أخرى، ولا يحتاج الشعب الذي يعيش تحت احتلال العسكري إلى التعاطف وإنما إلى العدالة. نحن نحاول في مضمون سياسي متوتر جدا أن نتحمل نفس التحديات ونتعامل معها.

وعن صدام الحضارات يقول صباح: هناك صدام ولكنه ليس دينيا أو ثقافيا إنه سياسي حيث يعامل الغرب الشرق ومن يعيش فيه بغض النظر عما إذا كانوا مسيحيين أو مسلمين يعاملهم على أنهم أقل شأنا وطالما أن هناك علاقة بين المهيمِن والمهيمَن عليه فلن نستطيع الهرب من دائرة العنف. جذور الإرهاب العالمي موجودة في ذلك فليس الشرق حرا في اختيار مصيره، إنه خاضع للهيمنة الغربية، وليست المشكلة هي الإسلام، وإنما المجابهة بين الشرق والغرب. لقد ترك تاريخ الاستعمار المجال لنوع آخر من الاستعمار كامن بصورة أكبر ولكنه ليس اقل حقيقة.

لست خائفاً من الإسلام

وعندما يُسأل البطريرك صباح ألست خائفا من توسع الإسلام؟

يقول: هذا وهم يغذيه هؤلاء الذين لا يفهمون الشرق بشكل عام والإسلام بشكل خاص. طالما أن الفلسطينيين يشعرون بالظلم والقمع فسوف يشعر جميع المسلمين بالتضامن معهم، وهم قادرون على إيجاد اضطراب داخل المجتمعات التي يعيشون فيها وعلينا أن نضع حدا لعلاقة القوة مقابل الضعف بين الغرب والعالم المسلم والتركيز بدلا من ذلك على التعليم الايجابي في المواطنة واحترام الجار. نحن بحاجة لتطوير ثقافة تعايش مشترك ننخرط فيه، ونتعلم كيف نعرف بعضنا بعضا لنعيش ونتصرف ونعمل بشكل موحد.

عن القدس أحاديث قلب مكلوم

وفي حديثه عن القدس، وما يجري فيها، تخرج الزفرات والآهات من أعماق قلبه الكبير، كأنه يلمس جراح قلبه ويقول بتنهيدة عميقة:

نحن أمام الإجراءات الإسرائيلية لإغلاق المدينة وحرمان الناس ومنعهم من الوصول إليها، نشعر بالغضب والثورة فمن المؤلم حقا أن يكون الفلسطينيون غير قادرين على الوصول إلى القدس إلا بتصريح.

الفلسطيني حتى يؤدي صلاته لا بد له من تصريح عسكري، وهذا يحدث فقط في القدس وليس في أي مكان آخر في العالم.

ويضيف صباح بألم شديد: يقوم الإسرائيليون بشراء القدس، وتغيير واقعها الإنساني.. فإن أراد الفلسطينيون استعادة المدينة المقدسة فليشتروها هم قبل أن يتم بيعها من قبل الفقراء والمحتاجين، كما يجب أن لا يبقى في القدس فقير ولا محتاج.

من أجل القدس أفكار ورؤى

وحول تخليص القدس وتحريرها يقول غبطة البطريرك ميشيل صباح: بالنسبة للقدس في الواقع هناك مبدأ يتبلور مع التجربة والممارسة. فالإنسان هو الذي يخلص نفسه بنفسه، ولذلك يجب أن يجعل له أصدقاء من كل شعب من الشعوب وعليه أن يأخذ قضيته بيديه وأن يفكر في الطرق المناسبة والأساليب السليمة لأن السلاح ليس حلا، والمال ليس كل الحل، مع أن الأموال متوفرة، إن الإنسان الصادق والقائد المتجرد هو الحل.

وأضاف: إن القدس في حالة تآكل وتهويد مستمر، والمؤتمرات تعقد والندوات تنظم، وفضح الإجراءات الإسرائيلية مستمر، ولكن ما نحتاجه فعلا هو زعيم متجرد لا يطلب لنفسه شيئا يعيش فقر الفقراء ويسكن مع الفقراء ويحمل ما يحمل الفقراء. هذا الزعيم هو الذي يستطيع أن يحرك جموع الناس ولا تزال في القدس نفسها مئات الألوف من الفلسطينيين يريدون قدسهم، فلو وجد زعيم يقودهم ويحركهم عبر مسيرات من ألوف البشر كلها تناضل بالسلام لا بالسلاح ولا حتى حجر يرمى ولا شتيمة، ولا حتى كراهية وإنما مسيرات تهب في وجه الإسرائيليين وفي وجه العالم، لو وجد هذا الزعيم وسلك هذا السلوك الثوري القائم على السلام لحلت قضية القدس وبل ولحلت القضية الفلسطينية كلها.

إن القضية قضية مسيرة في طريق الله ولكنه إله حب وحياة لا إله موت وكراهية، ولو كان هذا الكلام غريبا وهزيلا في مفهوم قيادتنا.. المطلوب اليوم للخلاص ولاستعادة الحرية والاستقلال أكثر من قرارات هيئة الأمم، إن كل شيء ممكن ولا سيما إن كان العمل فيه سلام وخير فالله يباركه والناس يباركونه وفي آخر الأمر فان كبار هذا العالم بكل حساباتهم ومصالحهم يخضعون له.

على خطى غاندي

وأضاف بحزم: إننا بحاجة إلى زعيم عربي أو فلسطيني مثل غاندي، إلى رجل ناسك قضى حياته إما في السجون وإما مع الفقراء، فقير لا يعرف الفنادق والجاه وكل وقته بين الناس أو في السجون والمنفى فالسلاح الوحيد الباقي بين أيدينا هو سلاح السلام.

إن الربيع العربي لم يثمر بعد بل مرت به كل فصول السنة، إنما أظهر قوة جديدة في العالم وهو التحرك السلمي للجماهير.

لست عدواً لأحد

وفي معرض ذكرياته يقول البطريرك صباح: أجرت مذيعة إسرائيلية معي مقابلة فقالت:

- يقال إنك متحيز للفلسطينيين، وعدو للإسرائيليين.

فقلت:

- لست عدوا لأحد ولو خاصمني أو اعتدى عليّ، بل أنا أقف مع المظلوم، واليوم الفلسطيني هو المظلوم فأنا أقف معه، ولو ظلم الإسرائيلي فسأكون معه.

من كان مظلوما مهما كانت جنسيته فأنا معه في وجه الظالم، أنا إنسان قبل كل شيء، وأتعامل مع كل واحد في أي وضع وجد فيه كإنسان، وإذا كان معتديا فإني أقول له في وجهه انك معتدٍ ويجب أن يوقف اعتداؤه، ولذلك أعمل هذا العمل الذي يسمى مقاومة، والمقاومة أنواع منها مقاومة بالسلاح ومقاومة

بالموقف.. جاء في الكتاب المقدس: لا تقاوموا الشر بالشر، بل قاوموا الشر بالخير. إنك عندما تفعل ذلك تصب نارا متقدة على رأس عدوك.

وكثيرا ما كرر ميشيل صباح فكرة المقاومة السلمية وكثيرا ما دعا إلى البحث عن الزعيم القائد الذي يؤمن الناس بقدرته، ولا يكون صاحب أطماع، فإن استطاع أن يحرك كل فئات المجتمع من رجال وأطفال في حرب سلام فإن إسرائيل لن تستطيع أن توقفه، وأكد على أن المقدسيين والفلسطينيين قادرين على تحقيق النصر إذا آمنوا بقضيتهم.

يقول السيد المسيح: "إن كان عندكم إيمان ولو كان مثل حبة الخردل فإنكم تستطيعون أن تحركوا الجبال من مكان إلى آخر".

مواقف مع الرئيس أبو عمار

هناك صلة صداقة عميقة بين الرئيس وبين غبطة البطريرك ميشيل صباح. وقد تجلت هذه الصداقة في أجلى معانيها عندما نحاول أن نطبق مفاهيم الزعيم القائد الذي يدعو إليه ميشيل صباح على شخصية الرئيس أبو عمار. فبين الرجلين فهم مشترك ورؤية واحدة لمفهوم الزعامة والقيادة. فالرئيس كان قريبا من فكر وثقافة ميشيل صباح. فهو بالفعل عاش معظم حياته مع المناضلين، وابتعد بطبيعته عن أي لون من ألوان الترف وكان في معظم حياته يعيش في خنادق الجنود، وفي الصفوف الأولى مع المقاتلين. فهو أبعد الناس عن حياة الجاه والثروة التي حذر منها ميشيل صباح. كما أن الرئيس عرفات كان عاشقا للجماهير متعاطفا مع الفقراء وكان كلما ضاقت به دنيا السياسة ومؤامرات العدو يلجأ إلى الجماهير، أي أنه كان دائما يعيش مع الفقراء ويعيش بينهم على نحو ما كان يقول ميشيل صباح.

ويتمتع أبو عمار بشعبية رائعة وجماهيرية تاريخية، فهو قادر على أن يقود الجماهير ويوجهها بل كان يخطط بكل إخلاص أن تتقدم الملايين في زحف سلمي إلى القدس لتحريرها على نحو ما كان يتمنى ميشيل صباح.

ذكريات بيت لحم

عندما منعت إسرائيل الرئيس عرفات من المشاركة في احتفالات أعياد الميلاد في مدينة بيت لحم وحرمت عليه أن يشترك في قداس عيد الميلاد الذي كان يقام في كنيسة المهد في بيت لحم. وفرضت عليه أن يظل مع نسمات البرد والوحدة والظلام، وهو يتخيل ما كان يجري في الكنيسة، يومها وضعوا رمز الثورة الفلسطينية "كوفية الرئيس" وكتبوا عليها بالانجليزية إنه هذا هو مقعد الرئيس المحاصر أبو عمار.

وتكرر هذا الموقف في عامين متلاحقين.. يومها وقف البطريرك صباح ليلقي كلمته باعتباره بطريرك الكنيسة وحامل لوائها. وقد هزت كلماته مشاعر الجماهير وأبكت كل من كان في الكنيسة، كما أبكت الرئيس أبو عمار، ودلت هذه الكلمات على عبقرية وفكر ميشيل صباح. وقد جاء فيها: "سلام وطمأنينة.. نعم أنتم أيضا سالت الدماء في مدنكم وشوارعكم، وبين أبريائكم. ومع ذلك نقول إن طرق السلام هي غير ما تمرون به وغير ما تفعلون.. بيدكم القوة فحولوها إلى قوة السلام.. آمنوا بالسلام بعد مئة عام من الصراع ويزيد... إن الشعب الفلسطيني يريد لكم الأمن والاطمئنان وهو راغب في السلام.. تقولون عنفا وإرهابا ويريد السلام". ودعا إلى "رؤية جديدة" لتحقيق السلام والأمن".

ميشيل صباح في المقاطعة

وعندما كان الرئيس أبو عمار محاصرا في المقاطعة وكانت الدبابات تحيط بمكاتبه وتهدد بتصفيته بين عشية وضحاها، كان الخطر يحدق بالرئيس، وكانت براثن الموت تكاد تطبق على كل من كان في المقاطعة، في هذا الجو المأساوي السوداوي وجدنا ميشيل صباح يقود مجموعة كبيرة من رجال الدين المسيحي ويحضر لمقابلة الرئيس وزيارته والإعلان عن تضامن رجال الدين المسيحي معه في كفاحه. ولا شك أن وجود البطريرك ميشيل صباح كان يحمل مغزى عميقا ودلالة تاريخية وإنسانية بالإضافة إلى الدلالة السياسية العميقة لأن منزلة ومكانة صباح كانت تطوف بآفاق العالمية، وليس على المستوى العربي والفلسطيني فقط بل وعلى المستوى العالمي. وبرهن ميشيل صباح على رؤية إنسانية ووطنية رائدة، فهو بالفعل نصير لكل موقف إنساني يتعرض فيه الإنسان لظلم وقسوة أخيه الإنسان.

التظاهر أمام بيت شارون

ومن المواقف الإنسانية والوطنية التي لا تنسى مبادرة ميشيل صباح إلى التظاهر مع مجموعة من رجال الدين المسيحي من مطارنة وقساوسة ورجال دين من مختلف الدرجات والمناصب كلهم تجمعوا بقيادة صباح وتوجهوا إلى بيت شارون في القدس حيث أعلنوا عن استنكارهم لحصار الرئيس في المقاطعة من قبل رئيس الوزراء الإسرائيلي اريئيل شارون.

هذا الموقف الرائع النبيل كشف عن وجه الظلم والافتراء الإسرائيلي، وأظهر للعالم بطولة وثبات وشجاعة الرئيس عرفات، كما دل على أن الشعب الفلسطيني مسلمين ومسيحيين يتضامنون مع الرئيس ويلتفون حوله ويفدونه بأرواحهم وفي طليعة هؤلاء جميعا الطوائف المسيحية التي كان يقودها ميشيل صباح.

حصار كنيسة المهد .. مواقف وذكريات

تعد كنيسة المهد من أهم المعالم المسيحية ليس في فلسطين وحدها بل وفي العالم كله. ففي اليوم الثاني من شهر نيسان/ ابريل عام 2002 بدأت القوات الإسرائيلية اجتياحها لمدينة بيت لحم كباقي المدن الفلسطينية حيث دارت اشتباكات بين المسلحين الفلسطينيين و قوات الاحتلال الإسرائيلي على أطراف مدينة بيت لحم، وفي نفس الليلة قام المسلحون الفلسطينيون باللجوء والتحصن داخل كنيسة المهد وفرضت قوات الاحتلال الإسرائيلي حصارا على الكنيسة دام لمدة 40 يوما و أثناء الحصار جرت مفاوضات مع الجانب الإسرائيلي من قبل المنظمات الدولية و السلطة الفلسطينية، وعلى أثر هذه المفاوضات تم إبعاد المسلحين الفلسطينيين عن الضفة الغربية إلى قطاع غزة و بعض الدول الأوروبية وكان عدد الخسائر من ناحية الإسرائيليين جنديين قتلى و أصيب سبعة، أما الفلسطينيون فقد استشهد منهم ثمانية وأصيب أربعة عشر.

وقد أثارت أحداث الكنيسة مشاعر جميع أبناء الشعب الفلسطيني وخاصة القيادات المسيحية وعلى رأسها غبطة البطريرك ميشيل صباح الذي اعتبر نفسه في مواجهة ضارية مع السلطات الإسرائيلية التي ضربت عرض الحائط بكل المبادئ والقوانين الأخلاقية والإنسانية، بل إن البطريرك صباح دخل في مفاوضات مع الجانب الإسرائيلي برفقة عدد من القيادات المسيحية وحاول جاهدا أن ينهي مأساة هؤلاء

الفلسطينيين المحاصرين كما حاول أن يحفظ للكنيسة قدسيتها ومكانتها الدينية والأخلاقية، فلا يراق دم على أرضها. ويذكر أن البطريرك ميشيل صباح اتصل بالبابا في الفاتيكان وطلب منه أن يتدخل للإفراج عن المحاصرين وحماية الكنيسة والمحافظة على قدسيتها، كما أنه اتصل بالعديد من الرؤساء ومنهم شيراك رئيس الجمهورية الفرنسية، والرئيس جورج بوش رئيس الولايات المتحدة، كما اتصل برؤساء الكنائس في شتى أنحاء العالم وحمل الجميع مسؤولية خطيرة إذا حدثت مجزرة على أرض كنيسة المهد.

وكانت مواقفه الإعلامية والجماهيرية حربا ضروسا على هذه الجريمة، خاصة وأن المحاصرين كانوا في حالة من الجوع والألم والبرد والحصار حتى أنهم أكلوا الأعشاب وكثيرا ما خاطروا بأنفسهم فتلقوا رصاص الموت، وهذه المعطيات هي أكثر ما يثير البطريرك النبيل الشجاع ميشيل صباح. ومن هنا نفهم مواقفه وتعاطفه الإنساني الرائع الذي عجل بإنهاء هذه المأساة.

* * *

وبعد..

غبطة البطريرك ميشيل صباح

أيها الرائد القائد الأب الإنسان

أيها الفيلسوف والمعلم الأديب

أيها القائد الوطني الشجاع

أيها الجندي الفصيح في حمى الحق والخير والجمال

أيها الكاتب الباحث الأكاديمي الدارس المثقف..

كلما أمعنت النظر في مواقفك وأنا أقدم لكَ هذه الباقة، في موسم الأشجان والفرح، وأجواء عيد الميلاد، أشعر بأن الدنيا بخير، وأن على هذه الأرض ما يستحق أن نحيا له.

في موسم الفرح أستمد من مواقفك شذى الإنسانية والطهارة والنقاء، وأتعلم من عبقرية بساطتك وأخلاقك كيف أحب الإنسانية وكيف أنتمي إلى الحق والعدل والشجاعة..

كيف أحب الفقراء، وكيف أقيّم القادة وكيف أهتدي إلى نور الحقيقة، وكيف أسمو فوق الفئوية والعنصرية والفصائلية الضيقة، وكيف أحلق في آفاق الرحمة والحب والانتماء، وكيف أشق طريقي عبر درب الآلام لأستعيد مدينة القلب والروح.. مدينة القدس الخالدة التي يسري حبها في عروقنا مسرى الدم ويؤرق أنينها كل ساعات نومنا ويقظتنا.

بثقافتك الدينية أنرت شموع الحب والتواصل، وأشعلت في دربنا قيم التضحية والمبادرة الشجاعة.

وبثقافتك العربية أثريت وجداننا بالأفكار والمبادئ والأساليب التي تجسد الجمال والفن وتؤكد أن من البيان لسحرا.

وبثقافتك الوطنية أنرت درب البطولة وعبدت الطريق أمام كل قيادة تسعى إلى النجوم، وتتطلع إلى شمس الحرية التي تطارد جنود البغي والظلم وأعداء الحياة.

لقد كنت أنموذجا فريدا لتطابق الأفعال مع الأقوال، وهي قيمة نادرة قد لا نعثر عليها في معرض التاريخ والقادة والرواد إلا قليلا، ولكنها مجسدة في محطات حياتك كمنارات تهدي العيون إلى طريق الفلاح وترشد القلوب إلى مواطن الحب، وتقود العقول إلى نبع الحقيقة والعدل.

أيها القائد العلم.. يا ابن الناصرة، وبيت جالا، وبيت لحم، والقدس وفلسطين.. ما أروع تاريخك، وما أجلّ قَدرك وما أجدر الأجيال أن تقتدي بك وأن تقتبس من نورك ومسيرتك ومواقفك، لتمضي في درب النضال على درب غاندي ودربك.. درب السلام والحرية والعدل والمحبة وهي أقوى من كل سلاح، وأعظم من كل قوة، وأسمى من كل غاية وهدف.

(2013/1/4)

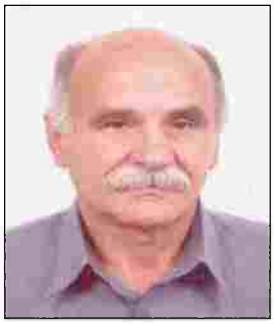

عبد اللطيف غيث

كان واحداً من جيل الصفوة الذين ترعرعوا في حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

حجم القهر والظلم الذي تعرض له الشعب الفلسطيني لا يوازيه إلا حجم بطولات هذا الشعب الذي أفرز صفوة القيادات والمناضلين.

أمضيت ثماني سنوات في المعتقل، وبقية مشوار حياتي إما معتقلا إداريا أو تحت الإقامة الجبرية أو ممنوعا من السفر.

النضال من خلال المؤسسات الجماهيرية الملتزمة يفتح آفاقا للتحرير وبناء الدولة المستقلة.

في المعتقل كنا نعيد صقل الشباب ونغرس فيهم المبادئ ونسمو به ونسمو بأنفسنا.

المناضل الفلسطيني، المعلم المربي القائد الوطني و الإعلامي عبد اللطيف غيث يكاد يكون آخر ذلك الجيل من الرواد المناضلين الذين تتلمذوا في مدرسة حركة القوميين العرب.. والذين اكتووا بنيران نكبة فلسطين فأشعلت في أساتذتهم ومعلميهم وروادهم جذوة الوطنية.. بحثا عن طريق الخلاص لاستعادة الوطن والهوية.

إن الجيل الذي قاد حركة المقاومة منذ أن حلت كارثة فلسطين عام 1948 هم أبناء الطبقة المتوسطة من المثقفين الذين أدركوا أن الحياة كفاح وأن الإنسان موقف وأن النضال في سبيل مبدأ أو قضية هو الذي يجعل للإنسان قيمة. وفي مشوارنا مع هذا المثقف الثائر سنلتقي بنخبة من هؤلاء الرواد الذين يشكلون ظاهرة نضالية مبكرة في سفر الثورة الفلسطينية والنضال العربي.

مواقفي مبنية على الخيارات

يقول عبد اللطيف غيث إن فلسفتي في الحياة قائمة على الخيارات، أضع الأحداث والمواقف والمتغيرات أمام ناظري ثم اختار منها ما اعتقد أنه طريق العدل و الصواب، وفي جميع الحالات والمواقف أزن الأمور

بدقة متسائلا أين هو العدل، فإذا تبين لي انحزت إليه دون أن أفكر في أي عواقب أو نتائج. فليس من مقاييسي أن أوازن بين الفوائد والمكاسب أو بين الصعوبات والعواقب، لا أزن الأمور بميزان الربح والخسارة أو القهر والأذى والمطاردة.. ميزاني قائم على قيمة مطلقة وهي (العدل).

ومنذ سنوات الصبا والشباب عندما أدركت أن ميزان العدل يفرض عليَّ أن أكون مناضلا لأدافع عن حياة الشعب الفلسطيني لم أتردد لأن هذا الشعب العظيم هو أكثر شعوب العام تعرضا للظلم والقهر والمعاناة.

اخترت أن انحاز إلى تلك الصفوة من أبناء جيلي الذين امتازوا بثقافة المقاومة والرفض والعمل وتخطوا السلبية والذاتية والأنانية والعبثية في الحياة.

إن المد الثوري النضالي الذي تفجر بين شباب الشعب الفلسطيني يتناسب تناسبا طرديا مع حجم القهر والظلم والعنف الذي تعرض له شعبهم.

ولما كان هذا الظلم التاريخي يشكل ظاهرة فريدة في تاريخ الأمم، فقد كان إفراز كل هذه البطولات والقوافل من الشهداء والأسرى والقادة نتيجة طبيعية تنسجم مع منطق الواقع والتاريخ وتؤكد بدلالة قاطعة مدى عدالة ونزاهة القضية الفلسطينية.

إن حجم البطولات في الشعب الفلسطيني تتناسب مع حجم القهر الذي تعرض له هذا الشعب، وبالتالي فإن حركة المد التاريخي للمقاومة نتيجة طبيعية لمقدمات تفضي إلى نتائج حتمية.

بانوراما مناضل مقدسي

ولد عبد اللطيف شحدة غيث في مدينة القدس عام 1941 ميلادي.. وعلى أثر أحداث عام 1948 غادرت الأسرة مدينة القدس، وذهبت إلى الخليل وبعد عامين عادت مجددا إلى القدس لتجد المدينة مقسمة، ولتسكن في باب "السلسلة".

الوالد كان يشتغل عاملا في معامل السيرج والسمسم، والوالدة كانت ربة بيت، وكان هناك ثلاثة إخوة من الشباب وأربع بنات.

ويقول عبد اللطيف: "كان قدري أن أتعرض للقهر والظلم الاجتماعي وأنا لا أزال في مرحلة الطفولة والصبا، فقد انفصلت أمي عن أبي وأنا ابن ثلاث سنوات، وأحدث هذا الانفصال بين الوالدين شرخا عميقا في نفسي رغم صغر سني ومن ثم واجهت غول الفقر المدقع، والحاجة وشعرت بقسوة الحياة وظلم المجتمع، فألقى ذلك في نفسي بذور الثورة على الظلم والقهر.

ولعل علم النفس يكون مصيبا عندما يقرر أن شخصية الإنسان ومعدنه تتكون في سنوات حياته الأولى قبل أن يتجاوز سنوات المراهقة.

مفتاح شخصيتي .. الثورة على الظلم

وأستطيع أن أقول اليوم بكل تجرد ومصداقية إن الثورة على الظلم والقهر الاجتماعي كانت أول غرس في بناء شخصيتي ونظرتي إلى الحياة والناس، وقد تطورت هذه النظرة وتنامت لتصبح ذات نهج سياسي واضح عندما عشت طوال حياتي وأنا أحاول أن أجسده موقفا وفكرا وهدفا وغاية.

المدرسة البكرية تاريخ لا ينسى

دخلت المدرسة البكرية في الصف الثاني الابتدائي، وكنت قد تخطيت سن الثامنة، وكان قد مضى عليّ عامين دون أن أدخل المدرسة وبكذبة بريئة قلت لهم إني في الصف الثاني فامتحنوني.

وكنت قد دخلت "مشيخة" ساعدتني في الامتحان وهكذا وجدت نفسي طالبا في الصف الثاني في المدرسة البكرية العريقة.

أمضيت في المدرسة البكرية في البلدة القديمة ست سنوات وكانت تقع في أحد أبواب المسجد الأقصى. وكانت ظروف دراستي قاسية مؤلمة، بل إن هذه الفترة تعد أقسى فترة عشتها في حياتي، وبمضي الوقت تنامت شخصيتي وتعمق إحساسي بالظلم الاجتماعي الذي أتعرض له بسبب ظروف حياتي الأسرية، ولكني بدأت أتحسس القضايا الوطنية من خلال الألم والقسوة ومشاعر الإحباط التي فرضت علي أن أتأمل ما حولي وأنا أتحسس طريقي في فترة مبكرة من حياتي حتى يصدق علي ما يقال إنني لم أعش طفولتي، فقد وجدت نفسي أعايش تجارب النضج الإنساني وأنا لم أتجاوز مرحلة الصبا الباكر. كما أني بدأت أتحسس القضايا الوطنية وأساهم فيها وأشترك في المظاهرات.. بل إنني كنت دائما أنحاز إلى كل ما فيه الرفض للواقع وكنت دائما أدافع عن موقفي بعناد وإصرار.

البحث عن هوية

بعد فترة قصيرة وجدت نفسي أنتسب إلى "حزب التحرير" وهو حزب ديني و أنا لم أتجاور الثالثة عشرة من عمري، وقد استمر انضمامي له مدة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة شهور، والحق أني لم أستطع فهم هذا الحزب ولم تجد مبادئه وفلسفته سبيلها إلى نفسي ولكني واصلت التعرف على الحياة السياسية بكل ما فيها من خبايا وتوجهات. ومن هنا اطلعت على الفكر اليساري في مرحلة مبكرة من حياتي. فقد كنت ما أزال في المدرسة الابتدائية عندما وجدت مبادئ هذه الأحزاب وتوجهاتها ومقولاتها وفلسفتها تترك آثارا في نفسي وتجد صدى طيبا لها في عقليتي وإدراكي، وأذكر في تلك الفترة أن أحد أساتذتي وكان في الأصل ضابطا أردنيا ولكنه فُصل، فالتحق بهيئة التدريس وجاء ليعلمنا وقد وجدت في أفكار هذا المعلم الذي كان من عائلة الخطيب كثيرا من التجاوب، وقد أدركت أنه كان شخصية وطنية تستحق الاحترام لأنه لم يفصل من الخدمة العسكرية إلا لمواقفه الوطنية المعادية للسلطة في تلك الفترة.

كان الأستاذ الخطيب في الواقع شخصية قيادية مثقف ذكي وإنسان ومربٍّ على مستوى عال من الخلق والتوجه. وقامت بيننا علاقة صداقة وإعجاب فقد كان يعاملني كصديق وليس كطالب وكان بحسه الرفيع يعرف ظروف حياتي وما أعانيه على المستوى الاجتماعي والمستوى العائلي والمستوى المادي.

لقد أثرت فيّ هذه الصداقة وخلقت في وجداني وفكري توجها إنسانيا متفائلا محبا للإخلاص والعمل بوحي من معلم صديق لا زلت أكن له كل حب وتقدير.

وفي المدرسة الرشيدية

أنهيت دراستي في المدرسة البكرية وانتقلت بعدها إلى المدرسة الرشيدية، كان والدي يساعدنا على قدر ما يستطيع وكان يعيلنا بشق الأنفس، وفي تلك الفترة كنت أعتمد على نفسي وأعمل في أي مجال يتاح لي

لأكسب ما يساعدني على مواصلة الدرس ويساعد والدي على أن يعيل الأسرة، عملت في تلك الفترة في مقهى وعملت في دكان بقالة وأعمالا كثيرة أخرى من هذا القبيل.

ولم أكن أشعر بالمرارة ولا بالألم ولكني كنت أواصل طريقا مليء بالصخور والأشواك. وفي لحظات التفكير والصفاء أجدني ثائرا على الأوضاع الاجتماعية التي خلقت طبقات غنية مترفة وخلقت بالمقابل طبقات مسحوقة فقيرة. وكنت أفكر دائما كيف يمكن إعادة كفي الميزان وكيف يمكن أن يصبح الناس كلهم في ميزان واحد بحيث لا يموت فريق من الناس بسبب التخمة ولا يموت آخرون بسبب الفقر.

كانت هذه الأفكار تغذي الجانب اليساري في شخصيتي وتفكيري وتدفعني إلى أن أقود التظاهرات وأن أتعرض لأخطر الأعمال في المواجهات السياسية والأعمال الوطنية. ولم أكن أعرف معنى للخوف أو التردد. ومن هنا أخذت شخصيتي الوطنية والقيادية تتبلور وتأخذ أبعادها في نظر الزملاء والقادة وواصلت المشوار في هذا الطريق حتى أنهيت امتحان المترك الأردني وبدأت أستعد للمرحلة الجامعية.

في رحاب حركة القوميين العرب

إن من يقرأ التاريخ من خلال الشخصيات والإعلام التي تركت آثارا في الثورة الفلسطينية بل في حركة الثورة العربية على نحو ما تفعلين سيدتي في استعراضك لتاريخ هذه الشخصيات، يجدها جميعا قد خرجت من عباءة حركة القوميين العرب. فكل أبناء الجيل الذين ثاروا وشاركوا في الثورة على الاحتلال والقهر كانوا في مرحلة من المراحل يستظلون بمبادئ حركة القوميين العرب باعتباره تنظيما قوميا عربيا راديكاليا يرفع شعارات الوحدة والتحرر والعدالة الاجتماعية.

وهكذا اندفعت في هذا التيار وانتميت إلى حركة القوميين العرب بعد أن تأثرت بهم وبأفكارهم ولمست في هذه الحركة عظمة الأخلاق والإخلاص والمبادئ، ومن أهم القيادات المناضلة التي عايشتها في مدينة القدس تلك الفترة نحو عام 1960 كل من: صبحي الخطيب، أمين الخطيب، صبحي التميمي، فريد الطويل، الشهيد عمر القاسم، يعقوب عودة، والشهيد إسحاق مراغة، وغيرهم.

وفي المدرسة الإبراهيمية أيضاً

ثم انتقلت إلى المدرسة الإبراهيمية وتخرجت منها بعد أن حصلت على مترك أردني من الرشيدية، ثم توجيهي مصري من المدرسة الإبراهيمية. وصادف أن أعلنت الحكومة الأردنية في تلك الفترة عن بعثة دراسية لستة طلاب لدراسة الرياضة في المعهد العالي بالقاهرة. وتقدمت ضمن عشرات الشباب وكنت في تلك الفترة لا أملك القدرة المالية لمواصلة تعليمي الجامعي وقد ساعدني أني قوي البنيان وأمارس بعض الألعاب الرياضية كالملاكمة والركض.. كل هذه المؤهلات جعلتني أكون واحدا من المرشحين للمقابلة وبعدها حصلت على البعثة.

وقد تأجل سفرنا جميعا لمدة عام كامل بسبب تردي العلاقات المصرية- الأردنية وكان ذلك في مطلع الستينيات، ومن هنا قررت أن أبحث عن عمل وكان ذلك بأن عملت مدرسا في وكالة الغوث في عمان لمدة سنة حيث كنت أدرس الرياضيات والفيزياء. وفي نفس الوقت كنت أمارس العمل السري في حركة القوميين العرب.

وبمرور العام تجددت البعثة وسافرت إلى القاهرة وكان ذلك في عام 1962 والتحقت بالمعهد العالي للتربية الرياضية في الهرم وهو المعهد الذي كان الرائد في الوطن العربي وكان أمنية أي شاب رياضي في أي بلد عربي أن يلتحق للدراسة فيه والحصول على شهادة البكالوريوس خاصة وأنه كان يضم نجوم الرياضة في مصر ممن كانوا يحوزون إعجاب الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج.

ذكرياتي سياسية لا رياضية

كانت مناهج ودراسات المعهد ترضي طموح أي شاب رياضي، ولكني في الواقع كنت طالبا متفوقا أحصل على أفضل الدرجات ولكن وجداني وفكري وعقلي كان مشغولا دائما بالنضال السياسي. لقد كانت فترة الستينيات هي الفترة التي شهدت المد الناصري وحركة القومية العربية، وكان عبد الناصر بالفعل القائد الملهم الذي حرك الجماهير العربية وخلق تيارا قويا من الوطنية والانتماء وأشعر العرب بالعزة والكرامة وكانت ملايين العرب تكن له حبا عميقا وتؤمن بمبادئه وتعتبر صورته رمزا للحرية والكفاح والنصر ولا شك أن جميع أبناء الستينيات من أصدقائنا ورفاقنا يذكرون تلك الفترة بعزة وكرامة وإخلاص. فهم يعلنون دائما بأنهم من الجيل الذي عاش أمجاد عبد الناصر.

في هذه الأجواء تربيت سياسيا ونضجت وتعرفت على المناخات النضالية والسياسية ما عمق وعيي الفكري و السياسي. لقد كنت واحدا من ملايين الشباب العربي قوميا عربيا منتميا إلى التيار الوحدوي، مخلصا لمبادئ عبد الناصر التي هي صدى حقيقي لمبادئ القوميين العرب، وكنت نشيطا في المجالات الطلابية التي تفجر وعيها السياسي وشاركت في تلك الفترة في كل المؤتمرات والفعاليات التي تجسد النضال العربي والقومية العربية.

اتحاد طلبة فلسطين .. طليعة ثورية

والآن وبعد كل تلك السنوات يمكنني أن أقول إن اتحاد طلبة فلسطين كان طليعة نضالية وكان مقدمة صادقة وهامة لظهور منظمة التحرير الفلسطينية.

وأذكر جيدا كل التفاصيل التي حدثت في المؤتمر الوطني الثالث الذي عقده جميع طلاب فلسطين في كل إنحاء العالم وعقد هذا المؤتمر في غزة وجمع شباب فلسطين في شتى البلاد المختلفة وعبر عن الشتات والهجرة وعن قضايا الشعب الفلسطيني أصدق تعبير، وكانت الروح الوطنية والتوجه القومي يبعث على الفخر والتفاؤل بأن مستقبل فلسطين وتحريرها سيكون في أيدٍ أمينة. في ذلك المؤتمر التقيت بالعديد من القيادات الفلسطينية التاريخية وأذكر منهم من قادة فتح هايل عبد الحميد (أبو الهول) وهاني الحسن ومن حركة القوميين العرب تيسير قبعة وشريف الحسيني والعديد من القادة البعثيين. وكان لهذه الصفوة دورا كبيرا في خلق وإيجاد قادة فلسطينيين ظهرت أدوارهم فيما بعد في التاريخ، وأتشرف بان أكون واحدا منهم.

الاعتقال الأول .. مقايضة لم تتم

بعد أن تخرجت من المعهد عدت إلى الأردن ومن ثم عدت إلى القدس وكان عليّ حسب عقدي مع الحكومة الأردنية انه يجب أن أخدم ثماني سنوات في الحكومة مقابل البعثة التي حصلت عليها أثناء دراستي.

بعد مضي ثلاثة أشهر من العمل طلبتني المخابرات الأردنية. وبمنتهى الصراحة ساومتني على أن استمر في عملي شريطة أن أعلن استنكاري لحركة القوميين العرب وأن أعلن ولائي لصاحب الجلالة.

ولكني رفضت ذلك العرض، فتم فصلي، بل وطالبتني الحكومة الأردنية بأن أدفع كافة مصاريف البعثة مضاعفة.. وتم سحب جواز سفري، ولم أجد فرصة للعمل في القطاع الخاص وذلك فيما أعتقد بسبب تعميم يمنع قبولي في أي عمل و بقيت عاطلا عن العمل حتى حرب 1967.

كارثة الاحتلال عام 1967

وفي هذه الأثناء حدثت هزيمة حزيران عام 1967 وخيم الاحتلال على الضفة الغربية والقدس وهضبة الجولان وأجزاء من مصر تتمثل في احتلال سيناء. فكان لا بد من الرد على الاحتلال بالتبشير والبدء بالمقاومة فبدأنا باستعادة صفوف حركة القوميين العرب التي أصبحت فيما بعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وفي 1968/12/2 تم اعتقالي و حكم عليَّ بثماني سنوات بتهمة الانتماء للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

أما على الصعيد المهني فقد عملت معلما في مركز تدريب المعلمين التابع لوكالة الغوث في رام الله بعد الاحتلال مباشرة واستمر عملي حتى تم اعتقالي.

وقد أمضيت السنوات الثماني كاملة في سجون الاحتلال.

وهذه الفترة صادفت بداية دخول قوافل من الشباب داخل السجون، وكانت هذه القوافل من شباب متحمس صغير في السن تنقصه الخبرة في الحياة، ولا تنقصه الشجاعة والرجولة والرغبة في التضحية والفداء. كانت قوافل نضالية ترفع الرأس وتثبت أن الشعب الفلسطيني قادر دائما على أن يكون أكبر من النكبات وأعظم من سيف الجلاد.

وكانت الضرورة تفرض أن يقدم الأكثر علما ومعرفة ونضجا وسنا للأجيال الشابة التجربة والتوجيه والتعليم، وكنت أقوم أنا وبعض الزملاء بهذا الدور فكنا نعمل على بناء هؤلاء الشباب نفسيا وعلميا ونضاليا وكنا نثقفهم ونعلمهم ونجعل منهم كوادر نضالية مؤمنة بربها ووطنها وقدسها وحريتها وكنا نغذي فيهم الشعور بالانتماء ولذة التضحية ونبل الهدف والموت في سبيل الغاية الأعظم فلا معنى للحياة بدون مبدأ وما أجمل الحياة من أجل هدف نبيل سامٍ. و على هذا الطريق تحولت السجون إلى مدارس للثورة.

كانت ظروف الاعتقال في تلك الفترة قاسية جدا وكان كل من حولنا ينظرون إلينا نظرة عدائية على اعتبار أننا مجرمين ومخربين وقتلة وكانت الكتب مفقودة والأقلام غائبة وكان الغذاء والعلاج غير متوفرين وكانت ظروف الاعتقال تفتقد إلى الحد الأدنى من الإنسانية.

كل ذلك فرض علينا نحن قادة المعتقلين أن نعمل بجد وأن نخوض تحديات مريرة ضد السجان وضد الأوامر وأن نناضل بشراسة دفاعا عن إنسانية هؤلاء الشباب. وأقول بصدق إنني كنت واحدا من الذين أسسوا و ساروا على معركة البناء الداخلي في سجون الاحتلال و على سبيل المثال أدخلت فكرة النشاط الرياضي حيث أنة كان ممنوعا، وبعد ما لاحظت أن كثيرا من المعتقلين يعانون أمراضا مختلفة بسبب قلة الحركة وبسبب عدم ممارستهم للرياضة.. ناضلت في هذا الاتجاه بكل إخلاص وقادني هذا النضال إلى الزنازين مرات عديدة ولكني واصلت المشوار. ومن ثم أدخلنا الكتب بعد أن كنا ممنوعين من القراءة

والكتابة وكنا نؤلف ونعلم الشباب بطريقة مبتكرة إذ نسجل كل ما نتذكره من معلومات على أوراق ونعطيها لزملائنا لتكون مصدرا للعلم والمعرفة. وقد نجحنا أخيرا بتثبيت حقنا بحيازة الكتب وبعض مستلزمات التعليم وإن كانت بحدود ضيقة.

كان ذلك في سجن الرملة

هذا النضال المتواصل من أجل الإخوة والرفاق المعتقلين كان يستغرق وقتا طويلا من أوقاتنا في السجن ولكنه كان رسالة وطنية رائعة إذ نبني فيها الإنسان الفلسطيني المؤمن بالغد المتطلع إلى فجر الحرية الواثق من النصر البعيد عن عناصر الإحباط والتشاؤم والفردية، كما أن هذه الرسالة كانت تساعدنا على بناء أنفسنا فهناك ما نعمله لوطننا وهناك ما نعمله لإخواننا.. كنا نتصور أن فترة السجن ستكون فترة عابرة لكن ثماني سنوات كانت كافية لأن تدفعنا إلى التفكير وخلق اهتمامات وحياة عميقة خصبة تمتص هذه السنوات وتجعل منها سنوات عطاء حافلة فتمضي بسرعة كأنها لمح البصر.

كان سجن الرملة شرارة تشع على السجون الأخرى وكانت كل الفعاليات التي تجري فيه سرعان ما تنتقل إلى كافة السجون الأخرى.

وأذكر من الزملاء الذين حملوا أمانة هذه الرسالة بشرف وشجاعة كل من محمد عليان (أبو فلسطين) وأحمد خليفة وهو باحث معروف ويعقوب عودة والشهيد عمر القاسم وكمال النمري وعبد الحميد ووليم. وكان هؤلاء يتمتعون بثقافة رحبة وفكر عميق وإلمام كبير بالمفاهيم السياسية والنظريات الفكرة وكانوا حريصين على تنمية الشعور الإنساني والصمود في نفوس رفاقهم المعتقلين من الشباب الذي جاء إلى ظلام السجن معذبا وبسيطا ولكنه لم يلبث أن تفتحت مداركه وشعر بالضوء والنور والعلم والإيمان يملأ صدره وجوارحه وإذا بطاقاته الخلاقة تتفجر على شكل قدرات وتأملات وأماني ومواقف لبناء الآخر وتحرير الوطن.

مناضلا في بناء المؤسسات

عندما خرجت من السجن كان وعيي الفكري والنضالي قد نضج وبدأت رسالتي في مجالين مختلفين في آن واحد. فعملت في التعليم والصحافة. فقد التحقت بمدرسة دار الطفل العربي وفي كلية الآداب التابعة لجامعة القدس. كما عملت محررا في جريدة "الفجر" مدة ثماني سنوات. وفي هذه الأثناء مارست الأشكال المختلفة و الملائمة من النضال على قاعدة تصليب بنية المجتمع في مواجهة الاحتلال وإجراءاته بما في ذلك تأسيس وبناء المؤسسات و الاتحادات و النقابات المهنية والجماهيرية و التي ظهرت نتائج هذا البناء في الفعل الانتفاضي سنة 1987.

و هذا الشكل من النضال في ظل الاحتلال أصبح ضروريا ورديفا لكافة أشكال النضال الأخرى وأعتقد أن شعبنا كان مبدعا حينما نظم و بنى علاقاته الداخلية في مواجهة إجراءات الاحتلال بالاعتماد على قدراته وإمكانياته وقد أفرزت هذه المرحلة العديد من القادة الاجتماعيين و السياسيين الذين قادوا الانتفاضة الكبرى فيما بعد.

وعلى هذا الأساس فقد قمت مع آخرين بإنشاء وتأسيس عشرات المؤسسات الوطنية الفاعلة البناءة التي ترفع لواء فلسطين ونهج فلسطين وحرية واستقلال فلسطين. ومن أهم هذه المؤسسات رابطة

الصحفيين العرب التي كان لي ولمجموعة من الزملاء الفضل في تأسيسها. وفيما بعد تأسيس مؤسسة الضمير لرعاية الأسير و حقوق الإنسان والتي تقوم اليوم بدور أساسي في الدفاع عن قضايا الأسرى.

الإنجازات .. الثمن والحقيقة

إن من يناضل من أجل الوطن و الشعب علية أن لا ينتظر ثمنا لذلك لان جوهر النضال هو التضحية، ولذلك فإنني أتوخى دائما الاعتماد على الذات في الحياة و المحافظة على الاستقلال وأن لا أكون أسيرا لأحد ،أعيش بعرقي وأختار قراراتي بحرية.

*عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية.

*عضوا في المجلس المركزي الفلسطيني لمنظمة التحرير الفلسطينية.

* أمضيت ثمان سنوات متواصلة في سجون الاحتلال.

* في الانتفاضة الأولى اعتقلت إداريا مرتين.

* اعتقلت في انتفاضه الأقصى اعتقالا إداريا.

* كما أني اعتقلت عدة مرات اعتقالات احترازية.

* وقد فرضت علي الإقامة الجبرية مع إثبات وجودي عند الشرطة عدة مرات.

* مُنعت من السفر لفترات طويلة.

* فرضت علي الإقامة الجبرية مجددا ومنعت من السفر منذ سنة ونصف حتى اللحظة.

وعلى مدار الاحتلال منذ عام 1967 حتى اليوم كنت دائما إما رهين السجن وإما معتقلا إداريا، وإما مفروضا عليّ الإقامة الجبرية أو ممنوعا من السفر أو مطالبا بإثبات وجودي، وأنا الآن أعاني من هذا الوضع وممنوع من دخول الضفة الغربية أو السفر إلى الخارج منذ عام ونصف.

***

أخي عبد اللطيف..

عرفتك قائدا سياسيا مقدسيا مناضلا ضد التطرف، وضد القمع، وضد العنصرية والبغي. وكنت دائما نصيرا للحق والمبدأ، مؤمنا بعروبة القدس، وحق المقدسيين في الحرية والكرامة.

عرفتك علما صادق الولاء، وصادق التوجه، قوي المنطق، صلبا حاسما، حازما، لا ترهب كل ألوان القهر والمؤامرات.

ترعرعت في حواري القدس وساحاتها وتتلمذت على أبطالها وقادتها فنشأت قويا مؤمنا مجاهدا، تحتكم في كل خطواتك إلى ميزان العقل والحكمة مسترشدا بالخيارات العقلانية التي تنسجم مع الأخلاق والإنسانية.

كنت أعظم من سجانيك، فلم يرهبك ظلام الزنازين، ولم تتراجع أمام أغلال الاعتقال.

لقد كنت مستهدفا دائما لأنك من القيادات المقدسية الفاعلة التي تحرك الجماهير المقدسية وتقودها رافعة لواء الحق والمقاومة وبهذه الصفات القيادية كنت دائما هدفا لفوهة بنادق العدو وتحت عدسات مراقبتهم. فهم في مطاردة دائمة لكل قيادة مقدسية صادقة تشكل خطورة حقيقية على مؤامراتهم ومشاريعهم وأطماعهم.

بقدر مصداقيتك وبقدر إخلاصك وبقدر عبقريتك النضالية كان حجم المطاردة والملاحقة ومحاولات التصفية من خلال سلسلة من الاعتقالات والمطاردات التي صقلت شخصيتك وعمقت إحساسك وزادتك قوة وصلابة فمثلك كالتبر في جوهره لا تزيده النيران إلا تألقا وصقلا وبريقا.

أخي أبا نضال..

لقد كان تاريخك الشخصي يتطابق مع تاريخ الحركة الوطنية، ففي بواكير الاحتلال دخلت السجن معتقلا لتمضي ثماني سنوات أمضيتها في تعليم وتثقيف جيل من المناضلين. وفي الانتفاضة الأولى عام 1987 كنت في طليعة القيادات التي ناضلت ببسالة وشرف وعرفت كيف تقود إيقاع ثورة الحجارة في مدينة القدس الشريف وضواحيها ولهذا طاردوك وحاصروك لأنك في الصف الأمامي من القيادات الواعية المثقفة الأكاديمية المخلصة.

وفي الانتفاضة الثانية حاصروك واعتقلوك.. لأنك لم تخشَ المواجهة ولم تلن قناتك بفعل السجن والاعتقال بل زادت عزيمتك وإرادتك وإصرارك وهذه صفة الرجال الذين يحتلون مقاعد الريادة في التاريخ الإنساني والنضالي.

ومن موقعك في مؤسسة الضمير قمت بدور ريادي يشهد بأنك على العهد ماضٍ وأنك جندي مخلص لقضايا الحق والإنسانية لا تهادن ولا تتراجع ولا تساوم ولا تضعف، حسك النضالي وتاريخك ورؤاك الوطنية تؤكد أن المعركة متواصلة وأن القدس زهرة المدائن في حاجة إلى ملايين الشهداء على نحو ما كان يقول الرئيس الراحل ياسر عرفات.

أخي عبد اللطيف..

لقد آمنت دائما بأن قوى البغي والعدوان لن تهزم حقائق التاريخ ولن تهزم منطق الحق وأنك ستبقى رافعا لواء النضال رغم الإقامة الجبرية ورغم قيود السجن ورغم الاعتقالات الإدارية لأنك كنت دائما حيث يكون الحق والعدل. فأنت رجل الاختيارات واختيارك دائما مستوحى من العدل والحق.

بهذه الروح النبيلة وهذه الرؤية النضالية الشاملة وجدناك قائدا مقدسيا مخلصا أقوى من كل المؤامرات والمحاولات التي تريد أن تحاصرك وتطفئ جذوة الثورة التي تشعلها بمواقفك وحكمتك وصبرك وحلمك وتوجيهاتك للحركة الوطنية. لقد كنت رائدا ومربيا للشباب الفلسطيني في سجن الرملة وها أنت اليوم فارس مقدسي ومعلم ورائد لكل الجماهير الثائرة التي تلتف حولك وتقتبس منك الحكمة والصبر والنضال.

إن ما يأسرني في هذه المناسبة أن أجد فيك تواضعا نبيلا، صادقا، تروي الأحداث والمواقف بأسلوب يخلو من النزعة الذاتية ويميل إلى الموضوعية والتجرد، فأكبرت فيك هذه الحقيقة التي تنم عن إنسانية شفافة وتؤكد هوية قائد عظيم تفخر به الحركة الوطنية وتزهو به القدس ويشكل بتاريخه ومواقفه منارة للأجيال القادمة.

أيها القائد العصامي

أيها المناضل الشجاع

أيها المربي الرائد

أيها الإعلامي الموجه

أيها المؤسس الباني

أيها الحارس لمؤسسة الضمير

أشهد أنك ابن القدس البار الذي أمضى أربعين عاما مدافعا عن حريتها وكيانها بصبر وثبات وحكمة وكان موقفك دائما ينبع من قول الشاعر:

"قف دون رأيك في الحياة مجاهدا إن الحياة عقيدة وجهادُ"

(2013/1/11)

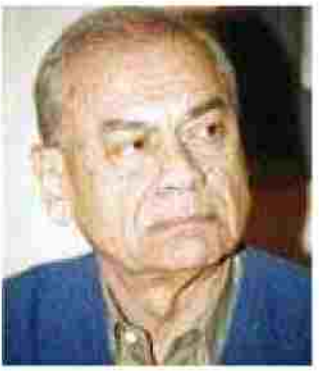

الدكتور هشام شرابي

نشأ وترعرع في يافا وعكا وبيروت ثم نال أعلى الدرجات العلمية في أمريكا والعالم.

تعلم في جامعات الغرب ثم علّمهم مناهج البحث العلمي في التاريخ والنقد والمجتمع

عندما كان أستاذاً ورئيس قسم التاريخ في جامعة جورج تاون.

أنشأ مؤسسة هشام شرابي بدعم من خليل الوزير لتعليم طلاب الجامعات في عام 1948

واستعان بشكري العبد الذي مسح القرى قرية قرية بحثاً عن الطلاب المحتاجين.

دّرس هنري كلينتون في الجامعة. فلمّا ولي الرئاسة في أمريكا لولايتين قال له:

لم تتعلم من التاريخ شيئا!

عاش حياته دون أن يفكر في أي مغنم مادي أو ذاتي وعندما زار عكا ويافا

استرجع ذكريات الطفولة وبكى بدمع مرير على الوطن السليب.

ما أكثر الجامعيين والأكاديميين في الوطن العربي!

وما أكثر الأساتذة والمحاضرين ونوابغ الفكر والعلم والأدب في فلسطين وغيرها من دول العالم العربي والإسلامي!

ولكن ما أقل أولئك النابغين المبدعين الذين جمعوا بين عبقرية الفكر وجلال الرسالة.

كان هشام شرابي عبقرية فكرية وعلمية وأكاديمية، ولكنه كان كذلك صاحب قضية ورسالة ومبدأ، كان من تلك الصفوة النادرة التي جندت كل ثقافتها ونبوغها وعلمها لصالح قضية وطنه فلسطين، بل ولصالح القضايا العربية والإنسانية بوجه عام.

لقد كان هشام شرابي كاتبا ومفكرا وناقدا وفيلسوفا من طرازرفيع، وما اختياره ليكون أستاذا في جامعة جورج تاون بواشنطن وهي أعرق جامعة في العالم على الإطلاق إلا دليل على عبقريته الذهنية ومكانته الأكاديمية والفكرية.

رائداً ومدافعاً عن قضايا العصر

لقد ظل هشام شرابي متصلا بروح النهضة والتنوير والإصلاح، كما كان داعية من دعاة التغيير، حيث انتقد الكثير من السلوكيات والموروثات في المجتمع العربي، وكان مدافعا عن المرأة ونصيرا لها وقد كرس لهذه القضية الكثير من الجهد والوقت والدرس والمحاضرات، كما حاول أن يرفع عن كاهل المرأة الظلم والاضطهاد اللذين لحقا بها.

في أمريكا كان ملاذاً لأبناء وطنه

تأخذني موجة ذكريات عزيزة عندما التقيت مع الدكتور هشام شرابي في أول زيارة لي لأمريكا عام 1974، حيث التقيته ووجدته كما سمعت عنه، ملاذا ومنارة لجميع المثقفين العرب، ومرجعا وطنيا وإنسانيا وسندا لجميع الفلسطينيين، الذين يأتون إلى أمريكا وخاصة القادمين للدراسة أو الإعلام، حيث يستقبلهم ويرحب بهم، ويبذل كل جهد مستطاع في سبيل أن يستمع لهم ويتفهم مشاكلهم، ويضع من خلالهم يده على آلام المجتمع العربي بصفة عامة والمجتمع الفلسطيني بصفة خاصة، وكان يصغي بملء جوارحه وعواطفه لكل الآلام التي تعصف بالوطن المحتل فيستمع ويستغرقه الاستماع محاولا أن يتفهم أبعاد كل ما يدور على الأرض الفلسطينية بروح العالم وبرؤية المناضل وبثقافة الرائد.

كان كأنه جان بول سارتر

جمعت بيننا صداقة الفكر، وجراح الوطن ومأساة البعد عن فلسطين كما جمعت بيننا رؤى فكرية وحضارية خلقت منبرا للتواصل، وقد تعززت هذه العلاقات بيننا، وأنا أتنقل محاضرة في مختلف المنابر والمجتمعات الأمريكية، كان دائما يصغي إليّ بانتباه واهتمام وتواضع، وكان كمعظم الفلاسفة قليل الكلام، دقيقا في كل ما يقوله ويكتبه ويبديه، ولم أختلف عنه يوما إلا حول عرفات وحول اتفاقية أوسلو وتلك قصة أخرى. والواقع أن هشام شرابي كان مزيجا من المعاناة والعذاب، وكان ينفعل بكل حرف، بل بكل كلمة يسمعها عن الناس المنكوبين، وخاصة أبناء الشعب الفلسطيني، وكم كنت أتعلم من هذه العقلية الجبارة التي كنت أرى فيها الفيلسوف الفرنسي (جان بول سارتر) وكنت ألاحظ اهتمامه الشديد وهو يستمع لي كامرأة تعاني من قهر المجتمع ومفاهيمه الخاطئة، وكنت أحدثه عن تجاربي وعما مررت به من خلال فصول كتابي (بيتي سجني)، وكنت أركز على أني ضحية من ضحايا المجتمع بصورة مزدوجة، الاحتلال من جهة، والمجتمع الشرقي التقليدي من جهة أخرى، فكان يحاول أن يبث الثقة في نفسي ويقول لي:

- إنكِ سيدة رائدة يجب أن تواصل رسالتها، وان المجتمع هو الضحية، ولذلك يجب أن تكفي عن النظر إلى نفسك كشهيدة أو كضحية بريئة مفترى عليها، أنت قوية بمبادئك، وثقافتك وقدرتك على المواجهة، وفي هذا الإطار تؤدين رسالة نحو نفسك ونحو وطنك بل ونحو الإنسانية.

وعندما ألّف أبو مازن كتابه عن الصهيونية

أذكر أنني قدمت إليه كتاب الرئيس محمود عباس (أبو مازن) عن الصهيونية، الذي كان قد أهداه إليه بنفسه، فاستقبله باهتمام شديد لأنه كان يسعده دائما كل ما يضيف إلى معارفه وثقافته عن القضية

الفلسطينية، وبصدق أقول إنه كان معجبا بشخصية أبو مازن عبر كتاباته ومؤلفاته التي كان على اطلاع تام بها كما كان معجبا بشخصية الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد).

وكان حبه للثقافة حبا عميقا، وكان مشغوفا وعاشقا بكل ما يتعلق بالمعارف والمعلومات الثقافية والتاريخية والاجتماعية عن القضية الفلسطينية، وعندما كنت أشرح له ذات يوم عن المعاناة التي يلقاها الشعب الفلسطيني من قبل الاحتلال، وذلك عشية إطلاق سراحي من الإقامة الجبرية التي فرضت عليّ، وكان ذلك بحضور الصحفي المقدسي المعروف نبيل خوري الذي قال:

- ريموندا كفى إنكم شعب مأساوي. وهنا انبرى هشام شرابي له وقال لا يجوز مثل هذا الرأي، لان هذه المأساة، وهذه المعاناة التي يلقاها شعبنا يجب أن تفجر فينا طاقات العمل البناء.

وفي خطوط النار على الجبهة اللبنانية

في عام 1977 اصطحبنا الصديق ماجد أبو شرار، أنا والدكتور هشام شرابي في جولة لتفقد خطوط المقاتلين الفلسطينيين عبر الحدود اللبنانية، كنا في ذروة الانفعال والحماس، ونحن ننتقل بين الدشم، وخطوط القتال ومواقع الفدائيين، وعلى بعد مئات الأمتار منا يوجه العدو نيران أسلحته ودباباته ورشاشاته نحونا، وكان برفقتنا القائد العسكري الفذ عبد المعطي السبعاوي.

وفي إحدى الدشم دار حوار بين أحد المقاتلين وبين هشام شرابي، وقد احتد الشاب المقاتل بصورة عصبية وهو يقول لنا مخاطبا هشام شرابي:

- انتم مرفهون، تلبسون البدل الأنيقة، وتتعطرون وتعيشون حياة مستريحة، أما نحن فإننا نقاتل هنا، نعيش وسط الرصاص والنار والدمار والموت، نحن نحارب من أجل فلسطين وأنتم تتنزهون.

وقد تأثر هشام شرابي من موقف هذا الشاب، ولم يعلق بكلمة واحدة، ولكن عبد المعطي السبعاوي انبرى للرد على الشاب بحلم وسعة صدر وابتسامة ودودة قائلا:

- إنهم يقاتلون مثلك يا أخي، ولو لم يكونوا مقاتلين لما حرصوا على أن يأتوا إلى خطوط النار، إنهم يقاتلون بسلاح الفكر والرأي والكلمة وفي ميدان لا يقل شراسة عن ميدان المعركة.

واستطرد عبد المعطي السبعاوي: أنت تقاتل بالرصاصة، وهم يقاتلون بالكلمة، وتذكر دائما أنه في البدء كانت الكلمة.

وهنا تمالك هشام شرابي نفسه وقال مخاطبا الشاب: أنتم الأمل، أنتم الذين دافعتم عنا والتاريخ يشهد أنه لولا الكفاح المسلح، لما استطاعت الثورة الفلسطينية أن ترفع رأسها. أنتم الكبرياء والعزة والكرامة.

كان واحداً من جيل العمالقة

وفي الحقيقة فان مسيرة حياة الدكتور هشام شرابي تستحق التأمل والدراسة، وتعد في مجملها باقة ورد على العبقرية الفلسطينية، وعلما على النبوغ والانتماء والقدرة على النجاح والتفوق رغم الصخور والأشواك. ولد هشام شرابي في يافا في 4 ابريل/نيسان عام 1927 وترعرع في عكا، ودرس في مدارس بيروت المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية، ثم الجامعة الأمريكية في بيروت حيث حصل على بكالوريوس في

الفلسفة عام 1947. كما حصل على الماجستير في نفس الجامعة في عام 1949 ثم حصل على درجة الدكتوراة في التاريخ من جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد نشط سياسيا في أواخر الأربعينيات، فقد انخرط في صفوف الحزب القومي الاجتماعي السوري، بقيادة انطون سعادة، وكان مسؤولا عن تحرير مجلة الحزب التي تحمل اسم "الجيل الجديد"، ثم ترك لبنان بعد اعتقال وإعدام سعادة مؤسس الحزب. فقد هرب إلى الأردن ومن ثم إلى أمريكا وانتهت علاقاته مع الحزب الاجتماعي في عام 1955. وكان في حالة ألم شديد على فقدان هذا الرائد المفكر الذي وثق به وتلقى على يديه مبادئ وأفكار قوية ووطنية شجاعة.

وحتى عام 1967 كان هشام شرابي يعيش في سنوات "الصمت" كما كان يسميها وكرس كل حياته للعمل في مركز التخطيط الفلسطيني في المنفى وبعدها أنتج بغزارة العديد من الكتب الهامة التي طبعت في بيروت.

أستاذاً في جورج تاون

وخلال إقامته الطويلة لما يقارب أكثر من نصف قرن في أمريكا أنتج الدكتور هشام شرابي الكثير من الكتب وكتب العشرات من المقالات وتّرس كأستاذ للتاريخ الأوروبي في جامعة جورج تاون، وكان من مؤسسي مجلة "الدراسات الفلسطينية". وهو مؤسس صندوق القدس ومؤسس لمركز تحليل الدراسات الفلسطينية. وتقديرا لجهوده وإسهاماته نُظم مؤتمر عالمي عام 2002 تكريما له، وأنشئت جائزة سنوية تحمل اسم "جائزة هشام شرابي".

ويعتبر شرابي مفكرا على المستوى العربي والعالمي. فقد اهتم بقضايا فكرية أخرى غير القضية الفلسطينية. وقد مزج بين الثقافتين الغربية والشرقية، وكان يحمل نفس الرسالة والملامح التي يقوم بها الدكتور ادوارد سعيد.

وهو يصنف بأنه مفكر شمولي متعدد الاتجاهات، ومن أجمل كتبه كتاب بعنوان "سبعة أيام في فلسطين" وكان شرابي مؤمنا بضرورة حدوث الثورة الاجتماعية من خلال تجربته، كما هو الحال بالنسبة لادوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد ووليد الخالدي، فقد كانوا أول مجموعة فلسطينية تدخل البيت الأبيض وتحاور شولتز وزير الخارجية، وبذلك بتنسيق من الرئيس الراحل ياسر عرفات، وقد شكل هؤلاء الأربعة من كبار المثقفين والدارسين الفلسطينيين رؤية فلسطينية وطنية متقدمة تعتمد على فهم حقائق التاريخ ومفاهيم العقلية الأمريكية والحضارة الغربية.

وأذكر أني نظمت اجتماعا بين ماجد أبو شرار باعتباره من قيادات منظمة التحرير وكممثل لليسار الفلسطيني وفاروق القدومي حيث اجتمعوا بهشام شرابي على أن اليسار الفلسطيني كان لا يثق بهؤلاء الأساتذة الذين نبغوا على الأرض الأمريكية معتقدين أنهم سيعملون على (بيعنا) الأفكار الأمريكية.

وفي الحقيقة فان هذه المجموعة تمثل منظمة التحرير الفلسطينية حيث كانوا جميعا أعضاء في المجلس الوطني الفلسطيني وفي الواقع فان هؤلاء الأساتذة الجامعيين لو ظلوا في الصورة وبقيت في أيديهم صلاحيات الحديث عن شؤون وشجون القضية الفلسطينية فاني أرى بأنهم كانوا قادرين على تحقيق الكثير للقضية الفلسطينية بما يفوق اتفاقيات أوسلو بمراحل. وكان هشام شرابي يدعو دائما لتعلم أكثر من لغة لأحداث تصورات ومفاهيم جديدة عن الذات وعن الآخر.

ويرى هشام شرابي أن بنية العائلة العربية، والإرث الاستعماري، والتخلف بمثابة العوائق الأساسية في حياتنا، وبالمقارنة نجد أن اليابان أعادت امتلاك التكنولوجيا الغربية وتقدمت في حين غرق العالم العربي في محاولاته الفاشلة للبحث عن العصرنة، كما اصطدم الفكر القومي العربي بالولاء العائلي.

كما وضح هشام شرابي أن الأنظمة العربية تستمد شرعيتها من العائلة وكونها امتدادا للنظام الأبوي، حيث يتخذ الحاكم لنفسه صورة الأب، ويمنح الشعب صورة الأبناء، ويصف شرابي هذه العلاقة بعلاقة أبوية ترتكز على التسلط والسيطرة.

تأملات في الاضطهاد

ويرى هشام شرابي أن الدين قد استخدم من قبل الطبقات الحاكمة العربية لصالح أنظمة الحكم وساهم ذلك في تهيئة الأرضيات الخصبة لتغذية الإيديولوجيات الدينية المحافظة كأدوات لترسيخ شرعية هذه الأنظمة. ولشرابي مقولة مشهورة تقول: "بأن للاضطهاد في المجتمع العربي ثلاثة أنواع وهي اضطهاد الفقر، واضطهاد الطفل، واضطهاد المرأة".

وحتى هذه اللحظة فان الدراسات والأفكار التي طرحها هشام شرابي لا زالت تستقطب الفكر العربي، والدعاوي المختلفة التي لا زالت تشد الانتباه وتركز على العقل العربي، وهذه المشاريع الفكرية في مجملها تسعى إلى رفع كيان المجتمع العربي وتطويره، رغم أن النهضة فشلت في تحقيق مجمل أهدافها ولم تستطع إقامة نظام عربي ديمقراطي صحيح وفشلت في ذلك فشلا ذريعا وخصوصا في تحرير المرأة.

ومن الخطأ أن يكرس الإعلام الرسمي أو المسؤولين الأضواء على شاعر معين، أو كاتب معين، وإنزاله منزلة كبيرة تطغى على المبدعين الآخرين، فللحقيقة أن كتاب هشام شرابي "الجمر والرماد" جدير بأن يقرأه طلاب المدارس الثانوية ولو كان هناك إنصاف لفعلت وزارة التربية والتعليم ما تفعله الوزارات المختلفة في مصر عندما تقرر طبع كتب العقاد مثل "عبقرية عمر" أو "عبقرية خالد" وتفرضها في المناهج الدراسية، ولذلك تطبع من هذه الكتب مئات الآلاف من النسخ وتظل موضع تداول، ودراسة. وكتاب "الجمر والرماد" يستحق فعلا هذه المكانة فهو يمتاز بالبساطة والعمق والجرأة والمنهج العلمي ويتعرض لعشرات القضايا الملحة التي تواجه المجتمع الفلسطيني.

مؤلفاته وآثاره

ساهم هشام شرابي في إنشاء عدد من المؤسسات التي تُعنى بشؤون الوطن العربي والقضية الفلسطينية، منها مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون، ومركز التحليلات السياسية حول فلسطين في واشنطن، وصندوق القدس الذي هو منظمة فلسطينية تقدم منحًا دراسية للطلاب الفلسطينيين.

وله العديد من المؤلفات، منها:

- مقدمات لدراسة المجتمع العربي (1975) تناول فيه: سلوكنا الاجتماعيّ، وبنية العائلة في المجتمع العربيّ، الاتِكاليَّة، العجز، التَّهرُّب، الوعي والتَّغيير، الإنسان العربيّ والتَّحدِّي الحضاريّ، المثقَّف العربيّ والمستقبل. وهذا الكتاب في الواقع من أهم خمسين كتابا صدرت في العالم العربي وهو يستمد قيمته من منهجه ومحتوياته ويعرف هشام شرابي في كل المحافل الدولية والعالمية بهذا الكتاب القيم.
- المثقفون العرب والغرب (1981) تُرجم إلى العربية أثناء وجوده في بيروت.

- النظام الأبوي (1988).
- النقد الحضاري للمجتمع العربي (1991).
- الرّحلة الأخيرة.
- الجمر والرّماد. والذي نشر مسلسلا في جريدة "الشعب" المقدسية.

أستاذ وجيل من الجامعيين

إن عظمة فكر ومنهج هشام شرابي لا يوازيه إلا عظمته الإنسانية، فعندما أدرك أن طلاب فلسطين في أراضي 1948 يعانون من الحاجة والفقر وأنهم لا يستطيعون بصورة من الصور إتمام دراساتهم الجامعية شعر بمدى الظلم الواقع على أبناء وطنه، ومن هنا أنشأ صندوقا ليكرسه للإنفاق على الطلاب الجامعيين واستعان بالدكتور شكري العبد من قرية البعنة لتعليم الطلاب الجامعيين من أهلنا في أراضي الـ 48.

كما أن هذه المنح كانت تكرس للإنفاق على الطلاب العرب الذين يدرسون في الجامعات العبرية نفسها، وإني أقول بكل حياد وشفافية إن هذا الإنسان لم يكن يعمل شيئا لنفسه وإن سعادته الحقيقية كانت في أن يتبنى جيلا كاملا من المثقفين الأكاديميين الدارسين الذين وضعتهم الظروف تحت رحمة العنصرية والقهر وضيق الأفق التي تمثلها الجهات المتنفذة في إسرائيل.

أستاذاً لبيل كلينتون

وما أعرفه أن الدكتور هشام شرابي كان أستاذا للرئيس الأمريكي بيل كلينتون عندما كان طالبا في جامعة جورج تاون، وعندما تخرج كلينتون ووصل إلى سدة الحكم في البيت الأبيض لفترتين متعاقبتين من الرئاسة وجه الأستاذ نقدا مريرا لتلميذه وقال له: لقد فشلت كطالب في معرفة حقائق التاريخ، فكأنك لم تتعلم شيئا، لأنك لم تتعامل مع حقائق التاريخ بأمانة ونزاهة وموضوعية.

وهذه صفة من أهم صفات الدكتور هشام شرابي المواجهة والصراحة، لان ما يقصده أن كلينتون لم ينصف الفلسطينيين، ولم يحاول مخلصا أن يقف في وجه المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، التي ألحقت بالشعب الفلسطيني أسوأ صورة للظلم والاضطهاد والقهر واغتصاب الحقوق والأرض.

وليس من السهل أن نقيم الدكتور الصديق هشام شرابي في هذه العجالة، ولكن يمكنني أن أتوقف عند البعد القومي الفلسطيني في سيرته النضالية الأكاديمية، فقد كان أبرز ما يميزه قراءته العميقة للتاريخ، ومحاولته فهم الأوضاع السياسية الراهنة في ضوء الحقائق التاريخية.

وكان يترأس مجلة "دراسات فلسطينية"، كما كان يشتغل على كتاب بعنوان "سبعة أيام في فلسطين" يروي فيه رحلته إلى فلسطين وعودته إلى يافا وعكا بعد أن تركهما منذ خمسين عاما تقريبا.

كما ركز على تفعيل دور الإعلاميين والمثقفين وتعزيز علاقاتهم بالحركات الاجتماعية المهتمة بحقوق الإنسان، والبيئة وذلك بهدف خلق شبكة تواصل وتأمين كتلة تاريخية لم تولد بعد في العالم العربي، ولكني في الواقع أرفع رأسي عاليا كمواطنة فلسطينية بهذه الطاقة الجبارة للعلامة هشام شرابي الذي علّم الجامعات الأوروبية والأمريكية النهج العلمي الموضوعي لدراسة المجتمع وفهم حقائق ورسالة الإنسان.

في مرآة المفكرين

يرى كثير من الدارسين والمفكرين أن المكانة التي يستحقها هشام شرابي هي مكانة الرائد، فكتابه "دراسات في المجتمع العربي" يستحق أن يكون في طليعة الكتب التي تتناول مناهج البحث العلمي بحيث أصبح هشام شرابي يمثل ظاهرة حضارية وعلمية ومنهجية كما يقول ذلك الأستاذ المفكر محمود أمين العالم. وهو يرى أن تحرير المجتمع لا يمكن أن يتم إلا بتحرير المرأة، وهذه النظرة الإنسانية لا تنبع من رؤية عاطفية بل نتيجة بحث ودراسة علمية.

ويقوم منهج هشام شرابي على الصراحة والصدق إلى حد الصدام، وهو يرى في النظام الأبوي نظاما سلطويا عفنا يؤدي إلى السيطرة ويبرر الاحتلال والاستعمار ولا بد للخلاص من الاحتلال أن نبدأ من الأسرة أو العائلة وذلك بمحاربة النظام الأبوي السلطوي القمعي.

ويقول المفكر الأكاديمي توماس مان عن هشام شرابي أنه أحدث نهجا ميزّ يقوم على الشجاعة والمكاشفة، فهو دائما قادر على أن ينشر القلق والخلخلة في عقل الباحث والمتلقي، وهو قادر على أن يؤجج في عقلية طلابه نيران الحقيقة. إنه هاتكٌ محرق لكل خطاب عقائدي وأصولي أو علماني انعزالي، لقد أنضج أطروحاته في تحليل بنية النظام السياسي والاجتماعي العربي المتمثل في النظام الرأسي الأبوي. وكان حربا على الاستعمار الثقافي واستعمار الوعي متسلحا بالعقل والمحبة دائما وأبدا، لقد أقدم على نقد النظام الأبوي وتعريته إيديولوجيا وسياسيا من الداخل وهذا ما أكسبه مرونة نقدية تجلت في معظم نتاجه الفكري وهو ما ينسحب على كتابيه الأخيرين "الجمر والرماد" و "الرحلة الأخيرة" رغم ما في هذين الكتابين من حميمية.

لقد احتل هشام شرابي منصبا أكاديميا في أكبر جامعات أمريكا، عندما كانت مدينته الفلسطينية يافا تغتصب من طرف العدو، وبعد أن ترك أباه الروحي انطون سعادة الذي استشهد وفر إلى الأردن ومن ثم إلى أمريكا فإنه انطلق من نقد المجتمع الأبوي ليصل إلى تفكيك وتفتيت بنية الثقافة العربية من الداخل، ويشكل شرابي أهم الإضاءات في الفكر الذي أنار العالم العربي من النواحي الاجتماعية والميدانية.

ويقول عبد العزيز بومسهولي: إن الإرادة المتفهمة للتاريخ والقادرة على التربث في ظل التاريخ قادرة على تفهم حتمية التاريخ والفوز بالحرية التي يصبغها هذا التفهم. هذه المقولة للعلامة هشام شرابي.

ويضيف هذا الباحث إن أهمية المفكر العربي هشام شرابي تتمثل في كونه من أبرز مفكري المرحلة العربية الراهنة الذين أسهموا في التأسيس لأرضية فكرية ينبني عليها نقد جديد للمجتمع العربي يقوم على إستراتيجية مزدوجة تروم الانفلات من القبضة الدينية من جهة وقيود المجتمع من جهة أخرى.

إن إستراتيجية هشام شرابي النقدية تضع ضمن أولوياتها التاريخية استرداد الحرية واستعادة الإنسان لقواه التي غيبتها إرادة وصية أضحت بفعل الاجترار التاريخي تمارس الحجر على الإنسان العربي ومن ثم تحول دون انبثاق مجتمع متحرر يلتحم بالحياة.

رؤى وأفكار حول السيرة الذاتية

ومهما حاولت أن استنطق تاريخ حياة هشام شرابي، ومهما حاولت استرجاع ذكرياتي عنه، فإن أفضل ما أقوم به في هذا المجال أن استعرض فقرات من سيرة حياته كما تحدث عنها بنفسه (في صور الماضي

سيرته الذاتية) يتناول شرابي سيرة الحياة وسيرة المثقف والكاتب كما سيرة السياسي ولكن ليس على وتيرة واحدة وإنما تتداخل الكتابة مع الفن الروائي الموضوعي كما تتداخل في الأزمنة لتلغي الأمكنة كذلك حيث الحديث عن سوريا ولبنان وفلسطين وأمريكا، وبانفتاح السيرة على أزمنة متداخلة وأمكنة كذلك تتباين العلاقات فيما بين الكاتب ورجالات التعليم والثقافة والفكر بالإضافة إلى الأسرة التي أسهمت في تربية وتكوين هشام شرابي.

على أن تفاوت الرؤية إلى الحياة يطبع مسيرة كل إنسان وبالأخص إذا كان مبدعا يمتاز بالرؤية الفنية الجمالية، وبالتصور الفكري لمجريات الواقع. فهشام لم يكن يهمه من حياته الكسب أو الوصول وإنما استهدف مصلحة المجتمع وهو ما لم يكن متوفرا في جمهرة من المبدعين والسياسيين.

يقول هشام:

لم يخطر ببالي يوما أن أكرس حياتي للربح الخاص، أو أن أضع مصلحتي الشخصية هدفا أعلى في الحياة وهذا يخالف كثيرا من الكُتّاب في عصري ولا أقول ذلك تبجّحا بل لأصف الحياة التي عاشها الكثيرون من أفراد جيلي الذين التحقوا بالأحزاب والحركات السياسية في جميع أنحاء العالم العربي في الأربعينيات والخمسينيات.

وفي عبارة مؤثرة خاطب هشام شرابي الأديب الناقد أدونيس قائلا:

"لا تخيفني الشيخوخة يا أدونيس. أتوقعها كما أتوقع سفرا إلى بلد بعيد لا أعرفه".

إن الحياة والمرض بمثابة دعوة للتفكير المستقبلي في القادم، وأنا أسائل نفسي كيف سأحيا بقية عمري.

ويضيف:

لقد عشت حياتي في شطرها الأكبر خارج الوطن الأصل، حيث الولادة إذ يعتبر المنفى ذاته صورة من صور المرض الذي يتضاعف بأنماط الاحتلال والإهانة والقتل والتعذيب، فإلى أين يحتمي الكائن إذا ما انتهى إلى التقاعد وهو في غربته لا حق له في وطنه إلا بما يتوافق والشروط القانونية.

لو أني قررت التقاعد في نهاية هذه السنة فما الذي سأفعله في أوقات فراغي، هل أعود إلى الوطن! أين وطني الآن؟ الضفة الغربية أدخلها بجواز سفر أمريكي، أم لبنان حيث يسمح لي بالإقامة لمدة ثلاثة أشهر فقط، إني في المنفى، لكن هذا المنفى هو بيتي وعملي.

وداعاً هشام شرابي

رحل هشام شرابي عن عالمنا يوم 13 يناير/كانون الثاني عام 2005. وكان يومها يقيم في بيروت. وفي معرض ذكرياته عن العلامة هشام شرابي يقول أحد تلاميذه زياد أبو عمرو: تعرفت على هشام شرابي لأول مرة عام 1978، عندما ذهبت للدراسة في جامعة جورج تاون بالعاصمة الأمريكية واشنطن، حيث كان شرابي يعمل أستاذا للفكر الأوروبي المعاصر فيها، كما كان أحد أساتذتي في مرحلة الدراسات العليا وأحد المشرفين على أطروحتي لنيل شهادة الدكتوراه، قبل أن نصبح صديقين نتقابل بشكل منتظم في الجامعة وخارجها، وكم كنت فخورا بهذا المفكر والأكاديمي الفلسطيني الذي نال بشخصه وعلمه وثقافته الواسعة احترام كل من عرفه.

أخي هشام..

منذ رحيلك وحتى هذه اللحظة وأنا أستحضر طيفك عندما يكون عليّ أن أواجه صداما فكريا أو إعلاميا أو سياسيا، أستمد منك الموضوعية والشجاعة والنهج العلمي والأسلوب التجريدي القائم على الحقائق. فإذا توصلت إلى الحقيقة لم أتردد لحظة في إعلانها، هذه سمات شجاعة أدبية وفكرية تعلمتها منك وتتلمذت عليها كما تتلمذ عليها جيل من الباحثين والدارسين.

وتمر في خاطري الذكريات.. فقد كنت مرتبطا بعكا المدينة التي ولدت فيها، كما أنك مرتبط بمدينة يافا التي عاش فيها زوجي داود طويل. ثم درست في بيروت التي لي فيها ذكريات وحياة ونضال. كما التقيتك في واشنطن وبذلك اكتملت مجموعة هذه الأمكنة لتشكل ألبوما من الذكريات الرائعة لشخصية عالمية وباحث يشهد له العالم كله بالنبوغ والعبقرية، وتفخر فلسطين بأنه أحد أبنائها الإبرار.

وتمر في خاطري الذكريات...

وأراك في الخط الأمامي في موقع المقاتلين الفلسطينيين وأستعيد تلك المناقشة التي حدثت بينك وبين ذلك المقاتل الفلسطيني وأسترجع ردود فعلك وأنت تتقبل انتقاداته العصبية ولغته المنفعلة ولكنك صامت واسع الصدر حليم تقدر في قرارة نفسك نبل هذا المقاتل الشاب الذي يعرض حياته للموت.

وأسترجع ما قاله الشهيد عبد المعطي السبعاوي من أن النضال الحقيقي لا يعتمد فقط على المواجهة بالبندقية والرصاصة، فالفكر والإعلام والأسلوب الحضاري والمنهج العلمي كلها مواقع يقاتل فيها الشعب الفلسطيني دفاعا عن عروبته وأرضه.

وتأخذني الذكريات إلى سلسلة المحاضرات التي كنت ألقيها في الجامعات الأمريكية والمنتديات عام 1977 فقد كنت خير معين وموجه لي في هذه المحاضرات، وكنت أستنير بفكرك ورؤياك في كثير من القضايا الاجتماعية والسياسية التي كنت أتصدى لإلقاء المحاضرات حولها.

وتأخذني الذكريات إلى رحلتك الأخيرة إلى مدينة عكا حيث منزل جدك وحيث كنت تسترجع ذكريات الصبا والشباب وكنت تتجول في أنحاء مدينة عكا مارًا بالأسواق ومسجد الجزار والشاطئ، كما كنت تتواصل وجدانيا إلى درجة أن الدموع كانت تتحير في مآقيك وأنت تستعيد ذكريات هذا الوطن الذي اغتصبوه وحرموك منه.

لقد كتبت كثيرا من المقالات وألفت العديد من الكتب، وألقيت عشرات المحاضرات وأقول صادقة إنني كنت دائما أستنير بمنهاجك القائم على الصراحة والصدق إلى حد الصدام خاصة وإني كنت أجابه كثيرين ممن يملكون القوة والسطوة والسيطرة على مفردات الإعلام أو على الساحة السياسية أو الثقافية.

إن هؤلاء لا يجدي معهم إلا أن تكون قويا، صادقا، مقنعا، ولن يتم ذلك إلا إذا تسلحت بالمنهاج والاستقراء وقراءة التاريخ والأحداث بوعي وفكر ومنطق عظيم ومقدرة فائقة على الإقناع والعرض والاستنتاج ضمن منهاج علمي لا يستطيع أحد أن يخطئه كمنهاج وأسلوب الدكتور هشام شرابي.

(2013/1/18)

وليد الخالدي

فضح الراوية العربية الصهيونية الملفقة عن حرب 48
وكشف الحقائق كشاهد وكمؤرخ وعالم.
نشأ في أحضان النبوغ والريادة فكان صنوا لوالده عبقرية فكرية
ونابغة علم ومؤرخاً راهباً في حقل القضية الفلسطينية.
الأب والابن والزوجة، ثلاثة أعلام من أسرة الخالدي، نبغت في ميدان الفكر
والبحث العلمي وسجلت بحروف من نور ثلاثة نماذج للعبقرية الفلسطينية.
وجد والده منارة وريادة وأستاذية فسار على دربه وتفوق وعادله في ميزان النبوغ
فأنت لا تعرف أيّ الكفتين أرجح!

الحقيقة التي أود أن نتوقف أمامها قبل أن نخوض في حياة هذه الشخصية الفلسطينية الرائدة، أننا كثيرا ما ننساق وراء بعض الأسماء ونسقط عليها كل الأضواء، وبذلك نتجاوز كثيرا من الأسماء الحقيقية الجديرة بكل اهتمام، فهناك العديد من الشعراء والأدباء والكُتّاب والمفكرين العباقرة والأكاديميين تطويهم مظاهر الإهمال والتهميش لصالح بعض الأسماء أو لصالح قلة من الأسماء، ويحضرني في هذه اللحظة أن إدوارد سعيد يأخذ كل الأضواء والدعاية والإعلام كدارس وكعالم فلسطيني، مع حبي وإعزازي له. في حين أن وليد الخالدي وهشام شرابي وإبراهيم أبو اللغد، وتيسير العاروري وغيرهم الكثير وربما تجاوزت أعدادهم المئات في أستراليا وكندا والأمريكتين والخليج وجامعات فرنسا وبريطانيا وفي كل أنحاء العالم، كل هؤلاء لا يجب أن نسقطهم من حسابنا ونحن نعرض لإعلام فلسطين. فليس ادوارد سعيد هو المفكر الوحيد وليس محمود درويش مع حبي له وهو الشاعر الأوحد. هناك المئات من الأكاديميين الفلسطينيين الذين راحوا ضحية التهميش والإهمال.

أحمد سامح الخالدي، ووليد الخالدي، و"عنبرة سلام"، ثلاثة أسماء لامعة في التاريخ الفلسطيني المعاصر، ثلاثة أعلام سجلت صفحات مضيئة في حضارة الشعب الفلسطيني وحضوره، وكفاحه، لو ظهرت في تاريخ أو مسيرة أي أمة، لجعلت من هذه الأسماء، منارة فكر وحضارة، وأمثولة، وقدوة، للأجيال ومصدر إشعاع فكري وحضاري وثقافي يملأ الأفق العربي، بل والعالمي إشعاعا ونبوغا وعلما وأدبا وحضورا.

هذه الأسماء الثلاثة تشكل أسرة واحدة، الأب أحمد سامح الخالدي، المربي العظيم والأستاذ الكبير الذي أرسى بفكره وعلمه المناهج الفلسطينية المعاصرة، فهو أبو التربية الحديثة في فلسطين، وأحد كبار المربين في العصر الحديث. وقد ذكره الأديب اللبناني عجاج نويهض في كتابه القيم "رجال من فلسطين" فقال الخالدي "الأب" من الشوامخ فعلينا أن نصل إلى أرجاء ذهنه الوقاد "بالتأمل والبحث والدراسة والوقوف طويلا عند تراثه العظيم في التربية والمنهج العلمي والتفكير الموضوعي، فقد كان أداة عقلية متحررة ليس فيها ضباب ولا حولها ضباب.

هذا الأب النابغة الذي أنجب بفكره وأسلوبه أجيالا من الشباب الفلسطيني المثقف، كان أعظم إنجازاته أنه أنجب ابنه البكر وليد الخالدي راهب القضية الفلسطينية، المؤرخ البارز، والذي يُعد مرجعا في القضية الفلسطينية، ولد في مدينة القدس سنة 1925، وتخرج من جامعتي لندن وأكسفورد وعمل أستاذا في جامعة أكسفورد، كما عمل أستاذا في الجامعة الأمريكية في بيروت، وزميلا وباحثا متقدما في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفارد طوال الفترة من عام 1982 حتى 1996، وهو عضو منتخب في الأكاديمية الأمريكية للآداب والعلوم. كما أنه عضو مؤسس في مؤسسة الدراسات الفلسطينية وأمين سرها منذ تأسيسها سنة 1963.

كما أسس الخالدي مجلس أمناء أصدقاء المكتبة الخالدية في القدس، وكان أحد مؤسسي الجمعية الملكية العلمية في عمان، وجمعية التعاون الفلسطينية، وهو بالإضافة إلى كونه باحثا كبيراً في التاريخ الفلسطيني المعاصر يعتبر باني واحدة من أرقى مؤسسات البحث العلمي التي ظهرت في العالم العربي خلال الخمسين سنة المنصرمة، إنها مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وهو بالإضافة إلى ذلك أكاديمي صارم المنهج، ورجل فكر تفتحت على يديه مئات الدراسات، التي كان لها شأن مهم في صياغة وتحديد المفاهيم العلمية الدقيقة.

أما عنبرة سلام، فهي زوجة أحمد سامح الخالدي الثانية بعد وفاة زوجته الأولى "أم الوليد" ولدت في بيروت في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وهي تنتسب إلى أسرة سلام العريقة في لبنان فشقيقها هو الزعيم اللبناني المعروف صائب سلام الذي يعد من أشهر رؤساء الوزارة في لبنان طوال أكثر من ثلاثة عقود على مشارف الستينيات وما بعدها، وقد تزوج وليد فيما بعد من شقيقتها (رشا) وهي كاتبة وباحثة أدبية معروفة. وأذكر أنني قابلتها ذات يوم في بيتها في بوسطن عام 2000 وكانت تكتب مذكرات أسرتها وذكرياتها المتعلقة بشقيقتها ووالدها سليم وشقيقها صائب سلام الزعيم اللبناني، وأستطيع أن أؤكد أن هذه المذكرات تشكل مرجعا تاريخيا وأدبيا قيما لأنها شهادة تاريخية أدبية تأتي من أحد أفراد الأسرة وكشاهد على ما قامت به أسرتي سلام والخالدي. أما عنبرة فبدأت علومها عند "مشيخة" وتمكنت من ختم القرآن ثم التحقت بمدرسة "ماريوسف" في بيروت، ولكنها تابعت دراستها على يد المعلم عبد الله البستاني، وجوليا طعمة.

في عام 1929 تزوجت أحمد سامح الخالدي وانتقلت معه إلى مدينة القدس. وعندما وقعت النكبة انتقلت مع زوجها إلى بيروت.

من آثارها القلمية "جولة في ذكريات بين لبنان وفلسطين" وترجمة الإلياذة والأوديسة لـ هوميروس، والانياذة لـ فرجيل.

يقول عنها أدهم جندي في كتابه "أعلام الأدب والفن" السيدة عنبرة سليم علي سلاّم زعيمة النهضة الأدبية في نساء الإسلام، كانت مبدعة في الثقافة والعروبة سافرة ومحجبة.

عملت في الجمعيات الخيرية والاجتماعية وترأست نادي الفتيات المسلمات، الذي كان أول نادٍ إسلامي حيث تنتظم حلقات دراسية يحضرها الأدباء والأديبات، سافرت إلى بريطانيا وأمضت في لندن سنتين لدراسة اللغة الانجليزية، وعندما تزوجت أحمد سامح الخالدي انتقلت بزواجها إلى محيط علمي ثقافي اتسعت فيه مداركها وزادت معارفها وساهمت في كتابة العديد من المقالات والمحاضرات، ولما أنشئت دار الإذاعة في القدس سنة 1935 كانت أول سيدة تدعى لإلقاء حديث نسائي فيها.

وقد اشتغلت منذ أن كانت على مقاعد الدراسة في الجمعيات الخيرية والاجتماعية، وترأست نادي الفتيات المسلمات الذي كان أول ناد نسائي عربي، وكان يضم فريقا من أرقى فتيات بيروت، وكن يقمن فيه الحفلات، فيحضرها الرجال والنساء، ويحاضر فيها الأدباء والأديبات، وألحقت بالنادي مدرسة لتعليم أبناء وبنات العائلات التي قسا عليها الدهر، وكانت تتكفل بإطعامهم والقيام على تأمين راحتهم.

وكانت تتعاون مع زوجها في شتى الميادين العلمية والاجتماعية والخيرية، وتقوم بدعايات وطنية متواصلة، وكان بيتها منتدى تأمّه الطبقات المثقفة من مختلف الأقطار، ولم يكن يمر في القدس أي علم من علماء أجانب أو عرب ألا ويدعون إلى بيتها لإعطائهم المعلومات الصادقة عن فلسطين ويقابلون بالحفاوة والتكريم.

ويذكر الدكتور عبد الرحمن ياغي أنها قامت بترجمات عن اللغة الانجليزية، وأنها كانت تنشر في "الكشاف" سلسلة مقالات مترجمة بعنوان "كيف أنظر إلى الحياة".

* * *

هذه العبقريات الثلاث نشأت وترعرعت وأبدعت في ربوع القدس وبيروت.. وغردت على أفنان الإبداع الفكري والعلمي، بأصالة واقتدار، ولا شك أن روح الأب كانت هي الشرارة التي أطلقت جذوة العبقرية لدى وليد، ولدى زوجته رشا، ولكي نكون منصفين يجب أن نضع نتاج هذه الأسرة وعطائها في ظل الفترة الزمنية التي نبغت فيها في سنوات ما قبيل النكبة وبعدها بعقدين أو ثلاثة عقود من الزمان.

بانوراما عبقرية رائدة

ولد وليد احمد سامح الخالدي في مدينة القدس الشريف عام 1925، والده هو الأديب المربي أحمد سامح الخالدي، وقد درس المرحلة الابتدائية والثانوية في مدرسة المطران في القدس، وكان من زملاء المحامي اللامع الصديق فؤاد شحادة، وقد أنهى دراسته الجامعية الأولى في جامعة لندن، حيث حصل على شهادة البكالوريوس في الفلسفة عام 1945، كما حصل على شهادة الماجستير في جامعة أكسفورد عام 1951.

ساهم في تأسيس "المكتب العربي" في القدس ولندن مع موسى العلمي، وبالتنسيق مع جامعة الدول العربية في أواخر الأربعينيات.

درَّس الفلسفة الإسلامية في جامعة أكسفورد لمدة خمس سنوات من 1951 حتى 1956، وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 استقال احتجاجا على هذا العدوان، وذهب إلى بيروت للالتحاق

بالجامعة الأمريكية، وظل يدرس فيها حتى عام 1982، وكان يعمل في فترات متقطعة كأستاذ زائر في جامعتي "برنستون" و "هارفارد".

وفي عام 1963 كان أحد المساهمين في إنشاء مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت. وفي هزيمة حزيران عام 1967 عمل مستشارا للوفد العراقي في الأمم المتحدة. وفي عام 1976 تعاقد مع جامعة هارفارد وشغل كرسي البحث الرئيس في مركز دراسات الشرق الأوسط في الجامعة.

وفي عام 1982 ساهم في تأسيس الجمعية العلمية الملكية في عمان، ومركز الدراسات العربية في بيروت.

وقد مثل فلسطين في وفد جامعة الدول العربية برئاسة الملك حسين، الذي اجتمع مع رئيس الوزراء البريطانية تاتشر بلندن في شهر آذار/ مارس عام 1983 للتأكيد على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

وفي مدريد عام 1991 كان عضوا في الوفد الفلسطيني- الأردني المشترك في مباحثات السلام للشرق الأوسط، كما شارك في مباحثات السلام التي عقدت في واشنطن العاصمة.

والأستاذ وليد الخالدي زميل في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، وقد حصل على جائزة منظمة الجامعة العربية التربوية والثقافية والعلمية للتميز في الانجاز الثقافي في العالم العربي عام 2002.

راهب القضية الفلسطينية

وليد الخالدي من أبرز المؤرخين الفلسطينيين المعاصرين، وهو رجل استثنائي بكل المفاهيم حاز على أعظم الدرجات العلمية الأوروبية، وأفضل وأهم من علَّم قضية القدس، وأثار بفكره ورؤاه كل ما يتصل بها، كما أسهم بقلمه ومؤلفاته في كل القضايا العربية الأخرى، وكتب ونشر العديد من المؤلفات التي تعمق الإحساس والانتماء الوطني، كما دافع عن القدس في أصعب الأوقات.

وقد حملها في صدره باعتبارها أقدس المدن، كما لو كانت قلبه النابض، وليس ثمة شيء آخر يخفق في صدره غيرها، لا فرح ليس فرحها، ولا معاناة ليست معاناتها.

كان يتميز بـ"العقل العلمي"، أي القدرة على تصور استنتاجات، ومواقف إلزامية في شكل مطلق بوحي من تاريخ القضية العربية، ومن معرفته الوثيقة بالمثل التي كانت تلك القضية تمثلها ولم تزل.

مواقف ودلالات

وقد عمل وليد محاضرا في جامعة أكسفورد في موضوع الدراسات الشرقية، وكان قد مضى عليه خمس سنوات في هذا العمل، فلما وقع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 استقال احتجاجا على العدوان.

بعدها أصبح أستاذا للدراسات السياسية في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقضى عام 1961 باحثا في جامعة برنستون في دراسات الشرق الأوسط.

في عام 1963، ساعد في تأسيس "مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، وعين سكرتيرا شرفيا لها وكان عضو زمالة في جامعة هارفارد في مركز دراسات الشؤون الدولية عام 1976، ومن ثم عين عضوا في "الأكاديمية الأمريكية للآداب والعلوم".

الجائزة العربية الأولى

وقد كرمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "الكسو" عام 1996 في لندن، ومنحته جائزة التميز في الإنجازات الثقافية في العالم العربي، وهي الجائزة الأولى من نوعها التي تمنح لمؤسسة عربية.

وجاء في بيان منظمة "الكسو" أن الخالدي "كرس حياته العلمية للقضية الفلسطينية، بحثا وتدريسا وعملا ميدانيا على ارض الواقع، في المجالات الثقافية والسياسية والإعلامية، في أرض فلسطين، وفي الوطن العربي وفي العالم، فاتحا بتكامل فكره العلمي وعمله المنهجي آفاقا جديدة لتناول قضية فلسطين للأجيال المقبلة".

منارة فكرية وتاريخية

والأستاذ وليد الخالدي هو الذي أنشأ "مؤسسة الدراسات الفلسطينية" تلك التي تعد أهم مؤسسة للبحث والدراسة في قضية العرب الأولى، القضية الفلسطينية، وهي بالفعل منارة فكرية وعلمية وتاريخية تمثل أحد أهم تجسيدات العقلانية الفلسطينية والعربية بأصدق تجلياتها، وأعمق معانيها، بما قدمه عبر عقود من نتائج باللغة العربية واللغة الأجنبية ما أسهم في حفظ الذاكرة الفلسطينية وفي إبقاء فلسطين وقضيتها وشعبها حية في الوجدان العربي والضمير الإنساني العالمي.

ولم يتوقف وليد الخالدي عن الكفاح بعد تقاعده من جامعة هارفارد، فقد تواصل عمله، وظل يشرف على الشؤون اليومية لمؤسسة الدراسات الفلسطينية من بوسطن حيث كان يقيم بصفة مؤقتة، أو من بيروت التي كان يقيم فيها أحيانا.

وقد كرمته الجامعة الأمريكية في بيروت في احتفال رائع يليق بتاريخه، كما كرمت معه كلا من الفنان السوري دريد لحام، والصحافي الفرنسي اريك رولو.

ومن مؤلفاته الرائعة كتاب "من الجنة إلى الانتزاع" الذي صدر في بيروت عام 1971 وكتاب "ملكية موقع سفارة الولايات المتحدة في القدس" والذي قد صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية عام 2002، وكتاب "توقعات السلام في الشرق الأوسط" الذي صدر عن دار النهار عام 2002.

ومن الصعب أن تتبع سلسلة كتبه ومؤلفاته ومقالاته ولكننا نستطيع أن نقول إنه في كل مرحلة من مراحل عمله كان يثري وجوده ووجود القضية الفلسطينية وشعبها بالمؤلفات والأبحاث والدراسات والمقالات والمحاضرات. وسنعرض الآن لبعض منها:

نكبة عام 48 بين الأسطورة والواقع

كانت أبرز الروايات العربية "الأسطورية" عن حرب عام 1948، وأكثرها تداولا وتواترا إلى يومنا هذا، رواية تقول: إن القوى الصهيونية، كانت مجرد عصابات إرهابية أطبقت عليها الجيوش العربية في مرحلة القتال الأولى من كل صوب، فتوغلت في أعماق فلسطين، ووصلت طلائع الجيش المصري إلى ضواحي "تل أبيب" الجنوبية. كما وصلت طلائع الجيش العراقي قريبا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط، إلى الغرب من قلقيلية وطولكرم، كما وصلت طلائع الجيش العربي الأردني إلى ضواحي تل أبيب الشرقية.

ولم يبقَ سوى حفنة من أيام معدودة، لكي تسدد الضربة القاضية فيها إلى العدو ويحسم الأمر، وإذ بالضغوط الدولية تتراكم، وتتصاعد، وتصل إلى حد التهديد والوعيد، لمحاولة إنقاذ العدو، ولم يُترك سبيل

للحكومات العربية سوى الاستجابة لهذه الضغوط والرضوخ إليها. ولفرض الهدنة الأولى فرضا عليها بحيث ينتزع الكيان الصهيوني النجاة من فكيّ هزيمة لا مفر آخر له منها.

ويعلق الأستاذ وليد الخالدي على هذه الأوهام بقوله: بيد أن دنيا الأساطير شيء، ودنيا الواقع المرشيء آخر كليا.

ويسترسل المؤرخ العلامة قائلا: إن الواقع يخالف هذه الأسطورة الصهيونية، ذلك أن الكيان اليهودي في فلسطين عشية 15 أيار/ مايو عام 1948، لم يكن ذاك الوليد الرضيع الهش، وإنما كان مجتمعا عصريا غربيا متماسكا، ينبض بالقوة والحيوية، وقد مضى على تكوينه سبعة عقود، منذ بدء الاستيطان الصهيوني في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر، بفضل المنظمة الصهيونية العالمية، وتجذرت قواعده خلال ثلاثة عقود من الانتداب البريطاني، والحماية البريطانية، منذ نهاية الحرب الكونية الأولى، وكان قبل إعلانه كدولة ليلة 14 – 15 أيار/ مايو دولة بكل معنى الكلمة، لا ينقصها سوى التسمية، لها من أسباب القوة والمنعة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والدولية ما لم يكن لأي من الدول العربية المجاورة ولم تقتصر رعاية الكيان اليهودي على فلسطين، بل شملت كافة الجاليات اليهودية القادرة النشيطة في سائر أنحاء العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية.

كتاب "النكبة" والدراسات التاريخية

ويعتبر كتابه "النكبة" 1947- 1948 والصادر عن دار النشر الفرنسية "أكس صد" وهو عبارة عن الترجمة الفرنسية لمجموعة مقالات كتبها وليد الخالدي أصلا بالانجليزية تمتد على ثلاثة عقود، وتجتمع للمرة الأولى في كتاب.

وهذه المقالات تعتبر هي الأبرز في الإسهامات الأساسية والتأسيسية في إطلاق حقل الدراسات التاريخية لوقائع النكبة، خلال تلك الحقبة الزمنية الحاسمة، وتصوب الكثير من التزييف المتعمد، والتشويه الذي شاب حقائق طرد قرابة 800 ألف فلسطيني من مدنهم وبلداتهم وقراهم.

ومن هذه المقالات، لماذا غادر الفلسطينيون؟ وتنسف الخرافة الإسرائيلية الكلاسيكية التي تقول إن الزعماء العرب هم الذين حثوا الفلسطينيين على ترك قراهم. أما المقالة الثانية فتحت عنوان "سقوط حيفا" وهذه المقالة تضع هجوم وحدات الهاغاناة على حيفا في نيسان/ ابريل عام 1948 في السياق الصحيح، حيث يأتي هذا الهجوم منسجما مع خطة داليت، لإقامة دولة يهودية في فلسطين. والمقالة الثالثة حول ما قامت به القوات الصهيونية ضمن حرب منهجية شاملة استهدفت طرد الفلسطينيين، أما المقالة الرابعة فهي تتناول قرار التقسيم وتحلل عناصره، أما المقالة الخامسة فهي مناقشة المؤرخ الإسرائيلي "بيني موريس" كما ترد المقالة على الانتقادات التي أوردها هذا المؤرخ ردا على كتاب الخالدي "قبل شتاتهم، تاريخ فوتغرافي للفلسطينيين من 1876 - 1948". أما المقالة السادسة فهي وجهة النظر العربية في نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين، وفيها شرح وتحليل لوعد بلفور وثورة عام 1936.

ويقع هذا الكتاب في 264 صفحة من القطع المتوسط ويشكل مرجعا لا غنى عنه في مجال دراسات النكبة.

لكي لا ننسى

ومن أهم كتب وليد الخالدي كتابه الوثائقي الرائع الواقع في 846 صفحة من القطع الكبيرة وعنوانه لكي لا ننسى قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شهدائها.

وقد صدر هذا الكتاب عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت، ويتضمن الكتاب وصفا تفصيليا دقيقا لـ 418 قرية فلسطينية دمرتها إسرائيل عمدا وأجلت سكانها عنها، وفي الكتاب بيانات إحصائية، ولمحة تاريخية عن طبيعة الأرض والسكان، وتاريخ كل قرية ووصفا لحالتها الاقتصادية، ثم بين ظروف وقوعها تحت الاحتلال، ثم يذكر المستعمرات الاستيطانية التي أقيمت على ارض هذه القرى.

وهذا الجهد الجبار هو ثمرة تعاون بين جامعة بيرزيت، ومركز الجليل للأبحاث الاجتماعية في الداخل، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية في واشنطن، وساهم فيه أكثر من ثلاثين باحثا وقد افتتحه وليد الخالدي بهذه العبارة:

إلى كل الذين شُرّدوا من قراهم
فهاموا في الأرض
إلى ذرياتهم جميعا
كي لا ينسوا

غيض من فيض

حقق وليد الخالدي إنجازات رائعة في مجال البحث العلمي والتاريخي والأكاديمي طوال خمسين سنة من الكتابة والتأليف والبحث، فصار واحدا من ألمع الباحثين العرب، وأحد رواد البحث العلمي الفلسطيني، وواحدا من الذين صرفوا جلّ عمرهم في النضال السياسي والفكري في سبيل قضية وشعب فلسطين ولعل أبرز مؤلفاته:

- قبل الشتات، التاريخ المصور للشعب الفلسطيني وقد صدر عام 1984.
- كل ما تبقى، القرى الفلسطينية المدمرة عام 1992.
- خمسون عاما على تقسيم فلسطين عام 1997.
- الصهيونية في مئة عام وقد صدر عام 1997.
- خمسون عاما على حرب 1948 وقد صدر عام 1998.

ومن أهم مؤلفاته أيضا:

- الدفاع عن حيفا.
- وقضية فلسطين.
- مذكرات رشيد الحاج إبراهيم.
- آفاق السلام في الشرق الأوسط.
- عن تاريخ الصهيونية وقيام دولة إسرائيل.
- المكتبة الخالدية في القدس من 1720 - 2001.
- القدس من العهدة العمرية إلى كامب ديفيد الثانية.

- أرض السفارة الأمريكية في القدس.
- الملكية العربية والمأزق الأمريكي.
- دير ياسين الجمعة 19948/4/9.

دفاعا عن اللاجئين

وعندما كان وليد الخالدي يعمل محاضرا في الجامعة الأمريكية ببيروت، شهدت العاصمة اللبنانية ازهي فترات حياته من حيث الإنتاج الفكري والعلمي والسياسي، فقد ترقى من أستاذ مساعد إلى درجة الأستاذية، وكرس معظم أوقاته للقضية الفلسطينية، وبالتحديد لقضية اللاجئين ففند المزاعم الصهيونية التي تزعم أن اللاجئين غادروا بلادهم استجابة لنداء القادة العرب.

وفي هذا السياق كشف خطة "داليت" التي وضعها قادة الهاغاناة في سنة 1945 لاحتلال فلسطين وطرد أهلها منها.

وفي تلك الفترة تمكن وليد الخالدي من تحقيق مشروع لتوثيق الأحوال السياسية العربية، فنفذه.

وللإنصاف فإن الباحث العلامة وليد الخالدي قام بمجهود علمي وتاريخي وسياسي هام للقضية الفلسطينية وكان يقف بعلمه وأبحاثه ومنطقه إلى جانب الرئيس الراحل ياسر عرفات. وأذكر بصدق مواقفه الشجاعة الرائدة المدعمة بالحقائق والمنطق وهو يتصدى لكل من حاول أن يلقي غبارا على مسيرة الرئيس أو ينتقد توجهاته وسياسته .

وكان إدوارد سعيد أحد الذين هاجموا سياسة ياسر عرفات بشراسة وبأسلوب ناري وربما شخصي وكثيرا ما وقف إدوارد سعيد محاضرا ومترافعا ضد سياسة منظمة التحرير، في حين كان وليد الخالدي يتصدى لكل هذه الأصوات التي تعارض بصورة غير علمية وبصورة يختلط فيها الشخصي والذاتي بالموضوعي والوطني متفهما المتغيرات الدولية والموقف العالمي حريصا على صورة المنظمة ونقاء المقاومة باعتبارها حركة تحرير قومية لها أصداء عالمية.

وكان وليد واثقا من شجاعة الرئيس أبو عمار ومن بعد نظره ومن قدرته على الحكم على القضايا وكان يؤمن بأن الذي يقاتل في الخطوط الأمامية ويضع روحه على كفه وينتقل من معركة إلى معركة ومن مواجهة إلى مواجهة هذا القائد العظيم هو الأقدر على اتخاذ القرار السليم، وأكد الأستاذ وليد الخالدي في محاضرة هامة ألقاها في جامعة هارفارد بأن الأكاديميين لا يقررون التاريخ، واندفع بمنطق المؤرخ يشرح للطلاب أن مهاجمة الرئيس ليست من الوطنية في شيء وليست من الحقيقة في شيء وليست من التاريخ في شيء. كما أكد لطلاب الجامعة أن الاستشهاد بأقوال ومنطق إدوارد سعيد أمر باطل ينافي حقائق التاريخ وحقائق النضال الفلسطيني، وأذكر أن من بين الطلاب الذين استمعوا إلى هذه المحاضرة ابنتي الدكتورة هالة طويل. وأضاف وليد الخالدي إن القرارات الحاسمة وإدارة المعارك يحسمها القائد الذي يقاتل على خطوط النار ويواجه الموت والرصاص والغارات ولا تحسم القرارات الوطنية والسياسية من خلال الأكاديميين الجالسين في جامعاتهم يُنظرون، فلست أنا ولا إدوارد سعيد ولا غيرنا من الأكاديميين قادرين على حسم الأمور واتخاذ القرارات المصيرية التي تهم أرواح شعبنا وقضيتنا وأرضنا.

آن لنا آن نكسر تلك المقولة الظالمة "لا كرامة لنبي في قومه".. فعلينا كفلسطينيين أن نفيد من إنتاج وعبقرية الإعلام الفلسطينية التي ظهرت ولمعت في الجامعات الأوروبية والأمريكية وعادت إلى وطنها لتكون أصواتا نقية في الدفاع عن الحق الفلسطيني.

أخي الوليد..

الذين أطلقوا عليك لقب راهب القضية الفلسطينية لم يتجاوزوا الحقيقة.. فأنت كرست كل حياتك وكل طاقاتك وخبراتك من أجل الدفاع عن فلسطين.. حتى لم يعد سهلا على أي باحث أن يحصر إنتاجك الخصب الخطير المتواصل عبر محاضراتك وكتبك ومقالاتك.

ويسيطر على إنتاجك روح الباحث العلمي الدارس الأكاديمي المحكوم بالمنهج الجامعي الموضوعي الصارم القائم على عرض الحقائق ميدانيا وبصورة استقرائية.. لقد كنت مؤسسة ولم تكن فردا.. وبجهودك ومثابرتك استطعت أن تكون الحارس الأمين على الحق الفلسطيني طوال خمسة عقود أو أكثر.

المثابرة والجد وروح الأستاذية ومنهج الباحث الدارس هي الملامح الأساسية في إنتاجك الغزير.. فليس ما تقدمه.. قصيدة أو رواية أو خاطرة أو قصة أو مقالة عابرة.. وإنما هي دراسات تحتل مساحة واسعة في تاريخ القضية.. وتوثق بصورة حاسمة، لإبعاد الظلم الذي حل بأوطاننا لحساب مغتصب.. يزوِّر كل شيء ويعتدي على كل شيء.. ولعل حقائق التاريخ والمكان والزمان والجغرافية والتراث في أولويات ما يعتدى عليه ويدمر..

وإلى جانب المثابرة والجد والإنتاج الغزير، هناك شجاعتك.. وقوة إرادتك.. وعزيمتك.. فأنت تستقيل من أكسفورد.. من أرفع منصب علمي.. في عام 1956.. احتجاجا على العدوان الثلاثي الذي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل.

كنت واضحا وضوح الشمس.. فالذين يعتدون على وطنك وأرضك وأهلك.. يجب أن يفهموا أن هناك من يرفض ومن يقاوم.. ويُدين.. ويأخذ موقفا ويقول "لا"..

وستبقى مؤسسة الدراسات الفلسطينية.. من أهم المعالم الثقافية والفكرية في تاريخنا.. وستظل علما عليها، كما ستظل علما عليك..

إن الذين قالوا إن صراعنا مع العدو.. ليس صراع حدود وإنما هو صراع وجود كانوا يدركون أن حقائق التاريخ والبحث والتوثيق هي التي يمكن أن تساعد على حسم هذا الصراع.. فإذا كنت صاحب حق.. فانك يجب أن تثبت ذلك.. بالمنطق والتاريخ والصورة والكتاب والبحث والواقع..

إذا حاولوا.. اقتلاعك وإلغائك وشطبك فيجب أن تفشل مساعيهم، وأن ترد على تزويرهم وافترائهم بحقائق التاريخ ومنطق البحث والتوثيق العلمي المدعوم بالأدلة والبراهين.. وهذا ما فعلته طوال خمسين عاما.. فأرسيت منهجا وصنعت تراثا.. وأوجدت كتائب من الباحثين والدارسين والطلاب الذين أحبوا فلسطين وأحبوا الحقيقة ورفعوا لواء الحق.. وأنزلوك منزلة رفيعة تستحقها.. باحثا وأستاذا ورائدا.. علما على القدس، وعلما على فلسطين وعلما من أعلام الأحرار والباحثين. وبالفعل كنت ولا تزال ابن أبيك العلاّمة الرائد.. أحمد سامح الخالدي.

تواصل الأجيال

وكما تسلم وليد أحمد سامح الخالدي الراية من والده فمضى على درب والده مفكرا وكاتبا ومؤرخا من نوع نادر وكان محاضرا في أعرق الجامعات العالمية، فإن وليد قد أنجب ابنه (احمد سامح الخالدي) الذي

درس في جامعة أكسفورد وجامعة لندن ومن ثم أصبح محاضرا في جامعة أكسفورد وعضوا في الوفد الفلسطيني المفاوض في واشنطن كمستشار لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال تلك المفاوضات ما بين سنتي 1991 - 1993. وهكذا تكتمل أسطورة آل الخالدي الممثلة في ثلاثة أجيال حيث يسلم الراية الجد إلى الأب ويسلم الأب الراية إلى الابن. راجيا أن تلاحظوا أن الدكتور وليد سمى ابنه بطريقة مبتكرة فقد أصر على أن يكون اسمه أحمد سامح الخالدي إعزازا وتقديرا لوالده الرائد الراحل.

(2013/1/25)

أحمد رفيق عوض

تجرعت كؤوس الفقر حتى الثمالة، وبكيت في زوايا العتمة

وأنا أبحث عن كسرة خبز وكتاب ومأوى.

لا يهمني أن أكون وزيراً للثقافة، أريد حياة بسيطة في مكان منعزل

مع كثير من الأوراق البيضاء وأقلام الرصاص.

لست نبياً ولا ملاكاً ولكني لا أستحق كل هذه الكمية من العداء والظلم

التي واكبت حياتي.

أقول لمن ظلموني وحاربوني ما قاله كامل الشناوي:

"إنني أعاقب الذين يسيؤون إليَّ بأن أعفو عنهم".

أحمد رفيق عوض لقد عرفته عن قرب، وعمل معي في الإعلام كرئيس تحرير لجريدة "فلسطين" الأسبوعية التي أسستها بعد مجيء الرئيس إلى أرض الوطن، وكان ذلك في العام 2000، ولا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أقدم لهذا الأديب الكاتب النابغة كل الاحترام والتقدير، واقف إجلالا أمامه لقوة إرادته وعزيمته، وهو الذي فجر ألغاما في الوعي والوجدان العربي في كتاباته ورواياته.

أحمد رفيق عوض هو أسطورة، ومثال تحتذي به الأجيال الشابة، وهو أنموذج فذ للإرادة الصادقة، وعندما كنت أسمع الهجوم الكاسح عليه من بعض ذوي النفوس الضعيفة، المريضة التي تنتقده بأسلوب جارح، أشعر بالأسى لان هذا الإنسان المكافح النبيل، لا يستحق هذا الموقف، وكنت أتصدى للأقوال والإشاعات المغرضة، لأني شخصيا قد شربت من نفس الكأس فقد تألمت وعانيت من التجريح على المستوى السياسي والاجتماعي.

لقد تحمل التجريح من أقرب الناس إليه، عندما كتب روايته "العذراء والقرية" وأصبح محاصرا ومستهدفا، لكل أنواع الإشاعات والتهديد؛ ولكنه وقف صامدا، ولم يكف عن الكتابة، رغم أنه كان ملاحقا من السلطات الإسرائيلية والمخابرات الأردنية.

لقد انتقد الحكام والممارسات التعسفية والاحتلال، وجبروت الحاكم العسكري، وكان مستهدفا من الجميع، وكنت أفتخر لسماعي حكايات أحمد وعبقريته ونبوغه، أنه يكتب بسرعة مذهلة، وبفكر متيقظ وبثقافة والتزام سياسي وأدبي، وهو دائما متفائل يشحنك بشحنة الأمل والحب والعطاء.

أحمد رفيق عوض وهو يروي قصة ومسيرة حياته يمزج الألم بالدعابة والابتسامة، ويقفز بين الألم والمعاناة وقسوة الزمن يقفز إلى الأمام وينظر إلى المستقبل، لا يبالي بقسوة الزمن ولا يلتفت إلى الذئاب التي كانت تطارده ولا الأعاصير التي كانت تحاول تحطيمه وتهشه، كل ذلك لم يقتل أحمد بل إن المعاناة والمرارة جعلت من الألم الذي في داخله مصدرا إلى العطاء والحب، وهو يقول دائما: أنا لا أحقد على الذين أساؤوا لي بل أسامحهم.

هذه هي قمة النبل وهذه هي تعاليم الأنبياء ومنهم يسوع المسيح الفلسطيني المقدسي الذي قال وهو مصلوب على الصليب: "اغفر لهم يا أبتي فهم لا يعرفون ماذا يفعلون". كما أن الرسول الكريم محمد بن عبد الله قال لقريش عندما سألوه: ماذا ستفعل بنا بعد كل ما فعلناه بك؟ فقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وكان الدكتور أحمد يكاد ينفجر في البكاء، عندما كنت أسائله عبر شاشة الكمبيوتر كيف انتصر على الألم والمعاناة، وكيف يمكن أن يعيش الإنسان، بدون حب، فكان يأتيني جوابه: أنا لا أكره، أنا أغفر، أنا أحب بلادي وأشكر شعبي، أنا أحب الأصدقاء والأعداء على السواء لأني أحب الحياة.

* * *

موهبة أدبية وروائية وفكرية، خرجت من أعماق القرية الفلسطينية، لتملأ فضاء الإبداع الأدبي الفلسطيني والعربي بشذا العبقرية وعطر النبوغ والإبداع.

إنسان بسيط، بساطة العظمة، والتواضع والإنسانية، مثقف واسع الاطلاع، كاتب روائي من نوعية ممتازة، ومذاق فريد.. ناقد وصحافي، محلل سياسي، وكاتب مجيد تشعر في حضوره أنك أمام فنان استثنائي واعٍ، حاضر البديهة، ساخر إلى حد المرارة، يتدفق بأسلوب عذب كجدول ماء رقراق، لغته صورة لنفسيته، ومرآة لسريرته، وهو يتناول الأحداث والأشخاص وقضايا الناس بمبضع الجراح وشفافية الموسيقار. فلا تملك إلا أن تتواصل معه، وتشتعل الكيمياء بينك وبينه، لصدقه وصراحته وجدته وظرفه وإحساسه العميق بالناس، وحبه للحياة والأحياء والطبيعة.

يبهرك بإنسانيته الجميلة وبقدرته الفائقة، على النفاذ إلى الجذور، وببصيرته الحكيمة كفنان وروائي ومؤرخ سرعان ما تحس أنك في حضرة إنسان يحب الناس ويحضنهم، بأخطائهم وخطاياهم، بنبلهم ونزواتهم، بسموهم وصغائرهم وهو قادر على أن ينفذ إلى أعماقهم ليكشف عما فيها وفيهم من الأحاسيس، والمشاعر والإنسانية والحب والانفعالات والنور والنار، والجمر والرماد على حد سواء.

ذات مكالمة هاتفية

وتعود بي الذكريات إلى أول مقابلة لي مع أحمد رفيق عوض، كنا في أول الليل نتدارس موضوعات العدد الجديد من صحيفة "فلسطين" وإذا بزياد درويش على خط الهاتف يسألني: هل تبحثين عن قلم متميز يستطيع أن يكتب في كل شيء.. وأي شيء.

قلت: في كل شيء؟ وفي أي شيء؟ ماذا تقول؟

قال: نعم. في الفلسفة والفن والتاريخ والنقد والأدب والقصة والرواية والمقالة والخاطرة والعلم والسياسة.. في كل شيء.. اطلبي منه وخلال ساعة أو نحوها يكون أمامك ما تطلبينه، لينشر في "فلسطين".

نظرت إلى داود إبراهيم الذي كان حاضرا.. وعلى الفور اتصل به فاستجاب مرحبا سلم وجلس، وبإحساسي الصحافي، وخبرتي المهنية أدركت في الحال أنني أمام طاقة إبداعية وفنية نادرة، ومن هنا أفسحت له هامشا في جريدة "فلسطين" وضممته إلى أسرة التحرير.

وأنا بطبيعتي ضعيفة أمام المواهب الأدبية والصحافية، خاصة الخلاقة المتميزة، وكنت في المكتب الفلسطيني أنا وإبراهيم قراعين نسعى ونضم كل ذي موهبة إعلامية إلى أسرة المكتب الفلسطيني.

وكان من هؤلاء د. عبد اللطيف عقل، والمتوكل طه، وأحمد عبد أحمد، ورضوان أبو عياش، وباسم أبو سمية، وعلي قعدان، وعلي الصح، وعبد الكريم سمارة، وجواد الجعبري، ووليد العمري، وإلياس زنانيري، وإبراهيم سجدية، وإبراهيم دعيبس، والفنان سليمان منصور، ونبهان خريشة، ومحمد عميرة، وحمدي فراج، وقدورة موسى، وجودت مناع، ونعيم الطوباسي، وفتحي الناطور، وغيرهم.

وكان آخر ذلك الصف الطويل من المواهب الصحافية أحمد رفيق عوض.

بانوراما روائي وكاتب مميز

ولكي تحكم على موهبة أحمد رفيق وقدراته؛ لست في حاجة إلى استعراض الجوائز التي نالها عن أعماله الأدبية ورواياته العديدة، ولست في حاجة إلى الاستماع له وهو يعبر عن رؤاه وأفكاره من خلال الفضائيات أو أثير الإذاعة، ولا من خلال مقالاته أو محاضراته أو مداخلاته، كل هذه مظاهر وشواهد عابرة أو كالعابرة، في شخصية أحمد رفيق عوض. أما حقيقته وقيمته الأساسية فهي كما تتجلى في شخصيته كروائي ومؤلف استطاع أن يحقق إنجازات رائعة في مجالات الرواية الفلسطينية، خُذ أي رواية من رواياته مثل "العذراء والقرية"، أو "عكا والملوك"، أو "مقامات العشاق والتجار"، أو "بلاد البحر" أو أي رواية أخرى. ثم اقرأ وتمعن، لتدرك أي موهبة فنية وإبداعية تكمن في أعماق هذا الإنسان المثقف، الجميل، الساخر، البصير، الفنان الذي يبدع أعماله الروائية بطريقة هندسية، وبناء فني رائع، وتجليات عبقرية في رسم الشخصيات وتحليل السلوك الإنساني وانسياب الأحداث وترابطها والتعبير النفسي عن الشخصيات.

روائي جميل وإنسان جميل

إن أحمد رفيق عوض فنان جميل، ولكنه أيضا إنسان جميل، ذو حضور رائع ونكهة متميزة، إنه مزيج من الثقافة والموهبة والسخرية والشجن، والألم والفرح والبسمة والدمعة، وفي رواياته ومعالجاته الفنية والأدبية يكمن ذلك الحزن الدفين الساكن في أعماق كل مبدع أصيل. وهو قادر على أن يعبر دون مرارة أو نقمة بل انه يتجلى للمتلقي كفنان أصيل صقل نفسه وهذبها وطهرها وجعلها خالية من المرارة والنقمة، فهو أقرب ما يكون إلى التبر الذي يتحول تحت لهب النيران إلى ذهب أصيل براق لامع عصي على الكسر والتشويه والتهميش.

أروع ما في حياة أحمد أنه ابن فلاح بسيط فقير، نهل من الجوع والنَصَب والأشجان والأعباء ما يلخص مسيرة جيل كامل من أبناء فلسطين ممن ساروا على درب الأشواك وعملوا في أشق الأعمال وتحت أسوأ الظروف ومع ذلك كانوا قادرين على الإبداع والعطاء.

عاش أحمد ظروف والديه الصعبة، واكتوى بنيران الفقر والحاجة، وعمل في أعمال وضيعة، انبرت أصابعه، وحفيت أقدامه، وعرف مرارة الجوع والحاجة، ولكنه ما كفر ولا تراجع، ولا يئس ولا تنازل، لقد تحدى كل المعطيات وحمل صخرة سيزيف ببسالة وشجاعة وواصل مشوار الألم رغم كل شيء.

من يعبد كانت البداية

ولد أحمد رفيق عوض في العاشر من آذار عام 1960، في بلدة يعبد تلك القرية التي استشهد في أحراشها الشيخ عز الدين القسام.. وشهدت تفتح الوعي المبكر للشاب الذي سيغدو في عقده الثالث من أهم قصاصي الأرض المحتلة. فقد بدأ مشواره في كتابة القصة القصيرة وكان يوقعها باسم مستعار (فكري خليفة) وينشرها في مجلة "الفجر الأدبي" وذلك في بداية الثمانينيات، وكان أسلوبه واضحا مميزا في نهجه فقد عالج في تلك الفترة كتابة القصة والمسرحية بأسلوب جريء وطرح اجتماعي وسياسي مميز على عكس كثيرين من حوله في تلك الفترة. وقد كتب قصة "رجل تحت الاحتلال" عام 1984 في مجلة "الفجر الأدبي"، وكانت من القصص الرائدة التي زاوجت بين فعلي الاحتلال والتخلف، والأنماط الاجتماعية المختلفة، وقدمت مضمونا مختلفا غير سائد على مستوى الشكل والمضمون كما يقول صديقه المتوكل طه. وكانت تلك القصة شاهدة على أن المبدع الفلسطيني داخل الأرض المحتلة على وعي تام باللحظة التاريخية وشروطها وإفرازاتها.

الفقير الموهوب يشق طريقه في الصخر

كان أحمد رفيق عوض قد عاش حياة بالغة الصعوبة فمن عتمة الزوايا في يعبد درج على درب العلم والموهبة وهو لا يملك زادا غير ما رضعه من حليب التين وزيت الجبل، وعاش متقشفا فقيرا إلى حد ينوء به الإنسان. ولكنه واصل الدرب مؤمنا بقدرته وموهبته، وعاش مشغولا بهموم البحث عن خبز الكفاف، فأعطى أكثر مما حصد عن طيب خاطر وعن قناعة وطموح، إنه القروي الذي حفظ وصايا أمه الأرض على نحو ما يقول "غريب عسقلاني".

حياة مشقات

نشأ أحمد رفيق عوض في أسرة فقيرة وأب يعمل مزارعا، وكان لوالديه أعظم الأثر في شخصيته وهما يريان أنه غرس يانع لتضحيات الأسرة، ورغم وجود أربعة إخوة لهم إلا أن والديه كانا يوليانه كل رعاية واهتمام، وكانا يشعران بأنه إنسان متفوق، فقد كان من الأوائل في مراحل الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية، وأحست الأسرة الفقيرة التي تكابد شظف العيش، بأن أحمد سيكون طوق النجاة وأنه سيكون المنقذ للأسرة، وأنه سيفتح لهم أبواب الرزق الحلال والسعادة والطمأنينة.

يقول أحمد رفيق عوض: كانت دراستي الابتدائية في مدرسة يعبد للوكالة للاجئين، فأنا لاجئ في الواقع وجدودي من قرية السنديانه التي دمرها اليهود. وهاجرت أسرتي بعد أن خسرت أرضها ومنازلها إلى يعبد حيث ولدت وترعرعت.

في تلك الفترة التقيت بأعظم المدرسين في حياتي، كان أساتذة الوكالة في تلك المدرسة، هم من أخذوا بيدي وساعدوني وشجعوني وشعروا بقدراتي وذكائي ورأوا فيّ أنموذجا للطالب الذي يجب أن يكون قدوة

أمام الناس، أذكر من هؤلاء الأساتذة بالامتنان والفخر الأستاذ محمد سمارة، والأستاذ فوزي فياض والأستاذ كمال زيد.

أما المرحلة الثانوية فقد التحقت بمدرسة جنين الثانوية في القسم العلمي، ولا أشعر في تلك الفترة أن هناك من اقترب منه أو اقترب مني، كانت المرحلة الثانوية مرحلة جد ودراسة وفيها كتبت أول قصصي القصيرة، التي نشرت في الجريدة فيما بعد وكانت بعنوان "نريد نقودا". ولكن رغم تلك المحاولات فإني لم أكن أشعر بأن هناك من يقرأ لي، أو يعيرني أي اهتمام أو يلفت النظر إلى موهبتي.

كان ذلك في مرحلة السبعينيات، وكانت الأمور على أسوأ ما يمكن من النواحي المادية والثقافية والسياسية. كان وطننا يغرق في ذل الاحتلال وممارساته وقمعه وحصاره لكل شيء.

إلى أن أنهيت الصف التوجيهي وكان ذلك عام 1978 وحصلت على معدل 76.1 في المائة ما أهلني للالتحاق بجامعة اليرموك بعد أن حصلت على بعثة على حساب الحكومة الأردنية للدراسة في كلية العلوم متخصصا في الأحياء.

كانت فترة الجامعة تزامن توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وكان هناك مظاهرات واعتصامات شاركت فيها وأصبحت مهتما بالسياسة حيث تم اختياري كممثل عن الطلبة في دائرة الأحياء، وسجنت لمدة قصيرة وما أن أنهيت الدراسة، وحصلت على البكالوريوس حتى قامت السلطات الأردنية بترحيلي إلى الضفة الغربية.

بدايات المشوار الأدبي

وأذكر أنني في فترة دراستي الجامعية صدر لي أول كتاب وهو مجموعة قصصية قصيرة بعنوان "البحث عن التفاح" وقد صدرت عن دار اللواء.

كما أن فترة الجامعة شهدت نشر العديد من قصصي ومقالاتي حيث كنت أتقاضى أجورا رمزية عما أكتبه، وأذكر في هذا المجال أن أول مبلغ تقاضيته كان عشرين دينارا، تقاضيته من مجلة التنمية التي كان يرئس تحريرها بلال التل، الذي أدين له كثيرا، فقد كان أول من نشر لي كتابا، كما كان أول من ألحقني بالعمل في مجلة التنمية، وساعدني في أن أعمل في جريدة اللواء وهو أول من دفع لي ولهذا فاني أشعر نحوه بشعور الامتنان ليس من وحي التقدير المادي بل من وحي التقدير الأدبي، الذي يحتاجه كل أديب مبتدئ والذي قد يشكل حجر الزاوية في انطلاقته الأدبية.

نقطة التحول في حياتي

ويواصل أحمد رفيق عوض سرد ذكرياته عن بداياته الأولى فيقول: اشتغلت بعد ذلك في كثير من الأعمال، فقد عملت مدرسا في مدرسة كفر جابر شمال إربد، كما عملت في أعمال مختلفة، وواصلت النشر والكتابة، وأدركت أنني لم أخلق لتدريس الأحياء وأن الكتابة والأدب والسياسة هي قدري. وكان ذلك بعد تخرجي وحصولي على البكالوريوس عام 1982.

وفي معرض تقييمه لسنوات الدراسة الجامعية يقول أحمد رفيق عوض: كانت تلك السنوات أربع سنوات عجيبة غريبة، حافلة بالنجاحات والإخفاقات ولكنها كانت مؤشرا على أني قادر على أن أشق طريقي في عالم الأدب، ورغم علاقاتي العاطفية في تلك الفترة إلا أنها جميعا كانت علاقات فاشلة.

خفقة قلب ولمسة بر

من اللحظات التي تثير شجني كثيرا عندما أتذكرها لحظة حضور والدي إلى عمان، للاشتراك في حفل تخرجي، فما أن اختليت به حتى أعطيته "مائتي دينار"، لحظتها شعرت بأني ألمس السماء بيدي وتضاعف إحساسي بالنشوة والأمل فقد ملأت الطمأنينة والرضا قلب والدي، وعبرت ملامحه عن الامتنان والشكر لله كأنه أخذ ألفي دينار.. فقد أثمرت جهوده وشعر بأنه ألقى بذوره في أرض خصبة.

وعندما عدت إلى جنين التحقت بالتدريس معلما للأحياء حيث عملت في هذا الحقل سنتين ما بين عامي 1982 و 1984، ولم يتواصل مشوار عملي فقد تم اعتقالي وسجني مدة سبعة شهور، ومن ثم طردي من سلك التدريس، بل إنهم حرموا عليّ الالتحاق بأي مدرسة سواء أكانت حكومية أم خاصة. كان قدري أن أتشرد منذ العام 1984 ولغاية 1992.

سنوات العذاب والتشرد

منذ العام 1984 وجدت نفسي ولمدة عشر سنوات أقوم بأعمال يومية صعبة، عملت في كل ما تتصورونه، غسلت الصحون، وعملت في البناء والزراعة والعتالة، وفي كل أنواع الأعمال السوداء التي لا تتناسب مع المؤهل العلمي الذي أحمله. وكنت عندما أخلو إلى نفسي وأستعرض أسماء زملائي وما وصلوا إليه أشعر بالألم وأبكي بالدموع على هذا القدر الذي ألقى بي على قارعة الطريق.

عشر سنوات كانت مريرة ذقت فيها كل ألوان البؤس والجوع، أنا وأسرتي وكنت بالفعل أشتهي اللحم ولا زلت أذكر أني ذات مساء عدت إلى البيت وقد اشتريت "فلافل وبندورة" ودخلت على أسرتي وقدمت لهم ما أحضرته.. فلما سألوني عن مصدر النقود قلت لهم: اشتغلت في العتالة. فأخذوا يبكون.

ولن أنسى في حياتي مرارة تلك اللحظة. كان إحساسي عاصفا، مريرا بأني مستهدف في هذا العالم. كنت أشعر باني في المكان الخاطئ وفي الزمن الخاطئ وأنه لا مجال لي في الحياة.

"العذراء والقرية".. والثمن الصعب

إن سنوات الشقاء التي كابدتها في العمل اليدوي البسيط المضني المؤلم، لا شك أنها عمقت إحساسي بالحياة، وزودتني بطاقات وقدرات وتجارب وأفكار أفدتُ منها كثيرا فيما بعد، أن الألم العظيم هو الذي يخلق الفنان العظيم. وان الكتابة عن الفقر والألم والتشرد لا تكتسب حرارة الصدق إلا إذا كانت صادرة عن نفس ارتوت من معين الألم والشقاء.

في عام 1992 أصدرت روايتي "العذراء والقرية" وهو كتاب يقع في أربعمائة صفحة صدر عن اتحاد الكُتّاب، وقد قلبت هذه الرواية حياتي رأسا على عقب. فمن ناحية أدبية كانت شهادة ميلادي كروائي مبدع متميز، ومن ناحية أخرى كانت مؤشرا على مقدرتي الإبداعية وموهبتي في نسج الأحداث وترتيب البناء الهندسي للشخصيات والأحداث.

كما كانت رواية واقعية ولكن فريقا من الناس رأى في هذه الرواية التي تصور سقوط المجتمع وتعرض لسلبيات الحياة الاجتماعية في تلك الفترة بأسلوب يمتاز بالصراحة والجرأة ما جعل بعض الناس يرون أنهم هم المقصودين بهذه الشخصيات، وكان رد الفعل عنيفا يكاد يصل إلى حد المطالبة برأسي وتصفيتي جسديا. ومن هنا تم ترحيلي أنا وابنتي وزوجتي من القرية.

ولست في معرض الدفاع عن نفسي، ولكني بصدق أقول إن شخصيات الرواية وأحداثها كلها من نسج الخيال ولا تمت الى أي شخصية واقعية حقيقية.

شريداً في رام الله

في ليلة غاب فيها القمر خرجت شريدا طريدا من بلدة يعبد.. وصلت إلى رام الله وفي يدي كيس به بنطلون واحد وقميص وفي جيبي 150 شيكل. وأخذت أتجول في شوارع رام الله باحثا عن أي إنسان له بي معرفة سابقة ولكني لم أوفق، وهكذا قضيت ليلتي عند جماعة من كفر الديك حيث نمت عندهم وهي فرصة لأقول جزاهم الله عني خيرا.

كانت حياتي في رام الله بالغة الصعوبة ولكني استطعت بمساعدة الدكتور سمير شحادة والدكتور أحمد حرب والأستاذ عزت الغزاوي رئيس اتحاد الكتاب أن أجد موطئ قدم في الصحافة، حيث ساعدوني على الالتحاق بمجلة "الأسبوع الجديد" التي كان يصدرها حنا سنيورة، وكان رجلا في غاية النبل والإنسانية وهو من الذين يعشقون الصحافة على امتداد عمره، ويمكنني أن أقول إنه يعد رائدا من رواد الصحافة الفلسطينية في فجر الاحتلال وأن محاولاته المتكررة أنجبت العديد من الصحف والمجلات، رغم أنه يحمل درجة علمية في الصيدلة من الجامعة الأمريكية، ومن هنا كان ترحيبه بي كمحرر في المجلة.

ومن ثم استأجرت غرفة صغيرة في بيرزيت عند مختار البلدة وهو رجل تتمثل فيه شهامة الإنسان الفلسطيني ورجولة وكرم الفلاح الفلسطيني، فقد كان "أبو عواد" في غاية الكرم والحق لقد كان إنسانا رائعا جدا جدا.

وخلال الفترة بين عامي 1992 إلى 1994 اشتغلت أعمالا كثيرة، عملت معلما وصحافيا ومترجما ومراسلا ومدرسا للعبرية وتنقلت في عدة أعمال أخرى إلى أن اطل عام 1994 فكنت ضمن أول طاقم ذهب إلى أريحا ليعمل في صوت فلسطين. وهناك أمضيت سنتين محررا ومذيعا ومؤلفا وقابلت نماذج وشخصيات ما أنزل الله بها من سلطان. فقد حاصرتني وتطوعت بالإساءة إليّ.. حاربوني بضراوة وقسوة ولا أدري أي ذنب جنيته، وكنت أتعزى ببيت المتنبي:

"أُعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار فيَّ تجولُ"

والحقيقة فإنني أول مذيع أطلق عبارة هنا صوت فلسطين.. في الإذاعة الفلسطينية التي كانت تبث من أريحا. وكنت أول من كتب برنامجا، وأول من حرر نشرة أخبار، وأول من أجرى مقابلة صحافية وأول من أعد مادة درامية، كنت أعمل بكل طاقتي ولكني لم أجنِ إلا حصاد الشوك والمحن والأحقاد.

واستطعت في فترة قصيرة أن أُلم بكل المهارات التي تتعلق بالعمل الإذاعي ومن ثم قمت بتدريب العديد من أبناء فلسطين، الذين عملوا في هذا المجال الذي كان موضع طموح كثير من الشباب المثقف، ولكن الحصار المضروب حولي جعلني أترك الإذاعة والتحق بوزارة الثقافة برفقة وزمالة يحيى يخلف الروائي الفلسطيني المبدع، والإنسان المثقف الذي وقف بجانبي وقدر موهبتي، وأستطيع أن أقول إنه أطلقني ككاتب مبدع حيث تعامل معي بآلية الفنان، ولم يخضعني لروتين العمل القاتل. ولي أن أشكره من أعماقي على هذا الموقف النبيل. هناك دائما في ساعات المحنة، وعندما تستحكم الأزمات، وتضيق بي الدنيا، كنت أجد هذه الأيادي الطيبة، في الكُتّاب المبدعين الذين لا يخشون المنافسة، ولا يترددون في احتضان المواهب

حتى لو كانت مواهب كاسحة، فقد ساعدني ثلاثة من الكُتّاب الذين سبق ذكرهم ومن ثم الصديق الزميل يحيى يخلف.

كرسي الجامعة الطموح والملاذ

معاملة الكاتب الأديب وزير الثقافة يحيى يخلف لي كفنان، وليس كموظف روتيني، ساعدني على أن أنطلق إلى آفاق الدراسة الجامعية، وهكذا حصلت على درجة الماجستير عام 2006 في الدراسات الإسرائيلية من جامعة القدس، ومن ثم حصلت على شهادة الدكتوراه في الشؤون الإسرائيلية أيضا من معهد البحوث التابع لجامعة القاهرة عام 2011. وهذا النوع من الدراسات الذي يبحث في الإعلام الإسرائيلي نادر في جامعاتنا الفلسطينية.

سبع روايات والبقية تأتي

كتبت في كثير من المفردات الأدبية والإعلامية ولكن أهم ما أنتجته سبع روايات وهي:

- "العذراء والقرية" عام 1992.
- "قدرون" عام 1992.
- "مقامات العشاق والتجار" عام 1997.
- "آخر القرن" عام 1999.
- "القرمطي" عام 2001.
- "عكا والملوك" عام 2003.
- "بلاد البحر" عام 2006.

وقد نالت هذه الروايات العديد من الجوائز العالمية والعربية.

الصورة بلا رتوش

أحمد رفيق عوض الإنسان الذي كابد شظف العيش واكتوى بنيران الفقر هو العاشق المتقشف، حتى التصاق الجلد بالعظم، وصولا للهدف والهدف دائما أن يكون الإنسان الذي يليق بهذه الأرض، والتي ألهمته الحكاية، وأنارت له سبل الوصول على ضوء ما يختزنه من شوق صوفي إلى نور الحقيقة، وهدى اليقين بالمعرفة، وهو يتدفق بالقدرة والموهبة والمعرفة المظفرة بجديلة التفاني، والتواضع والإحساس بالمسؤولية والخفر البريء وهو المتمكن من اللغة العبرية والانجليزية تمكنه من لغته الأم، كما أنه يجيد مخاطبة البعيد والقريب على نحو ما رسم أبعاد صورته هذه صديقه الكاتب غريب عسقلاني.

وأحمد رفيق عوض هو ذلك الإنسان الذي عركته الدنيا، وعركها عاملا في سوق العمل العبري، يعيش ذهول اكتشاف المجتمع البديل، إنه الفنان المتميز المختلف الخارج من عتمة الزوايا، المشغول بهموم البحث عن خبز الكفاف، الذي خاض الكثير من المجالات، فأعطى أكثر مما حصد عن طيب خاطر، أعطى بقناعة عابد وطموح نبي، أعطى بتقاليد القروي الذي حفظ وصايا أمه الأرض.

مفردات إبداعية أخرى

كتب أحمد رفيق عوض للمسرح العديد من المسرحيات ومنها "مسرحية الملك تشرتشل" ومسرحية "الأمريكي"، كما كتب "حوار مع إسرائيلي"، وكتب كتاب "دعامة عرش الرب" عن العلاقة بين الدين والسياسة في إسرائيل.

كما كتب العديد من الأفلام وأثرى السينما الفلسطينية بنصوص فريدة مثل فيلم "نابلس"، وفيلم "فيل في بيت الله"، وفيلم "السامري الطيب"، وقصة "موت صحفي"، و"أربع أمهات وقميص واحد".

تواضع ورؤيا

ذات مقابلة صحافية وصف أحمد رفيق عوض نفسه بالخائف والجبان، وقال إنه إنسان صاحب هواجس كبيرة وإنه في الواقع لم يحقق شيئا بعد، ولم يعمل ما يجب عمله حتى الآن، وإنه ببساطة يقول: "أنا أمام نفسي لست كما أنا أمام الآخرين". وأضاف أن تجربته القوية العميقة، لا تمحى عبر الزمن وهي تجربة الطفولة والألم ولذلك استوحى تلك الفترة وجعلها عنوانا لتاريخه ولكن بالشكل واللغة التي تناسبت مع الفكرة، ويقول: لقد حملت القلم بكل قوة مستوحيا طفولتي التي شكلتني ككاتب، كما أني أصبحت روائيا بفضل هذه الطفولة وبفضل الحكائين المحيطين بي من الأهل، وبوحي الشتات والفقر الذي رافقني على امتداد حياتي وإصراري على محاربة الفقر وعدم تحويله إلى فضيلة.

قراءة في مستقبل إسرائيل

يُعد الدكتور أحمد رفيق عوض بصدق متخصصا في الدراسات الإسرائيلية، ليس فقط لأنه حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في هذا الحقل بل لأنه يستطيع أن يحلل المجتمع الإسرائيلي والسياسة الإسرائيلية بنظرات عميقة وأسلوب استقرائي علمي، ويتبدى ذلك في العديد من برامجه التلفزيونية عندما تستضيفه الفضائيات على امتداد الأسبوع.

وهو قادر دائما على الإقناع ورغم أنني ألمح بين سطوره وكلماته سمات التفاؤل إلا أنه يصر على أن هذا هو منطق التاريخ والواقع، فإسرائيل كدولة محتلة يجب أن تدرك أن الاحتلال يقتلها وأن التطرف والعنصرية تحشد ضدها الاتحاد الأوروبي وأمريكا وأصحاب الفكر والدارسات في كل أنحاء العالم، والشاهد على ذلك ما يقوله براك أوباما في أكثر من تصريح وما يقوله ساركوزي رئيس الجمهورية الفرنسية السابق، وهذا ما يقوله أيضا السياسي الأمريكي اليهودي هنري كيسنجر الذي انتقد التطرف الإسرائيلي، كما أن الكاتب الإسرائيلي اوري افنيري يرى نفس الرأي، بمعنى أن العنصرية والتطرف والمد اليميني الأعمى سيؤدي إلى حصار إسرائيل بحيث ينقلب السحر على الساحر، وهذا ما يؤكده العديد من الدارسين للمجتمع الإسرائيلي.

إن إسرائيل عندما تصر على التطرف والعنصرية وتنامي المد اليميني فيها، فإنها كلما تطرفت أكثر أصبحت عنصرية أكثر وحكمت على نفسها بالفناء لأن الاحتلال كالمرض يقتل صاحبه. ويستشهد أحمد رفيق عوض بهذه الحقيقة على ما جرى للتطرف العنصري في اتحاد جنوب إفريقيا وفي روديسيا وفي الخمير الحمر.

وإذا تواصل هذا المد العنصري فإن دول الاتحاد الأوروبي ستنفض من حولها لأنها بهذا المنطق تخالف جميع الشرائع والقوانين والحضارة الإنسانية، وحتى من الناحية المادية والاقتصادية الصرفة فإن التطرف سيؤدي إلى جر إسرائيل إلى مواقف اقتصادية تلحق بها ضررا شديدا.

أخي أحمد..

لقد آمنت بمواهبك ككاتب منذ اللحظة الأولى، وحاولت أن أجعلك من صفوة الكُتّاب في صحيفة "فلسطين"، وقد أسندت إليك رئاسة تحرير الصحيفة، وكنت بالفعل قلما رائعا معبرا وإعلاميا مهنيا على درجة عظيمة من الإبداع والتفوق، ولكني أتمنى على أن تكرس مواهبك لكتابة ملحمة أدبية عظيمة تؤرخ للنكبة الفلسطينية والهجرة الفلسطينية والشتات، فأنت تعلم أن الأعمال الأدبية أصدق من التاريخ ولعلك على علم برواية إلياس خوري "باب الشمس"، كما أنك على علم بأهمية الحرب والسلام لتولستوي، كما أتمنى عليك أن تبدع عملا فنيا مثل أبراهام لينكولين الذي يؤرخ للرئيس الأمريكي الراحل محرر العبيد والذي يعرض في هذه الأيام بنجاح كبير وهو من إخراج المخرج الكبير سفيلبرغ علما أن هذا الفيلم مرشح لجائزة الأوسكار.

ولا شك أن مثل هذه الأعمال تحتاج إلى وقت ومجهود ومال وتفرغ، ولكن أهم من كل ذلك الموهبة العظيمة تلك الشعلة الفطرية التي يجب أن لا تستهلكها في أعمال روتينية كالتدريس أو التعليق على الأخبار أو المداخلات السريعة التي لا تليق بموهبتك العظيمة.

وإني أتوجه إلى المسؤولين في وزارة الثقافة أن تتيح فرصة التفرغ لكل المواهب العظيمة لتقديم مثل هذه الأعمال على نحو ما كانت تفعل وزارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر في عهد عبد الناصر.

وأنت تعرف قيمة هذا اللون من الإنتاج الأدبي الذي لا يستطيعه سواك خاصة وأنك مثقف ودارس وتعرف مغزى ما أدعو إليه عندما نستعرض بعض الأعمال الفنية في هذا المجال مثل "سبارتاكوس" ونابليون بونابرت ومحمد علي، وكما فعلت أنت نفسك في رواية "عكا والملوك" حيث أرخت بشاعرية وفن للحروب الصليبية.

وقد واكبتُ دعوة بعض رفاقك وزملائك وهم يزكونك كوزير للثقافة، ولا أرى أن ذلك يضيف إليك كثيرا فأنت تسعى إلى حياة هادئة وتتمنى وقتا فسيحا في خلوة مع أوراقك وأقلامك لتكتب وتبدع وبذلك تكون صوت وضمير شعبك كشاهد على العصر والتاريخ.

(2013/2/1)

جورج حبش

في فجر نضاله ساهم في تأسيس حركة القوميين العرب
الحركة الأم لكل الحركات والفصائل الفلسطينية.
كان كالماس مزيجاً من القوة والنقاء والحدة والشفافية
صريحاً قوياً إنسانا يقطر عذوبة ورقة.
لم يكن يعبد نفسه ولم يكن يريد أن يمسك بكل زمام الأمور
ومن لم يرَ حبش بين الناس في المخيمات فقد فاته مشهد فريد مؤثر.
هبطت طائرته في باريس حين ذهب للعلاج، ويومها قامت القيامة
واستقالت وزيرة الصحة جورجينا دوفوا ورئيسة الحكومة اديت كريسون

جورج حبش واحد من الأسماء الرائدة التي خطت في سفر الثورة والنضال صفحات رائعة، بما فيها من روح المبادرة والمصداقية والانتماء، رجل مثقف وجد نفسه في ظروف تحتم عليه أن يفكر في آلام شعبه وأشجانه وشؤونه، فعصفت بروحه ووجدانه مشاعر الظلم والقهر، وتفجرت في كيانه براكين الثورة على الغاصب المحتل.

وهذه سمة من سمات العظماء الذين يقاومون الظلم ويتصدون له بكل ما لديهم من أسلحة وقوة، ويقاومون الفقر والجهل والمرض، ويحاربون بكل بسالة مواضع الضعف البشري وخطايا الإنسان وأخطائه وافترائه وظلمه.

إن هذه النفوس الكبيرة تسمو إلى العلياء الرفيعة، وإلى آفاق عظيمة من الإنسانية عندما ترفض أن تقف موقف العجز واللامبالاة من قضايا الإنسان.

هذه النفس النبيلة الخيرة الثائرة نجدها عند غاندي وكاسترو ولينين وعبد الناصر وشارل ديغول وأبراهام لينكولن وتشرشل وروزفلت، كما نجدها بأجلى صورها عند قادة الأمم والشعوب وتلك الصفوة المختارة من الرسل والأنبياء أصحاب الرسالات.

إن كل من عرف جورج حبش يجد فيه إنسانا نبيلا، وديعا متدفقا كالنهر في عطائه، سلسا في خلقه وتعامله كنسمة وديعة، محبا للإنسان والإنسانية، يتواصل مع الجميع ويكاد يحضن الناس ويأخذهم

بالرحمة والحب والعطف، كما أنه يتدفق حيوية ونبلا وإنسانية مع كل من عرفهم أو زاملهم أو قادهم في معركة الحياة.

كان جميلا، وسيما، مثقفا ثقافة عميقة، لا يتحدث إلا بصوت خافت، ويحسن الاستماع والإصغاء كما يحسن الحديث والتنظير، كنت أرى فيه دائما صورة جميلة للثائر الفلسطيني خليل الوزير (أبو جهاد) فكلاهما على غير القاعدة آية في الوداعة ولين الحديث والاستماع واللطف والصوت الهادئ الذي يأخذك إلى آفاق المودة والصداقة.

ذلكم على المستوى الإنساني الرفيع؛ أما على مستوى النضال والثورة فجورج حبش كان لا يهادن، رائدا وقدوة، ومبادرا ومن أوائل من قادوا الشعب الفلسطيني وفصائله إلى الثورة والنضال والتضحية والفداء من أجل تحرير فلسطين، ورفع الظلم عن شعبها.

إنه كالماس شديد الحساسية، شديد النقاء ولكنه قوي قادر على أن يخترق كل الصعوبات وهو يتصدى للعدو ببسالة رافعا دائما لواء الثورة ،مؤمنا بأن بندقية الثائر هي الطريق إلى الخلاص وهي الوسيلة إلى التحرير.

جورج حبش أحد القادة التاريخيين على امتداد الثورة الفلسطينية، وأحد من الأسماء الذي خطت بحروف من نار ونور اسمها على صفحة النضال الفلسطيني، إنه الحكيم العملاق الذي ما كاد يشب عن الطوق حتى تفجرت فيه براكين الثورة على الغاصب المحتل الذي يستولي على أرضه ويشرد أبناء شعبه ويسفك دماء الأبرياء بمنطق الغاصب، وسلوك المعتدي وعقلية رجال العصابات الذين يريدون إقامة دولة على أشلاء أبناء شعبه.

إنه واحد من أولئك الصفوة الذين تثقفوا وتعلموا، وتعمدوا بنيران النضال والثورة، آمن منذ مراحل الصبا الباكر أن الإنسان قضية وموقف، وأن الحياة معركة وتحدٍ وكانت شجاعته وبسالته وإصراره صورة صادقة لكل مناضل.

لقد سحر جورج حبش الجماهير بصدقه وصلابته وإيمانه ومنطقة، وحسن قراءته للتاريخ . فانطلق قائدا ثائرا منظما لجماهير الشباب الثائر، متصديا ببسالة للعدو، صريحا في حربه وعدائه ونضاله، مؤمنا بأن تحرير فلسطين يمر من فوهة البندقية وعلى ثقة من أننا لن نسترد فلسطين ولن نعود إلى اللد ويافا وحيفا والقدس إلا عن طريق النضال والدم والقتال، وأن غياب هذه الحقيقة في دهاليز السياسة ليس سوى مضيعة للوقت.

جورج حبش على درب النضال

جورج نقولا رزق حبش

المناضل الفلسطيني الرائد الذي شب على مقاومة الظلم والقهر، وأحب فلسطين، وعشق شعبها، وآمن بحتمية الانتصار.

ولد جورج حبش عام 1926 في مدينة اللد، وترعرع مع سبعة أفراد من أسرته، كان والده تاجرا، فدرس وهو طفل في المرحلة الابتدائية بمدارس اللد، ثم التحق بالمرحلة الثانوية فدرس في مدارس يافا والقدس، وامتهن التدريس وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره. ثم غادر فلسطين عام 1944 متجها إلى بيروت والتحق بالجامعة الأمريكية ليتخرج منها طبيبا عام 1951.

عمل جورج حبش في المستشفى الإنجيلي كمتطوع، وقد تنقلت أسرته بين اللد ويافا ورام الله وعمان، وعمل طبيبا في مخيمات الأردن حتى خرج مع المقاتلين الفلسطينيين بعد أحداث أيلول الأسود إلى لبنان، ومن ثم أسس حركة القوميين العرب لتأجيج المشاعر الوطنية لدى الشعوب العربية، ثم أسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي تنحى عن قيادتها طوعا عام 2000. وقد عمّر جورج حبش حتى بلغ الثانية والثمانين من عمره.

رؤيا لكمال جنبلاط وأحمد بن بللا

قال عنه كمال جنبلاط:

"يصعب أن تثق بقائد ثورة ثقة مطلقة في هذا العصر، وتعيش معه الرفاقية مثلما هي مع الحكيم جورج حبش".

وقال عنه الزعيم الجزائري احمد بن بللا:

"كان جورج حبش بالنسبة لي القائد الثوري الذي يريد أن يطلق النسر الفلسطيني كي يحلق عاليا، فيراه العالم أجمع ويعجب به، ويطالب بحل عادل لقضيته".

ويقول عنه فضل مصطفى النقيب:

"كان من القلة النادرة التي تعيش دائما في المركز الحقيقي للأحداث، في قلب إرهاصات الثورة الإنسانية المستمرة، ولهذا كان صوته يصل إلى كل الفلسطينيين في المدن والقرى والمخيمات، فيسمعون فيه صدى ما يجيش في قلوبهم، وعقولهم ووجدانهم من إيمان وإصرار وتمسك بالعودة إلى فلسطين.

وعندما سألنا عطا القيمري احد المناضلين الذين مكثوا في السجون مدة طويلة نحو 16 عاما عن الإدلاء بشهادته حول مسيرة الحكيم قال:

بالنسبة لي، أنا عطا القيمري، لا يمكن أن يوجز الحكيم جورج حبش في أي نص. فأنا لم ألتقِ به أبدا. ولعل هذا هو ما جعل مجرد أن أعانقه استنفادا تاما لكل حياتي. كنت أقول أعانقه فقط ولو مت بعد أن أعانقه فاني أكون حققت ذاتي. عندما كنا في السجن كان الرفيق الحكيم يطل علينا أحيانا برسائل قصيرة، تلاوتها علينا كانت تمدنا بسبل الصمود، ترفع هامتنا، تشد أزرنا وتعيننا على صعابنا. ليس مثله من يستطيع بتواضعه الجم وبحبه الكبير أن يعانق الناس عن بعد وأن يجعل منهم قامات كبيرة بلا حدود. كان في رسائله يشعرنا بأننا نحن العظماء الذين ينتظرهم كي يواصلوا الدرب معه وبه وعنه. كان الحكيم عظيما بحيث لا يمكن أن يوجز في اي نص.

وكتب صقر أبو فخر عنه يقول:

"جورج حبش هو الاسم الحركي لفلسطين، وكان دائما ضميرها المعذب، وبوصلتها الصادقة، وصمام الأمان حينما يحتدم عجيج المنظمات والأنظمة، وكان يكفي أن يمسك بيد ياسر عرفات حتى يرتاح الفلسطينيون.

الحكيم ضمير فلسطين الخالد

يطلق الكثيرون على جورج حبش لقب "الحكيم" أو حكيم الثورة وذلك بحكم دراسته للطب في الجامعة الأمريكية أولا، ومن ثم لسعة أفقه ورجاحة عقله وموضوعيته، وحسن تشخيصه لكل حالة ومرحلة من مراحل النضال الفلسطيني.

ولكني أفضل أن نطلق عليه لقب ضمير فلسطين، وذلك لشفافيته المطلقة وصراحته وجرأته ولاستيعابه الرائع لكل قضايا وهموم الوطن.

وجورج حبش هو الرائد فلسطينيا وعربيا وقوميا، تخرج من الجامعة الأمريكية طبيبا في وقت مبكر من حياة المأساة الفلسطينية، وكان بوسعه أن يمارس الطب، وأن يثري، ويعيش حياة ملؤها الرفاهية والترف. ولكنه انصرف عن كل ذلك، وزهد فيه وكان يستقبل الفقراء في عيادته الخاصة ويعالجهم دون مقابل وتطلع إلى حياة الرواد المناضلين أصحاب الرسالات، فعاش في عمان براتب لا يزيد على 300 (ثلاثة مائة دولار) في الشهر تصرف له من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

مؤسساً لحركة القوميين العرب

جورج حبش رمز خالد بديع، وعبقرية فلسطينية إنسانية فذة، ترفع بها الأمة العربية رأسها عاليا، وتزهو بها فلسطين التي أنجبت هذا الأنموذج الفذ ضمن مجموعة من المعطيات، وعبر صفات ومزايا وخصائص إنسانية ونضالية تشكل منارة في التاريخ وعلى مر العصور وتعاقب الأزمان. كان رائدا، حين أسس حركة القوميين العرب، ومن ثم أنشأ ذراعها العسكري الجبهة الشعبية وبفكره وتخطيطه وأرائه وسعيه انتشرت خلايا القوميين العرب في كل أنحاء الوطن العربي الكبير.

كم كان من السهل أن يستمر الحكيم في حياته كطبيب لامع ليعيش برخاء مع عائلته مثل آلاف الناس، ولكنه اختار درب الآلام الشاق؛ في محاولة منه لرفع الظلم الذي حل بشعبه ولاستعاده الحق المسلوب.

وكان يمتاز ببعد إنساني رفيع في شخصيته. فقد كانت علاقاته مع الرفاق وجميع المحيطين به علاقة أب بأبنائه، فكان لهم بمثابة الأب الروحي، الذي يعيش همومهم، ويتابع قضاياهم الحياتية، يشاركونه الرأي ويسمع منهم، ويأخذ آراءهم بعين الاعتبار. لم يكن ديكتاتورا، بل كان إنسانا حضاريا وديمقراطيا إلى أبعد الحدود. وكان دائما إلى جانب المقاتلين في المواقع الأمامية وقت الشدائد والأزمات التي تعرضت لها الثورة الفلسطينية.

رفض منطق القائد الذي لا يتخلى عن الكرسي

وقد طبق مبادئ الديمقراطية على نفسه. فلمدة عشر سنوات أو تزيد كان يلح على رفاقه أن يتنحى، وان يترك القيادة لغيره من الرفاق وأمام إصراره، وبعد أن اشتد عليه المرض.. تم اختيار خليفة له.

وكان "الحكيم" رائدا في منهج النضال الذي ابتدعه في معارك الجبهة الشعبية لعقود طويلة، تمثلت فيها عبقريته في ابتكار وسائل الكفاح، وفي وفائه للقيم الوطنية والقومية، وتجلت قدراته وريادته بما تميز به من إرادة صلبة في مجابهة أخطر الأزمات بوعي سياسي عميق، ومهارة في الحوار وعرض البراهين والحجج في محاولات أبطال منطق خصومه. وكان رائدا في تمسكه بمبدأ التحرير وشرعيته وبعدالة القضية وحتمية انتصارها باستعادة الفلسطينيين أرضهم وإنشاء دولتهم المستقلة الحرة.. ذات السيادة.

كان جورج حبش رائدا حقا يشهد بذلك هذا الموروث العظيم الذي تركه، والذي يستند إلى مواقفه التي تنبض بالقوة والعزيمة وبكل ما كتبه وألفه وأعطاه من خبرات في مسار كفاحه وتجاربه النضالية مع شعبه. كان جورج حبش رائدا، لأنه زعيم نقي ومناضل حر. كان عفيفا.. زاهدا فلم يعرف طريقه إلى الثروة والمال، ولم يكن ممن يتعاملون مع البنوك.. لأن حسابات النضال عنده قوامها المصداقية والشفافية

والإصرار على الوصول إلى الهدف. ومما يعزز مفاهيم جورج حبش كرائد وزعيم.. أنه أول قائد يستقيل من منصبه بإصرار، رغم أن كل من حوله كانوا يصرون على بقائه.. وهو بذلك يخرج على إجماع تقليدي عرفته كواليس القيادات والتنظيمات منذ خلق الله "الكرسي" وجعل له كل ذلك السحر والنفوذ.

بين عرفات وجورج حبش

وتتجلى زعامة ومصداقية جورج حبش في قدرته الفائقة على التوافق مع ياسر عرفات. فهو صاحب المقولة المشهورة لعرفات: إنك القائد الرمز، وهو صاحب المقولة التي طالما ترددت عندما قال لعرفات يوما: "ويلي منك وويلي عليك".

فهذه الروح الثورية التي تعرف للقيادات التاريخية حقها كان جورج حبش يتعامل.. فهو لا يخوّن، ولا يزْود، ولا يستعرض.. إنّ الحسم الثوري الوحيد هو الذي يحقق للثورة الاقتراب من أهدافها.

ويمكن القول إن جورج حبش واحد من المناضلين الرواد القلائل الذين عرفهم التاريخ العربي المعاصر، الذين ثبتوا على مواقفهم، ولم تزعزع الأيام عزْائمهم وظلوا على إصرارهم مثابرين على نضالهم حتى النفس الأخير.

ويمكن القول أن قسطنطين زريق هو الرائد الفكري لحركة القوميين العرب المعاصرة، في حين أن جورج حبش هو الرائد النضالي.. مع التأكيد على أدوار زملائه ورفاقه أمثال وديع حداد وهاني الهندي وباسل الكبيسي وغيرهم.

ولعل شهادة محمود درويش تلقي أضواء كاشفة على أبعاد شخصية هذا القائد التاريخي..

يقول درويش:

كانت بنيته الفكرية والأخلاقية الواضحة شديدة الإحكام والتماسك والعناد، فقد تمتع بكاريزما قيادية نادرة تستعصي على التفكيك، وحين ينزل عن المنبر الملتهب بكلماته النارية، وتجلس إليه في خلوة حميمية. تستشعر بأنك في رفقة أب حنون أو صديق حميم هادئ وشديد الدماثة، يتقن الاستماع إليك إنه تواضع الكبار الذين ينصتون إلى إيقاع الزمن المتغير.

إن حبش استطاع أن يمثل تجربة فريدة في العمل السياسي العربي. لم يكن يعبد نفسه، ولم يكن يريد أن يمسك بكل زمام الأمور، والواقع انه من لم يرحبش بين الناس في المخيمات فقد فاته مشهد فريد مؤثر.

جورج حبش امتداد لروح أحمد سامح الخالدي

ويعد جورج حبش امتدادا لجيل رائع من المثقفين الفلسطينيين، وهو تتويج له في آن واحد.. إنه امتداد لروح الخالدي الوطني الديمقراطي الذي تنبه إلى خطورة العدو، وتطلع إلى الرد عليه بوسائل حديثه، وخليل السكاكيني المربي النقدي والعروبي الحاسم، ونجيب نصار الصحفي المتمسك بالأرض والمدافع عن الهوية الفلسطينية. فجورج حبش ربط بين الحداثة الفكرية وتشكيل الحزب السياسي، وأكد أن العروبة شرط للعمل الوطني، ولمس في الكفاح المسلح عنصرا يحتاجه المقهورون بلا مساومة. وهكذا تكون ريادته تجسيدا لمعنى المثقف الثوري الذي ينقد الواقع ويوقظ الجماهير ويوسع أفقها التحرري النضالي، ويكافح كي يجعل من هذا الأفق حقيقة ملموسة ولو بقدر.

وعلى ضوء مسيرة جورج حبش وكفاحه يحق لنا أن نقول إن مسيرة البندقية الفلسطينية مسيرة ملحميّة، أشبه ما تكون بأساطير الإغريق، وحسبنا هنا أن نستذكر أحداث أيلول عام 1970 في الأردن، ومن ثم اجتياح الجنوب اللبناني عام 1978، ثم حصار بيروت عام 1982 وخروج 15 ألف مقاتل، ثم انشقاق فتح والاقتتال الدامي، ومعارك طرابلس والبداوي، ومن ثم الحرب المذهبية على المخيمات التي دامت سنة وتزيد، ولكن العنقاء الفلسطينية كانت تنهض من تحت الرماد، فالخروج من بيروت بعد قتال دام ثلاثة أشهر لم يحل دون عودة البندقية الفلسطينية إلى النضال.. وكل تلك الأحداث انطوت، وتم توحيد الصف الفلسطيني لوجود رجال في حجم ورؤى جورج حبش.

كان الأخ والصديق جورج حبش مؤمنا بأن الوحدة العربية هي الطريق للتحرير، وأن الاستعمار الاستيطاني محكوم بالهزيمة والاندثار، وأن أمة أنجبت جورج حبش قادرة على أن تنجب قيادات جديدة شابة.. لتطلع فجر الحرية.. في ربيع فلسطيني قريب.

ذكريات مع الحكيم في سنوات التسعينيات

كان أول لقاء لي مع الدكتور جورج حبش في مطلع سنوات التسعينيات، يومها كانت هناك شائعات مغرضة تدور على أنني على علاقة سيئة مع أبو عمار، وأراد أبو عمار أن يعطي للجميع إشارة ببطلان هذه الإشاعة. كنت يومها أنا وابنتي هالة في فندق "الهلتون" بتونس العاصمة وكانت هالة في تلك الفترة تدرس في باريس. وقد وصلنا رسول من أبو عمار يدعونا إلى مقابلته على وجه السرعة.

وذهبنا مع الرسول دون أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون، كنا نعتقد أن أبو عمار يدعونا إلى الغداء كالعادة، ولكننا عندما وصلنا إلى المطار كانت الطائرة تستعد لتنقل أبو عمار من تونس إلى الجزائر. كانت فرحتنا عظيمة لهذه المفاجأة حيث سنستقل الطائرة بصحبة أبو عمار إلى الجزائر.

وعندما هبطت الطائرة بأرض الجزائر كان بانتظارنا سفير فلسطين المخضرم أبو العز الدجاني وزوجته الجميلة ابنة القدس ليلى الدجاني. وما أن وصلنا إلى قصر الضيافة حتى وجدنا أنفسنا أمام مفاجأة كبرى وهي الالتقاء بالحكيم جورج حبش، وأبو علي مصطفى، ونايف حواتمة، وكانت فرحتنا غامرة، وكان لقاؤنا مع الحكيم حميما ودافئا ومرحا.. مثل أجواء أبو عمار التي كان طابعها خفة ظله وسرعة بديهته وتعليقاته المرحة ونكاته.

وكان بسام أبو شريف أول المتحدثين فقال:

إن ريموندا لديها الكثير لتقوله للحكيم، ولكنها لا تستطيع بسبب الرهبة أمام شخصيته، فهي لا تكاد تصدق أنها أمام القائد الثائر الزعيم المقاتل وجها لوجه، كما أنها تحسب ألف حساب لمواقف الجبهة الشعبية في الضفة الغربية وأسلوبها في التعامل مع المعارضين لها.. وخاصة من فتح.

والحقيقة أن تجربتي مع الجبهة الشعبية سيئة جدا في هذا المجال، فقد كانت الجبهة الشعبية توزع الاتهامات لكل من يعارضونها.

وقلت:

- "أنا لي الشرف للتعرف إلى الدكتور جورج حبش، الرجل الأسطورة، والمناضل أبو علي مصطفى ونايف حواتمة. ولكني أرجو من الحكيم أن يسأل أبو عمار: هل نقوم نحن بأي دور سياسي دون موافقته؟ إننا لا

نمارس أي نضال سياسي أو عملي إلا بعد أن نأخذ الضوء الأخضر منه، ونتصرف حسب توجهاته وأوامره، فهو الذي يوجهنا للعمل السياسي والإعلامي، ولا تتم أية اتصالات مع الإسرائيليين التقدميين إلا بمشورته.

حوار مع الأجيال الشابة

والتقطت طرف الحديث ابنتي "هالة" فقالت:

- يا دكتور نحن نعاني كثيرا من اتهامات الجبهة الشعبية، فهم يشنون هجوما كاسحا على الإخوان في فتح، ويتهمون كل من يخالفهم بالعمالة والبرجوازية والطبقية. وكأنهم يريدون أن يكون العمل الفلسطيني السياسي حكرا عليهم.

وكان الدكتور جورج حبش يصغي باهتمام لكل ما يقال عن أبناء الوطن المحتل، وظهرت على ملامح وجهه آيات الحزن. ثم التفت إلى أبو علي وقال:

- إنني حزين لما أسمعه، هل أنت مطلع على ما يحصل مع إخواننا في فتح والمعارضين لسياستنا.

وبعد فترة قالت هالة:

- ليس فقط في الداخل يا دكتور، ولكن على الساحة الأمريكية أيضا، فالخلافات تلقي بظلالها على الجاليات العربية والفلسطينية في أمريكا. وكل ذلك لا يعطي صورة جيدة عن نضال الحكيم والجبهة الشعبية.

وأضافت هالة:

- هذه ليست مبادئ الحكيم، ولا مبادئ الجبهة الشعبية.

وحاول أبو عمار أن يرطب الجو، وأن يخفف من جو التوتر.. فقد كان هناك خلاف دائم وعلى مر السنين بين فتح والجبهة الشعبية.

ودار بعد ذلك نقاش حول الجو السياسي العام في الداخل أي في الأراضي المحتلة.. وطلب "الحكيم" أن نلتقي معه أنا وهالة في جلسة خاصة.

وذهبنا إليه في اليوم التالي في مقر ضيافته في الجزائر فاستقبلنا بابتسامة، وكان ودودا ودافئا وحميما وهو يطل علينا بطلعته البهية الوقورة.

وكان أبو علي مصطفى الرجل الصامت الوسيم يستمع، والحكيم يسأل:

- لماذا كان أبو علي مصطفى صامتا، هل لأن التقارير الخاطئة التي تأتيه من بعض المتشككين ضدي تجعله يصمت ويستمع؟ ماذا يدور بذهنه. أم أن شخصيته العسكرية والسياسية والحزبية تفرض عليه أن يكون صامتا وملتزما.

وكان السؤال الذي بادرني به الحكيم هو:

- هل فعلا إسرائيل تريد سلاما وتريد إعطاء الفلسطينيين حقوقهم؟

مزاعم وأكاذيب وضلال وتضليل

هل فعلا توجد حركة سلام في إسرائيل ومعارضة ويسار إسرائيلي؟

أنا اعرف دوركِ ونضالكِ ومعاناتكِ والعمل الوطني الذي تقومين به. كيف تقيمي نتائجي. هل فعلا توجد حركة صهيونية تريد الاعتراف بمنظمة التحرير وتريد السلام. تكلمت مع الدكتور مطولا عن الأحزاب اليسارية في إسرائيل، ولقاءاتي ومحاضراتي في المجتمع الإسرائيلي، واللقاءات مع كل الأحزاب ونواب الكنيست، وأكاديميين وعسكريين ونواب وأعضاء كنيست من كل الأحزاب. إن المجتمع الإسرائيلي يا دكتور حبش مثل أحجار الموزاييك، عليك أن ترى هذا المجتمع بأكمله ليس على انفراد. وعليك أن تنتقي من هذا المجتمع الأحجار الثمينة الجميلة والمميزة وأن لا تنسى أن هذا الموزاييك هو الذي يجب أن تتعامل معه.

يا دكتور حبش ماذا يحصل على الأرض؟ اليسار الإسرائيلي قد تظاهر سنة 82 في تل أبيب حوالي 400 ألف متظاهر ضد مذبحة صبرا وشاتيلا. ماذا نفهم يا حكيم من هذه المواقف. لم تقم بأي خطأ منظمة التحرير وياسر عرفات بفتح الحوار مع إخواننا التقدميين الإسرائيليين، وأنا هنا لا اعني التقدميين الإسرائيليين "الحزب الشيوعي" فقط أي ركاح، كما تفعل بعض الأحزاب اليسارية الفلسطينية منها الجبهة الشعبية والديمقراطية، أرجو يا دكتور حبش أننعم تلتفتوا إلى هذه الفئة المهمشة من قبلكم لهذه الأحزاب من داخل إسرائيل منها حزب مبام، حزب العمل حيث يوجد ناس ذو ضمير ومبادئ ويؤمنون بالاعتراف بمنظمة التحرير والشعب الفلسطيني، يجب علينا يا حكيم أن نشجع هذه الفئة بداخل المجتمع الإسرائيلي.

عندما أصبحنا غرباء في وطننا

كان دوري وكفلسطينية عشت في دولة إسرائيل وكنت أحمل الجنسية الإسرائيلية حتى سنة 1957 حين تركت والدي ووالدتي في إسرائيل والتحقت بأخوي في الأردن حيث كانا قد ابعدا عن بلدهما بظروف الحرب. من هنا كنت أعرف المجتمع الإسرائيلي حيث عشت في داخل إسرائيل وتعرضت أنا وإخوتي وعائلتي لكل أنواع الاضطهاد وصودرت كل أملاكنا وأصبحنا غرباء في وطننا.

تقول ابنتي هالة: هذا إرهاب فكري يا حكيم. نحن نحبك ونحترمك ونقدرك ونقدر نضالك وأنت بالنسبة لنا قدوة. وقالت بغضب: لماذا يشوهون اسمك ونضالك؟

قال لي: أنا أريد أن اسمع رأي هذا الجيل الصاعد.

والتفت إلى هالة وسألها: كيف تفكر وكيف يفكر الجيل الجديد، بالمقاومة وبالنضال الفلسطيني وبالحلول وبإسرائيل والاعتراف بإسرائيل حيث د. جورج حبش يؤمن بدولة ديمقراطية علمانية. وكان مهتما أن يسمع عن الحياة اليومية لهالة وللمعاناة اليومية في الحواجز، ونسف البيوت، وكانت هالة تشارك في كل النشاطات الإعلامية والتظاهرات والاعتصامات وضرب الحجارة كما كانت تشارك إلى بجانب صديقتها هانيا براميكي عندما أصيبت بجروح خطيرة إثر محاولة قتلها من قبل قناص إسرائيلي في دوار المنارة.

وقبل وداعي للدكتور حبش وأبو علي مصطفى قلت لأبي عمار:

أنا سعيدة جدا بلقاء الحكيم وأرجو أن يظل جورج حبش ونضاله وأفكاره وفلسفته قدوة للإخوان في الجبهة الشعبية وفتح وكل الفصائل.

وكانت هذه المناقشات هي بداية فتح حوارات من أجل الوحدة الوطنية أثناء الانتفاضة، وكان صوت الحكيم عاليا مدويا مع صوت أبو عمار ونايف حواتمة في المجلس الوطني الفلسطيني عندما تم إعلان وثيقة الدولة الفلسطينية في الجزائر.

الحكيم في باريس .. وقامت القيامة!

عندما اشتدت وطأة المرض الخطير على جورج حبش، كان لا بد لكل واحد من محبي هذا الزعيم الكبير أن يتحرك.. أن يحاول إنقاذه من مرضه، أو على أقل تخفيف العذاب الذي يواجهه بشجاعة وصبر.

ولما علمت بذلك اشتد حزني، واعتصرتني موجة من الألم والقلق، وفجأة وجدت نفسي على خط الهاتف مع أبو عمار،

كان يطلبني في إلحاح وحسم. كنت يومها في باريس، وارتفع صوتي وأنا أقول للرئيس أبو عمار: هل هذا ممكن؟ من المؤكد أن باريس أنسب مكان لعلاج الحكيم. ولكن هل هذا ممكن؟

"الحكيم" في باريس، ماذا يحصل في العاصمة الفرنسية؟ لقد جننتم! صاحت صديقتي حميده نعناع، عندما سمعتني .كان ذلك في باريس، وكنا جالسين ذات مساء أنا وزوجي في بيتنا في كوربوفوا، وكانت معنا حميده نعناع، سهى كانت في زيارة لنا في باريس من تونس حيث كانت تعمل مع أبو عمار، وكانت تتنقل بين العاصمة الفرنسية وتونس حيث كانت تعمل على أجندة أبو عمار الفرنسية السياسية والاقتصادية، وعبر الهاتف استفسر أبو عمار عن كل أفراد العائلة. كان هذا من صفاته الإنسانية وأدبه، وطلب مني أن أعطيه "سهى" ليتكلم معها؛ وبعد فترة سمعت سهى تقول لأبو عمار: سأعمل فورا الاتصالات اللازمة. وأضافت قائلة: أبو عمار طلب مني التحرك السريع لكي يتم تأمين مجيء "الحكيم" إلى فرنسا، لأن وضعه الصحي سيء جدا ولم يستجب إبراهيم الصوص ممثل منظمه التحرير الفلسطينية في باريس لطلب أبو عمار لأنه يعرف المخاطر التي تترتب علي الزيارة، وأضاف إبراهيم الصوص مخاطبا أبو عمار إن اللوبي اليهودي ستقوم قيامته، الصحافية المخضرمة، حميده نعناع ضربت كفا على كف وقالت، أبو عمار سيورط إبراهيم الصوص مع الفرنسيين، وسيضع الوضع على شفا الهاوية، واللوبي اليهودي في فرنسا سيهدد بعمليات ضد العرب والفلسطينيين، وستشتعل المعارك مجددا في العاصمة الفرنسية، كما حصل في السابق عندما اغتالت الموساد ممثل منظمه التحرير الفلسطينية محمود الهمشري وعز الدين القلق و شقيق نمر حماد وآخرين حيث كانت الساحة الفرنسية ساحة صراع بين الفصائل الفلسطينية وإسرائيل .

إبراهيم معه حق، قالت حميدة، لا يجوز انتقال الحكيم إلى باريس لأن ذلك سيضع الجميع في خطر، والساحة الفرنسية كانت دائما في وضع لا يحسد عليه، العمليات الإرهابية من قبل الموساد، ومن قبل الجماعات المتطرفة وعلى رأسها جماعة أبو نضال المعارضة لسياسة منظمه التحرير الفلسطينية، وتصفيه الكوادر الأوائل للمنظمة.

سهى لم ترد ولم تسمع أقوال حميدة، ولا نصائح إبراهيم الصوص، التي كان قد أدلي بها لأبو عمار، رغم أن إبراهيم كان سفيره، ولكن أبو عمار كان دائما يستعمل قنوات أخرى، ويفتح الأبواب على عده جبهات، استعملت سهى اتصالاتها، ومعارفها في الحكومة الفرنسية، واكتفت بالقول لإبراهيم زوج أختها ديانا أنا أتلقى الأوامر من أبو عمار.

ذهبت في اليوم التالي إلى زيارة وزيرة الصحة التي كانت رئيسة الصليب الأحمر، السيدة جورجينا دوفوا، وتمت الاتصالات الفرنسية على أعلى مستوي من معارف سهى، وأعطت الحكومة الفرنسية التطمينات للسفير إبراهيم الصوص بأن الحكومة الفرنسية ستعمل اللازم لضمان سلامة الحكيم في الأراضي الفرنسية، وعندما حطت طائرة "الحكيم" في مطار بورجيه العسكري، كانت برفقته زوجته هيلدا

وبسام أبو شريف، فجأة كانت كل كاميرات التصوير والتلفزيونات تضيء المطار المظلم وعندها دخل الدكتور إبراهيم الصوص إلى الطائرة، ومعه سفير اليونسكو عمر مصالحة، وعندما رأت هيلدا كثافة الإعلام وزحمة الأضواء والمراسلين أخذت تصيح بصوت عال وهستيري بكل قواها إنها مؤامرة. أتى به أبو عمار لكي يقتله. كانت تصيح بهستيريا. فكان إبراهيم الصوص وعمر مصالحة يهدئان من غضبها ويطلبان منها أن تتحلى بالهدوء وهي لا تزال غاضبة وتصيح. كان صعب جدا إسكات هيلدا. كان إبراهيم غاضبا جدا لم يعرف من الذي سرب الخبر للصحافة الفرنسية، ووعدها بأن يحقق في هذا الموضوع، لأن الاتفاق كان سريا للغاية بين إبراهيم الصوص ممثل منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الفرنسية .

ثورة الإعلام المضاد والجمعيات المتعصبة

في اليوم التالي طلعت الصحافة بالعناوين الصحفية الرئيسة، زيارة الحكيم الإرهابي جورج حبش إلى فرنسا. وطالبت بعض الصحف الفرنسية وجمعيات يهودية متعصبة باعتقال جورج حبش ومحاكمته. إبراهيم الصوص كان على كاهله مسؤولية كبرى. عرفات وضعه في مأزق. وابتدأ إبراهيم بالاتصالات مع المسؤولين في الحكومة الفرنسية ومع أبو عمار في تونس. كانت مسؤولية إبراهيم حماية الحكيم في الأراضي الفرنسية وحملَ الحكومة الفرنسية المسؤولية.

بدأ الوضع في فرنسا يتدهور ويأخذ وضعا خطيرا حيث كان الشارع مضطربا والمظاهرات في كل باريس، كيف تسمح الحكومة الفرنسية أن يأتي رئيس منظمة إرهابية مثل جورج حبش كي يتلقى العلاج في المستشفيات الفرنسية؟ وكأنه هناك اضطرابات شديدة في الشارع الفرنسي، وكان هناك استنفار في صفوف قوات الأمن والشرطة جاوز عددهم الألفين وانتشروا في جميع شوارع باريس وحول المستشفيات وعلى أسطح المنازل خاصة وأن شمير كان يهدد باختطاف جورج حبش عبر عملية كوماندوز.

وكنا جميعا في حالة ذهاب وإياب متواصلين من البيت إلى المستشفى. كانت برفقتي حميدة نعناع، وابنتي ديانا كانت بقرب هيلدا والحكيم مع إبراهيم. بينما أنا وحميدة أخذنا إذنا خاصا لدخول المستشفى. لأنه ممنوع أي إنسان أن يدخل المستشفى. ولكن أنا وحميدة لا نعرف ماذا نعمل. حميدة أمسكت التلفون وبدأت باتصالاتها على الفور بأصدقاء الحكيم وأعوانه وتلاميذه في كل أنحاء العالم، لأن الحكيم مؤسس حركة القوميين العرب له أصدقاء كثيرون من العالم العربي من المفكرين والسياسيين والحزبيين ومئات من تلاميذه. حبش. ابتدأت بأبو علي مصطفى وقالت له سوف نضعك أنا وريموندا بالجو العام والوضع السياسي الخطير، وواجب التحرك السريع لإنقاذ الحكيم من خطر الاختطاف والقتل وأي عملية يقوم بها الكوماندوز الإسرائيلي.

الاتصال الثاني كان مع علي عبد الله صالح رئيس اليمن. وكان من رفاق وتلاميذ الحكيم، ووضعناه في الصورة والتحرك العربي واتصال آخر مع رئيس الجزائر والتي كانت حميدة تعرفه جيدا لأنها كانت مناضلة. ومن ثم الاتصال بكمال جنبلاط ومع حركة اليسار في لبنان والعالم العربي ووضعتهم في صورة الوضع. وكانت التلفزيونات والاتصالات تعمل في نفس الوقت. وزيرة الصحة الفرنسية استقالت ومعها بعض أعضاء من الحكومة، وعلى أثر هذا استقالت الحكومة نفسها بقيادة اديت كريسون.

وتحركت الجماهير المحبة للحكيم

أصدقاء الجبهة الشعبية في كل العالم كانوا قد تحركوا والحكومات العربية في كل أنحاء العالم تحركت والجمعيات والطلاب والمثقفون والأحزاب اليسارية للدفاع عن الحكيم . أنا اتصلت بمكتبي في القدس المكتب الفلسطيني ومجلة العودة مع الزميل إبراهيم قراعين وطلبت منه التحرك الفوري والسريع مع قيادة الجبهة الشعبية التي يمثلها عبد اللطيف غيث والتي كان لها ثقل في القدس والضفة الغربية. وفورا حضروا إلى المكتب وذهبت قيادة الجبهة الشعبية إلى القنصل الفرنسي العام حيث أعطوه رسالة هامة للحكومة الفرنسية بأن أي مس بالحكيم وأي خطر على الحكيم سيحصل له في العاصمة الفرنسية ستكون له نتائج خطيرة. نحن باسم الجبهة الشعبية لن نتحرك من هذا المقر وسنعتصم في هذا المقر إلى أن يزول الخطر عن الحكيم. وسيكون زلزال إذا مس الحكيم أي خطر. إبراهيم أعطاني التلفون، وأنا بدوري اتصلت مع قيادة الجبهة الشعبية وأخبرناهم بأننا اتصلنا مع أبو علي مصطفى في سوريا وكان محظورا الاتصال به.

هيلدا: لن تدخل إلى غرفة الحكيم

عند رجوعنا إلى المستشفى كانت لا تزال هيلدا تصرخ. هيلدا الشابة المناضلة الرفيقة الجميلة جدا وقفت أمام القاضي برينغواي وقالت له: لن تدخل إلى غرفة الحكيم إلا على جثتي. لأنه عندما أراد أن يدخل غرفة الحكيم للتحقيق معه بخصوص الإرهاب في أوروبا وفي فرنسا من قبل الجبهة الشعبية. على أثر موقف هيلدا لم يدخل برينغواي إلى غرفة الحكيم.

عندما نزلنا إلى الشارع هرع إلينا الصحافيون لكي يعملوا معنا مقابلة بين الجموع والحراسات والمظاهرات والثكنة العسكرية، فأعطينا مقابلة لصحيفة "لاموند" أكبر صحف فرنسا. حيث قلنا لهم إن الحكيم هو رمز نضال الشعوب المضطهدة، ورمز الثورة الفلسطينية، ومحرك الضمير العالمي لقضية شعبه. وهذا بالنسبة لنا يمثل للعالم كله الثورة ضد الظلم وضد العبودية، ولن ينسى ابن مدينة اللد الجثث والجرحى والقتلى التي قام بها الجيش الإسرائيلي في مدينة اللد، ولن ينسى التهجير الإجباري وطريق الآلام التي قطعها الطبيب الشاب من اللد إلى بيرزيت مشيا على الأقدام هو وأهالي يافا واللد والرمله حيث توفى الكثير منهم على الطريق وماتوا من العطش والجوع على طريق الآلام.

مرض الحكيم حرك القضية الفلسطينية في كل الأوساط العالمية. وعندما دخلت إلى الحكيم كي أودعه قلت له: لا تزعل من مرضك يا حكيم، لأنك في مرضك خدمت القضية الفلسطينية ووضعتها على الساحة الدولية وبحب أقول لك لا تتصور مدى محبة الناس لك وتقديرها لك في كل أنحاء العالم.

أنت اسطورة يا دكتور جورج.

(2013/2/8)

مروان البرغوثي

خمسة وثلاثون عاماً مناضلاً وقائداً أجمعت على مصداقيته كل الفصائل الفلسطينية.

ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي أضاءها بكتبه ومؤلفاته وصموده وثباته على المبدأ.

ما أهون السجن عليَّ وحيداً في زنزانتي

وما أصعبه عندما يشتعل القلب شوقاً إلى أمي وقريتي وأشقائي وزوجتي وأبنائي.

حكموا عليه بالسجن خمسة مؤبدات وأربعين عاماً فقال:

إذا كان ثمن حرية شعبي هو فقداني حريتي، فأنا مستعد لدفع الثمن.

موفاز وشارون والياكيم روبنشتاين درسوا ملفاته طوال ثلاثين عاماً

فقرروا اعتقاله إلى الأبد.

ملحمة نضال وطني

مسيرة المناضل مروان البرغوثي تشكل ملحمة نضال وطني وإنساني وقومي شديدة الخصوصية، شديدة التأثير، شديدة النقاء والصفاء والطهارة.

لقد هزني تفاصيل حياة هذا المناضل الشاب الرقيق المهذب، الذي كان يتردد على بيتي ضمن العديد من رموز الحركة الوطنية بمن فيهم أساتذة جامعة بير زيت وزملاؤه ورفاقه في اتحاد الطلبة بالإضافة إلى العديد من الشخصيات من رموز الحركة الوطنية من شتى الاتجاهات، كان ذلك في عقد الثمانينيات، عرفته مؤدبا صامتا قليل الكلام، هادئا، ولم أكن أتصور أن هذا الإنسان الوديع الرقيق يختزن كل هذه الطاقات من القدرة على المقاومة والتحدي والإرادة والصبر والثبات على المبدأ.

تجربة مروان النضالية لامست أعماق وجداني، وهزت كياني، وأجرت الدموع في عيني، فلم أستطع أن أملك زمام نفسي، ولم أستطع أن أسيطر على أفكاري، وأنا بطبيعتي شديدة الحساسية والتأثر بكل ما أقرأه.

وتأسرني الكلمات، ويستولي عليَّ الأسلوب وأهتز بعنف عندما تكتسحني التجارب الإنسانية الفريدة، وكأي إنسان يتأثر بما يقرأه وينفعل به خاصة إذا كان يتصل بقضايا حساسة تتناول مصير الوطن

ومستقبل الشعب، فإنني أتصور عبر مخيلتي هذا الذي قرأه كما لو كان شريطا سينمائيا حافلا بالأحداث والصور.

كان واحداً من أبنائي

من هنا قرأت وعايشت مسيرة مروان الذي أعتبره واحدا من أبنائي، حيث كان يتردد على المكتب الفلسطيني في القدس باعتباره منبرا إعلاميا هاما للقضية الفلسطينية نخبة كبيرة من الشباب ومن طلبة اتحاد جامعة بير زيت بمن فيهم مروان البرغوثي وسمير صبيحات وأحمد الديك ومفيد عبد ربه وخالد اليازجي وآخرين، وكثيرا ما كانوا يلتقون في بيتي مع كل الرموز الوطنية مثل كريم خلف وإلياس فريج وإبراهيم الطويل وبشير البرغوثي وخالد البطراوي وجميل الطريفي ورؤساء المجالس البلدية بالإضافة إلى العديد من القيادات الوطنية من نابلس والخليل ودير دبوان وبير زيت وغيرها. وكان مروان البرغوثي هو العقل المفكر والمحرك لكل هذه النشاطات بمشاركة مجلس الطلبة الذي تم انتخابه رئيسا له ثلاث دورات متتالية، وكان كثيرا ما يتم نشر هذه التوجهات عبر مجلة "العودة" أو تغطيتها من خلال النشاطات الصحافية في المكتب الفلسطيني في القدس الذي كان يعتبر الناطق الرسمي باسم منظمة التحرير حيث تنقل الأخبار على وجه السرعة إلى كافة العناوين والفعاليات في منظمة التحرير.

وأذكر أن انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الذي كان سيعقد في عمان موضع خلاف ورد، فقام طلبة جامعة بير زيت بمظاهرات عنيفة لتأييد انعقاد هذا المؤتمر بناء على موقف القيادة، وفي أثناء هذه التظاهرات حضرت القوات الإسرائيلية وحاولت إنهاء هذه المظاهرات، وعلى الأثر سقط كثير من الجرحى في الحرم الجامعي واستشهد الطالب شرف الطيبي.

وأذكر أنني ذهبت بسيارتي في قافلة من الباصات متجهة إلى خانيونس مسقط رأس الشهيد وكان يواكب هذه القافلة مجموعة كبيرة من الإعلاميين والصحافيين وممثلي المؤسسات الوطنية والشخصيات الهامة وذلك لتقديم واجب العزاء في الشهيد ومشاركة أهله في هذا المصاب الجلل. وعندما عدنا من خانيونس جاء الشباب إلى بيتي وكان من رأي مروان أن نبحث عن فكرة نكرم بها ذكرى الشهيد، ومن هنا قمت بالاتصال مع محمد صلاح (أبو صلاح) الذي كان مديرا للمكتب الإعلامي التابع لمنظمة التحرير في قبرص وقلت له: أنا سأعطيك مروان البرغوثي لتتحدث معه لأن لديه رسالة هامة يريد أن يوصلها إلى الرئيس ابو عمار والقيادة الفلسطينية، وابلغ مروان ابو صلاح ان شباب بيرزيت يريدون توصيل رسالة إلى الرئيس أبو عمار، مضمونها بأن يسمى هذا المجلس باسم الشهيد شرف الطيبي. وقد استمع الجميع إلى صوت مروان وهو ينقل هذه الرسالة إلى القيادة الفلسطينية. وعند افتتاح المجلس قال أبو عمار: إنني أعلن افتتاح المجلس الفلسطيني الـ 17 باسم الشهيد شرف الطيبي بناء على طلب زملاء الشهيد ورفاقه في جامعة بير زيت وإخواننا في الأرض المحتلة. والواقع أن صوت أبو عمار كان جهوريا قويا ترددت صداه في قاعات الجلسة وهو يعلن أنه يكرم بهذه الصورة أهالي الضفة الغربية والمناضلين الفلسطينيين القابضين على الجمر. وشعر زملاء الشهيد بأن الرئيس استطاع أن يوثق هذا الحدث التاريخي وأن يحفظ اسم الشهيد في ملفات الخلود ما جعل زملاء الشهيد ورفاقه في حالة من الفرح والانتصار رغم ما كان يشوبهم من مشاعر الحزن الشديد على فقدهم زميلهم الشهيد.

ملامح شخصية قائد مُبشر

وهكذا كنت أرى في ملامح وشخصية مروان بوادر شخصية قيادية وطنية تتمتع بالمبادرة والحكمة والإصرار والشجاعة، ولكن إجلالي وتقديري له يفوق كل علاقة إنسانية قائمة على صلة الدم أو النسب.. أحببت في مروان هذه الروح القتالية الباسلة وهذه الشجاعة الفائقة، وهذا الصمود الأسطوري أمام الجلاد، وأكبرت فيه هذا المشوار المارثوني من الكفاح والعذاب.

مروان أنموذج إنساني متميز، عبقرية نضالية وثورية وإنسانية من أبرز فصولها، الدراسة والجد والمثابرة للحصول على أرقى الدرجات العلمية والوصول إلى شهادة الدكتوراه جنبا إلى جنب مع النضال الثوري من أجل الوطن لكي ترفع زهرة من زهرات فلسطين أو شبل من أشبالها علم فلسطين على روابي القدس والأقصى وكنيسة القيامة.

تحمل آلام السجن وظلام الزنازين وظلم السجان وطغيانه، ليس ليوم أو شهر أو سنة أو عدة سنوات وإنما على امتداد عمره منذ أن كان في الثامنة عشرة من عمره حتى هذه اللحظة من العمر حيث شب أبناؤه عن الطوق وحصلوا على أرقى الدرجات الجامعية.

رؤية وطنية أبعد من الفئوية

ومما يكمل الصورة لهذا المناضل العظيم، حرصه على الوحدة الوطنية، وقدرته على التأثير في الآخرين، وإيمانه بأن فلسطين توحد ولا تفرق، تقوي ولا تضعف، تحيي ولا تهدد، تصون ولا تبدد، تنتصر ولا تهزم، تقاوم ولا تنكسر.

مروان البرغوثي أصدرت عليه محاكم الاحتلال حكما بالسجن خمس مؤبدات وأربعين عاما، دون أن تثبت عليه أي ذنب أو جريمة سوى مقاومته الاحتلال ومطالبته بحرية وطنه.

إن أكثر ما يشدني وأحرص على إبرازه في هذه السلسلة من المقالات هو النماذج الإنسانية الرفيعة، النماذج الإنسانية التي تفيض نبلا وشجاعة وصدقا ووطنية وانتماء وتسجيل أحداث التاريخ وملابساتها الدقيقة التي كنت شاهدة عليها بموضوعية وأمانة.

ليست المناصب ولا الشهادات، ولا السلطة، ولا الثراء، ولا العنترية هي التي تصنع البطل الأنموذج، إنها المواقف الإنسانية النبيلة التي تشع نقاء وطهارة وشجاعة وصبرا واحتمالا وإيمانا، إنها التضحية في سبيل الوطن بصبر وثبات وإخلاص وتواضع.

وحظ مروان البرغوثي من هذه القيم عظيم، بل إن هذه الصفات هي في مجملها ما يصنع هذا الشاب الثائر الذي يحتل مساحات من الحب والإكبار والإجلال في نفوس أبناء شعبه.

ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي

في كتابه الفريد "ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي" أقرأ هذه السطور وملء جوارحي ومشاعري انفعالات ودموع "وصلت إلى سجن أيالون عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وكما هي العادة، بعد الوصول جرى تفتيش دقيق للأغراض القليلة التي في حوزتي، ويجري التفتيش عبر أجهزة الكترونية، ثم

بعد ذلك يتم تفتيش الجسم كاملا وهو عارٍ تماما، ويجري تفتيش الملابس والأغراض قطعة قطعة مع ما يرافق ذلك من الإذلال والقهر والانتظار مقيدا لساعات طويلة جدا".

كم هو صعب على النفس أن تتصور عذاب هذا الشاب المتفتح للحياة، المثقف، الحساس، المناضل، القائد، كيف هان على سجانه أن يتجرد من كل إنسانية، كيف هان عليه أن يذبح كل القيم والأخلاق والمفاهيم بهذه الصورة الوضيعة التي تخلو من ذرة إنسانية أو نسمة أخلاقية أو لفتة وجدانية.

وفي موضع آخر كتب مروان البرغوثي:

"بعد دخولي الزنزانة رقم 1 في سجن أيالون وكان ذلك في كانون الثاني عام 2003 والحقيقة وعلى خلاف الكثيرين فإني أستمتع بفصل الشتاء حيث عشت كثيرا من فصول الشتاء في فترة الطفولة والشباب في قريتي، وكنت أستمتع بمناظر الأشجار الغارقة بمياه الأمطار وتفجر الينابيع والبرك وفيضان الوديان الرائع.

ولا أزال في زنزانتي أحمل معي هذه الذكريات والصور الجميلة للقرية في فصل شتائها. وأعيش في ذاكرتي مشهد الجبال والتلال والشوارع والأشجار والينابيع، وأسمع صوت الرياح وأشم رائحة الزعتر في الربيع".

بهذه الذكريات الرائعة التي يستحضرها المناضل في زنزانته الانفرادية الرطبة المعتمة المحدودة يستطيع أن يهزم مشاعر الوحدة والإحباط ويكسر إرادة السجان الذي يريد أن يحطم نفسيته ومشاعره. بل يستطيع بوحي من قوة إرادته أن يخلق لنفسه لحظات من السعادة والطمأنينة والتوافق مع النفس رغم كل مشاعر الألم والقسوة التي تحيط به، وكما يقول إيلياء أبو ماضي، الشاعر المهجري المعروف:"إنما الغبطة فكرة".

في انتظار ضوء الشمس ونور القمر

ويقول مروان: "أخيرا استطعت أن اعرف تفاصيل الزنزانة، حتى تعودت هي عليَّ. أعرف الآن مواعيد تسلل ضوء الشمس لاغتسل بالحياة، أعرف متى يدخل نور القمر إلى الزنزانة لأقيم معه علاقة حميمة ويصبح صديقي". بهذه الروح الشاعرية الرومانسية يجمل مروان البرغوثي حياته، ويرسم لنفسه درب الأمل والإشراق والتفاؤل.

لهفي عليك أيها الشاب الوديع الجميل، القائد الوسيم المثقف، لهفي عليك وأنت في عتمة الزنزانة مع البرد والوحدة والعزلة تستنجد بذاكرتك وتستحضر صور ورؤى ومظاهر الحياة في قريتك كوبر لتجعل الحياة محتملة.

أي عذاب وأي قسوة وأي ألم وأي كراهية وحقد يصبها هؤلاء العتاة المجرمون على رموز الإنسانية والنضال والشجاعة والبطولة.

واقرأ السطور الآتية وأنا لا أملك دموعي:

"إن خروجي للفورة حيث الساحة الصغيرة والدقائق القليلة من الصراخ على الزملاء هي الفرصة الوحيدة للتحدث واختبار الصوت كي لا أنسى الحديث لأن الدوران في هذه الساحة الصغيرة أو البئر العميقة يجعلك تشعر بأنك تفقد جزءاً من طبيعتك الإنسانية، حيث تكابد معاناة وقهرا وحرمانا من الحرية والحياة العادية.

لا بد من التأمل العميق والتفكير، لا بد من استدعاء كل مقومات الصمود الذاتي وهي كثيرة كي لا يطمئن السجان إلى أن البئر مغلقة وأن الصوت صار صدى"

وبعد ربع قرن أعود ثانية للعزل

"أعيش الآن وحدي في زنزانة موحشة، ومعتمة وما كان يخفف عني قليلا أنها ليست المرة الأولى التي أعيش فيها في العزل الانفرادي، فقد سبق أن عزلت انفراديا عام 1978 في سجن رام الله.

تذكرت تلك الأيام التي يفصلني عنها ربع قرن من الزمن.. في المرة الأولى كنت في بداية الرحلة النضالية، كانت بداية أحلامي بالحرية ضربا من الرومانسية، أما الآن فأنا احلم بلقاء الأم الحبيبة والأشقاء والأخت الغالية والأهل، أحلم بشوارع القرية والأصدقاء وإلى الزوجة والأولاد الذين يشتعل قلبي وعقلي ووجداني اشتياقا إليهم".

إن هذه العبارات القليلة التي تفيض شجنا ووجدانا وحبا صادقا تجعلنا نتعايش مع مشاعر هذا الإنسان المناضل ونشاركه أشجانه وأحزانه ونتخيله بيننا ونستبطن مشاعره وأحاسيسه حيث يهزوجدان كل منا.

صدق المعاناة وحرارة التجربة تسجل بحروف من نور ونار على صفحات قلوبنا، وتسجل في صفحات التاريخ نبض النضال الفلسطيني وشجاعته وشاعريته وشفافية الأبطال المناضلين ممن يتعذبون بحب وطنهم وبذلك نقدم لهم كل مشاعر الحب والتواصل.

نبض العدالة والصدق

ولعل هذه الحقائق التاريخية والأدبية تدخل في صفحات التاريخ كأصدق ما تكون دلالة على عدالة قضيتنا، وعلى ظلم وغطرسة وجبروت العدو وطغيانه.

أن نبض الواقع وحرارة التجربة وصدق المعاناة تصنع الحقائق المؤلمة التي يجب أن نحفظها في صدورنا ووجداننا ونقرأها ونتمثلها فهي أصدق من أي رواية وأبلغ من أي قصيدة وأعظم وأنبل وأجدى من كل نتاج عابر على هامش حياتنا الثقافية والفكرية والوجدانية.

وفي حين تتبدل الرؤى وتتغير المواقف وتتعدل النظريات وربما الاستراتيجيات إلا أن حصيلة ما أبدعه مروان البرغوثي يشكل تراثا وثائقيا وفكريا يضج بالصدق والأصالة والخلق والإبداع ما يجعله يحتل منزلة فريدة كتراث تاريخي نضالي من جهة، وكفكر ثوري من جهة أخرى لأن ما كتبه مروان جاء من وحي مشاعره الإنسانية الواقعية المتفجرة ومن خلال وجدان إنساني وضمير حي ورؤية نضالية لمثقف دارس عايش التاريخ والأحداث وشارك في النضال قائدا وجنديا ومحاربا.

من الابتدائية إلى الدكتوراه

ولد مروان البرغوثي في قرية كوبر إلى الشمال الغربي من مدينة رام الله وكان ذلك يوم 6 حزيران 1958 وما أن بلغ الخامسة عشرة من عمره حتى انخرط في حركة فتح، وفي عام 1976 ألقت القوات الإسرائيلية القبض عليه وزجته في السجن طوال خمس سنوات خلف القضبان. ولم تستطع قوات الاحتلال أن تباعد

بينه وبين المدرسة، فقد حصل على الثانوية العامة داخل السجن وأضاف إليها تعلمه اللغة العبرية والفرنسية والانجليزية، كما انكب على القراءة، فزاد وعيه واتسعت مداركه وعمقت ثقافته.

وما أن انقضت سنوات السجن الطويلة الأولى بين عامي 1978 وعام 1983 حتى التحق بجامعة بير زيت ليحصل منها على درجة البكالوريوس في التاريخ والعلوم السياسية.

وفي جامعة بير زيت تم انتخابه كرئيس لمجلس الطلبة لثلاث دورات متعاقبة، ومن ثمّ حصل على درجة الماجستير في العلاقات الدولية وعمل حتى اعتقاله محاضرا في جامعة القدس في أبو ديس.

وفي عام 2010 حصل على شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من معهد البحوث والدراسات التابع لجامعة الدول العربية وكان موضوع رسالة الدكتوراه: "الأداء التشريعي ومساهمته في العملية الديمقراطية". وقد كتب مروان رسالته هذه وهو في سجن "هداريم" واقتضى إيصالها إلى خارج السجن سرا نحو عام كامل عبر محاميه.

سنوات الجمر والرماد

يعتبر مروان البرغوثي أحد الرموز الفلسطينية المثقفة الواعية، وهو صاحب رؤية نضالية متبصرة حكيمة وهو واحد من قياديي حركة فتح التي تشكل العامود الفقري لحركة المقاومة الفلسطينية وهو زعيم وقائد بكل مفاهيم الكلمة ودلالاتها ولا يبتعد قلامة ظفر عن مركز القيادة، رغم أنه محكوم عليه أن يقبع في السجون الإسرائيلية لخمسة أحكام مدى الحياة وأربعين سنة.

عندما اندلعت الانتفاضة الأولى عام 1987 كان مروان من القيادات التي شاركت في هذا الحدث التاريخي الذي أذهل العالم حيث يقاوم الشعب المحتل رموز القوة والغطرسة والعدوان بالعنف السياسي وبالحجر، وقد زلزلت الانتفاضة قواعد الاحتلال ومفاهيمه، وتم رصدها وتوثيقها في معاجم العالم السياسية واللغوية كظاهرة نضالية بحروفها العربية وبهذا سجل أطفال الحجارة صفحات رائعة من البطولة والفداء دفاعا عن ارض الوطن وتصميما على تحرير كامل ترابه من الاحتلال والطغيان.

وتعرض مروان البرغوثي في خضم أحداث الانتفاضة الأولى للاعتقال حيث تم القبض عليه وترحيله إلى الأردن حيث مكث هناك سبع سنوات، ويسجل التاريخ بصدق أن مروان البرغوثي هو مهندس الانتفاضة الأولى، وعقلها المدبر، وهو رمز لمقاومة الاحتلال استمر نضاله على امتداد ثلاثين عاما اتسمت بالالتزام والمثابرة.

في عام 1986 تم إطلاق سراحه ولكنه أصبح مطاردا من قوات الاحتلال إلى أن تم اعتقاله وإبعاده خارج الوطن بقرار من وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك، اسحق رابين، وعمل البرغوثي بعد إبعاده مباشرة إلى جانب القائد أبو جهاد الذي كلفه بمسؤولية متابعة تنظيم الأراضي الفلسطينية وظل مروان يعمل إلى جانب خليل الوزير لفترة قصيرة حتى استشهاده، وكان قد رافقه في آخر زيارة له إلى ليبيا حيث تم اغتياله بعد عودته بعدة أيام.

مناضلاً في المنفى

استمر البرغوثي في موقعه في المنفى عضوا في اللجنة العليا للانتفاضة في منظمة التحرير الفلسطينية، التي تشكلت من ممثلي الفصائل خارج الأراضي الفلسطينية، كما عمل في اللجنة القيادية لفتح (القطاع الغربي) وعمل مباشرة مع القيادة الموحدة للانتفاضة.

وفي عام 1989 انتخب عضوا في المجلس الثوري لحركة فتح وكان أصغر الأعضاء سنا.

محاولات اغتياله

في نيسان/ ابريل عام 1994 عاد مروان إلى ارض الوطن على رأس أول مجموعة من المبعدين ليتم انتخابه نائبا لأمين سر الحركة فيصل الحسيني، وبدأ يعمل على إعادة تنظيم الحركة على أساس تكريس الديمقراطية.

وفي عام 1996 انتخب عضوا في المجلس التشريعي عن دائرة رام الله، وعمل بإخلاص من أجل سيادة القانون وتعزيز السلطة القضائية واستقلالها وذلك بهدف استكمال معركة الحرية والاستقلال.

تعرض البرغوثي إلى أكثر من محاولة اغتيال ونجا منها، وفي إحدى هذه المحاولات أطلقت عليه وعلى مساعديه صواريخ موجهة وهو خارج من مكتبه في رام الله، كما تم إرسال سيارة ملغومة خصيصا لاغتياله، وعندما تم اختطافه قال شارون: "إنه يأسف لإلقاء القبض عليه حيا، وكان يفضل أن يكون رمادا في جرة". أما شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلي في تلك الفترة فقد علق على اعتقاله قائلا: "إن اعتقال البرغوثي هو هدية عيد الاستقلال التي يقدمها الجيش للشعب الإسرائيلي، وإن اعتقاله ضربة قاتلة للانتفاضة". أما المستشار القانوني للحكومة الياكيم روبنشتاين فقد قال: إن البرغوثي مهندس إرهابي من الدرجة الأولى وقد راجعت ملفاته طوال ثلاثين عاما فوجدت أنه من النوع الذي لا يتراجع، ولذلك يتوجب أن يحاكم بلا رحمة وأن يبقى في السجن حتى موته".

مستعد لدفع الثمن

وبتاريخ 2004/5/20 عقدت المحكمة المركزية في تل أبيب جلستها لمحاكمة البرغوثي، وكان القرار بإدانته بخمسة تهم بالمسؤولية العامة لكونه أمين سر حركة فتح في الضفة، ولكون كتائب شهداء الأقصى تابعة لفتح فإن أي عمل عسكري قامت به يتحمل البرغوثي مسؤوليته.

وقد طالب الادعاء العام بإنزال أقصى العقوبة بحق البرغوثي وطالب بحكمه بخمسة مؤبدات وأربعين عاما. وعندما سمع مروان الحكم خاطب القضاة قائلا: إنكم بإصداركم هذا الحكم غير القانوني ترتكبون جريمة حرب تماما مثل طياري الجيش الإسرائيلي الذين يلقون القنابل على المواطنين الفلسطينيين.

وأضاف البرغوثي:

"إذا كان ثمن حرية شعبي فقدان حريتي فأنا مستعد لدفع هذا الثمن".

وقد ترأس مروان البرغوثي القائمة الموحدة لحركة فتح في الانتخابات التشريعية الفلسطينية الثانية وكان ذلك عام 2006. ولا يزال سبّاقا إلى كل عمل وطني قوامه الوحدة الوطنية ما جعل جميع الفصائل الفلسطينية تثق به وتعتبره قائدا مخلصا، ولا يدري أحد لماذا لم يفرج عنه في قائمة التبادل بين حماس وإسرائيل التي ارتبطت باسم الأسير الإسرائيلي جلعاد شاليط رغم مرور عشر سنوات على اعتقاله.

كتب ومؤلفات

وقد صدر للبرغوثي مجموعة من الكتب خلال سنوات الأسر من أهمها ما يأتي:

- الوعد.

- الوحدة الوطنية وقانون الانتصار.
- مقاومة الاعتقال- وقد صدر بالاشتراك مع عبد الناصر عيسى وعاهد أبو غلمة.
- ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي.
- العلاقات الفلسطينية الفرنسية.

لمحات إنسانية

كان مروان البرغوثي الابن الثالث في الترتيب بين عائلة مكونة من ستة أشقاء، وهو متزوج من المحامية الفلسطينية فدوى البرغوثي، والتي تعمل منذ سنوات طويلة في المجال الاجتماعي وفي مجال المنظمات النسائية، إلا أنها برزت كوجه سياسي وإعلامي بعد اختطاف زوجها من قبل الإسرائيليين، حيث تمكنت بجدارة من الدفاع عن زوجها وحمل رسالته في كافة الدول ووسائل الإعلام المحلية والدولية ولهذا الغرض تجولت في أكثر من خمسين بلدا متحدثة عن المقاومة والانتفاضة، ناطقة باسم زوجها وجميع الأسرى والأسيرات في سجون الاحتلال.

وللبرغوثي ولزوجته أربعة أبناء، بنت وثلاثة أولاد وهم: القسام الابن الأكبر، وربى، وشرف، وعرب. وقد أنهوا جميعهم دراساتهم الجامعية، ويقوم شرف بدراسة الماجستير في بريطانيا.

وقد اعتقل القسام أكثر من مرة، ففي المرة الأولى عندما قرر مروان أن يرشح نفسه للرئاسة، وفي المرة الثانية عندما رفضت حماس الإفراج عن شاليط، وبدورها رفضت إسرائيل الافراج عن مروان واعتقلت ولده قسام.

فدوى البرغوثي تكامل عضوي وثوري

ولإلقاء مزيد من الضوء على شخصية فدوى نتوقف قليلا في هذه العجالة عند أفكارها ورؤاها التي أدلت بها لبعض المنابر الإعلامية.

تقول فدوى:

"أنا ابنة قرية كوبر من قرى مدينة رام الله، من أسرة بسيطة، كان والدي يعمل في البوليس الأردني، وكان حريصا على أن أكمل أنا وأختي وإخواني الدراسة، فكان يوصّلنا كل يوم بسيارة خاصة إلى مدرسة رام الله الثانوية لمدة ست سنوات، وكان يتحمل هذا العبء المادي بروح طيبة، وقد توفيت والدتي منذ سنوات ونحن لا نزال في عهد الصبا الباكر.

وعندما اعتقل مروان كان في الثامنة عشرة من عمره، وكنت في الرابعة عشرة من عمري، وقبل الإفراج عنه بستة شهور تقدم أهله لخطبتي وهو داخل السجن، ووافقت رغم تحذيرات والدي لأن مروان اختار طريق النضال وهي طريقة مجهولة محفوفة بالأخطار.

وفي عام 1983 استطعنا إتمام الزواج.

قال لي مروان: "لن أكذب عليكِ أو أقول لك إني سأترك النضال.. ممكن أن أستشهد أو اعتقل ولكني أعدك أني سأترك النضال إذا خرج المحتل من أرضنا".

كان مروان يشجعني دائما على مواصلة تعليمي الجامعي، فبعد حصولي على درجة البكالوريوس في المحاماة عام 1997 حصلت على درجة الماجستير من جامعة القدس- أبو ديس عام 2003، وأذكر أنه بعد

أن فرغت من مناقشة رسالة الماجستير، علمت أن (قسام) جاء من القاهرة لتكون زيارته مفاجأة لي يوم مناقشة الرسالة، ولكنهم اعتقلوه وحكموا عليه بالسجن أربع سنوات.

فتأمل، كيف يحرمنا الاحتلال من لحظة فرح، أو وميض ابتسامة، أو نشوة انتصار.

تلقيت دعوة من البرلمان الأوروبي لشرح قضية الأسرى، ولكي أوضح أبعادها، فلبيت النداء مسرعة، وعلى امتداد اثني عشر عاما وأنا أناضل من أجل هذه القضية العادلة، زرت خمسين دولة ووقفت على منصات البرلمانات العالمية لتدويل قضية الأسرى، تركت بيتي وأولادي ومكتبي لأُسمع صوت أسرى الحرية إلى كل ذي ضمير أو مبدأ.. إلى كل إنسان حر، مثقف، نظيف في هذا العالم.

***

وللحديث بقية..

فالأخت فدوى أنموذج رائع، مضيء للمرأة الفلسطينية المعاصرة، إنها عضو المجلس الثوري لحركة فتح، ومحامية لامعة، وأم لأربعة أولاد اعتقل والدهم وهم بين الحادية عشرة والسادسة عشرة، فكانت لهم الأب والأم وتحملت مسؤولية تربيتهم بصبر وشجاعة ومثابرة وهم الآن يحملون الدرجات الجامعية المشرفة.

أما عن زياراتها لمروان فتقول: إننا نستطيع أن نراه كل خمسة عشر يوما مرة واحدة ولمدة خمس وأربعين دقيقة من خلف الزجاج، وهاتف بيننا بحيث لا نستطيع أن نسمع أصوات بعضنا إلا عن طريق ذلك الهاتف.

وما يهون علينا هذا العذاب إيماننا بأن مروان سيخرج منتصرا يوما.. لأن إيمانه بشعبه وقضيته أقوى من كل ألوان القمع والاضطهاد والظلم الذي يمارس من قبل فئة باغية ضالة، ذلك لأن مروان يحب وطنه ويسعى إلى العدل والحرية والنور.

(2013/2/15)

سامر العيساوي

وحيداً يحارب القهر والعدوان بسلاح الإرادة والإيمان والثبات على المبدأ.
دق جدران الخزان بقوة ليوقظ المد النضالي الشعبي في ربيع فلسطين.
سيدة من العيساوية كأنها الخنساء ستة من أولادها ضحايا الأغلال والرصاص
بمن فيهم (سامر) كتيبة الحشد والمقاومة.
كَسْرُ الحدود في مشوار بين العيساوية ورام الله عقوبته عشرون عاماً
من السجن والاعتقال.

وقفتم بين مــوت أو حياة فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يدني الحقوق ولا يحقُ
ففي القتلى لأجيال حــياة وفي الأسرى فدى لهم وعتقُ

كوادر الحركة الأسيرة تشكل أشرف ظاهرة نضالية في الكفاح المعاصر، وتؤمن بهذه الحقيقة التي لخصها أمير الشعراء أحمد شوقي ببلاغة ومصداقية عالية، وحكمة خالدة مستخلصة من تاريخ الشعوب والنضال.

والثائر الأسير البطل سامر طارق العيساوي أنموذج حي هو ورفاقه لهذه الظاهرة الرائعة في تاريخ نضالنا الفلسطيني على امتداد ستين عاما. فهم من أبناء شعبنا الذين وضعوا لأنفسهم هدفا ساميا في الحياة فإما الشهادة وإما النصر. ويخطئ من يظن أننا في حالة ضعف وانكسار، أو أننا الطرف الأضعف في معادلة الصراع القومي مع العدو، على عكس ذلك تماما، نحن الأقوى، يكفي أن نقول "لا" لنشهد العالم على أننا على حق وأننا لن ننكسر ولن نهادن.

نضال الأسرى الظاهرة والدلالة

إن أروع ما في إضراب الأسرى عن الطعام وتحملهم للآلام والضنى والمعاناة والقهر والإذلال أروع ما فيهم هذه المعاني النبيلة الرائعة التي يجسدها بصورة بطولية سامر العيساوي الذي ضرب مثلا رائعا في الصمود والتحدي واقترب من آفاق الشهادة، ولكنه ظل يرفع لواء الصمود والإرادة والتحدي بصورة

جعلتنا جميعا في حالة من الانطواء والدفاع عن النفس ومحاسبتها، فكيف يكون هذا البطل بمثل هذه الجرأة والشجاعة والصمود في حين نمضي نحن في الحياة بصورة روتينية نتعارك على أشياء صغيرة ونتفانى من أجل أعراض تافهة.

إن سامر يدق ناقوس الحياة ليوقظنا، ويضعنا أمام ضمائرنا، وأمام مسؤولياتنا، انه بكل بساطة يتلقى أقسى أنواع العذاب والألم بصبر وشجاعة واحتمال، لا تهمه أعراض الدنيا، ولا يسعى إلى دنيا الأعمال والمناصب والثراء، ولا يقاتل من أجل الكرسي، ولا يحارب من أجل منفعة أو وجاهة أو سلطان. إنه يعمل ولا يتقول، يموت ولا يستسلم، يرفع راية فلسطين والقدس ولا يزود، انه فارس الربيع الفلسطيني بكل المعاني النبيلة، التي يمثلها جيل الشباب الصاعد على درب الحرية في القاهرة وتونس وفي بني غازي وصنعاء وفي دمشق والمنامة وفي رام الله والقدس وفلسطين.

أروع ما في هذا النضال البطولي مجسدا في سامر ورفاقه أنه صرخة في وجه حياتنا الروتينية البطيئة المملة التقليدية، التي نتعايش فيها مع واقع كئيب يخوض غمار الحياة بصورة تقليدية، ويقاتل من أجل تحديات صغيرة ومطالب هامشية.. انه صرخة في وجه كل ذي ضمير ومسئول وقائد، في وجه كل عامل وفلاح أو طالب أو موظف.

إنها صرخة في ضمير كل كاتب ومؤلف وقارئ ومبدع، صرخة مدوية لكي نتوقف عن تزجية الأوقات، والثرثرة واجترار الحكايات وتعاطي القصص والنميمة، وقتل الوقت والثرثرة على المقاهي في جلسات النارجيلة واستنشاق الدخان والموت البطيء على مقاعد المقاهي المبعثرة.

إضراب الأسرى برقية من لهيب المعركة إلى ضمير كل منا ليصحو وينهض ويقاوم ويعاني ويتمزق من أجل الوطن والإنسانية، مقتديا بهؤلاء الجنود البواسل الذين يقترون رويدا رويدا من آفاق التضحية والفداء والشهادة.

صدى نضال الأسرى في العالم العربي

إضراب الأسرى صرخة حرة صافية صادقة مدوية يطلقها أبطالنا في أقبية الظلم والسجن، لتدوي في سماء الأمة العربية التي تشاهد أبناء شعبنا وهم يتمزقون تحت حراب العدو، تفترسهم الدبابات والصواريخ وتمزقهم الطائرات والرشاشات، فينزفون دما وتتصاعد زفراتهم وهم يلفظون الشهادة.

ومع ذلك..

تمضي العواصم العربية، والقيادات العربية في روتين حياتها كأن شيئا لم يكن.. كأن هؤلاء الأسرى الأبطال مجرد فصل في مسلسل، أو مجرد شطر في قصيدة أو "كوبليه" في أغنية، كأن فلسطين والقدس والأقصى والقيامة ليست مقدساتنا وليست عرضنا ودمنا وتراثنا.

أسرى الحرية في المعتقلات والسجون الإسرائيلية يبعثون بهذه الرسالة إلى الرؤساء والملوك العرب والى جامعة الدول العربية، إلى رواد وأبطال الربيع العربي الذين قطعوا نصف الشوط إلى الحرية والعدالة، ثم اختلفوا وأخذوا يتحاربون في النصف الأخر فكأن الربيع لم يكن، وكأن الدماء التي سالت لم تكن، كأن الخريف جاء مبكرا ليعصف بالأغصان والأشجار والبطولات والتضحيات والأمنيات.

سامر العيساوي فارس الربيع الفلسطيني

إن كل خاطرة أو فكرة أو عبارة، وكل باقة ورد أقطفها من حديقة النضال لأقدمها إلى سامر إنما أقدمها لجميع أبطالنا وأسرانا ممن حاربوا جنبا إلى جنب وضحوا وتعذبوا وانتصروا، فما سامر إلا رمز لهؤلاء، رمز ناصع طاهر شجاع رائع. ضرب أروع الأمثلة في التضحية والنبل والثبات على المبدأ.

ولد سامر طارق أحمد محمد عيساوي في قرية العيساوية القريبة من القدس، وكان ذلك يوم 1979/12/16 وهو من الأسرى المحررين الذين تم الإفراج عنهم ضمن صفقة التبادل بين حماس وإسرائيل والمعروفة باسم صفقة جلعاد شاليط حيث تمت في الثامن عشر من تشرين أول عام 2011، وكان سامر قد اعتقل في نيسان عام 2004 وكان يقضي حكما بالسجن لمدة ثلاثين عاما، وقد أنهى من هذه المدة عشرة أعوام إلى أن أفرج عنه ضمن الصفقة. ولكن سامر لم يتحرر من مضايقات ومطاردات جنود الاحتلال، حتى بعد الإفراج عنه. وتقول أخته شيرين إنه كان خلال الشهر الواحد يتم إيقافه أكثر من مرة خلال تنقله داخل القدس، ومن ثم يتم احتجازه لساعات قد تصل إلى عشر في مراكز الشرطة والتحقيق.

ويعتبر الأسير سامر العيساوي أول أسير مقدسي يتم اعتقاله من الأسرى الذين تم إطلاق سراحهم ضمن صفقة التبادل مع الجندي الإسرائيلي شاليط، إلا أن قوات الاحتلال قامت باعتقال خمسة أسرى محررين من سكان الضفة الغربية المحتلة،كان قد تم الإفراج عنهم ضمن صفقة التبادل وتطالب هؤلاء الأسرى بإنهاء محكومياتهم السابقة، بحجة وجود معلومات إدارية سرية، وفي هذا خرق واضح للمعايير والقوانين الدولية والإنسانية، وعدم احترام الصفقة التي تمت بوساطة مصرية.

الاعتقال عند حاجز جبع

وقد تم اعتقال سامر أثناء اجتيازه الحاجز العسكري الاحتلالي المسمى حاجز جبع وهو يقع شمال شرق مدينة القدس المحتلة وكان ذلك في السابع من تموز عام 2012 حيث تم إنزال سامر من السيارة التي كانت تقله أثناء عودته من مدينة رام الله ومن ثم نقل إلى مركز تحقيق المسكوبية فمكث هناك ثمانية وعشرين يوما كان خلالها يتعرض للتحقيق المستمر، والذي كان يتواصل لمدة اثنين وعشرين ساعة يوميا يحرم خلالها من النوم أو الراحة، ولمدة ثلاثة وعشرين يوما أمضاها في المسكوبية كان سامر ممنوعا من لقاء المحامي، بهدف ممارسة الضغط عليه أثناء التحقيق ولعزله عن العالم الخارجي.

التهم الموجهة لسامر من وراء ظهر القانون

قدمت ضد سامر لائحة اتهام يحاكم ضمنها في محكمة الصلح في القدس وجاء في هذه اللائحة بنودا تنص على خرق بنود إطلاق سراحه المشروط، ودخوله مناطق الضفة الغربية.

كما عقدت له محاكم في محكمة عوفر العسكرية أمام لجنة عسكرية تدعى "لجنة شاليط" والتي اتخذت قرارا بان يستكمل سامر ما تبقى له من سنوات في حكمه السابق أي ما يقارب عشرين عاما، وذلك بناء على ادعاء اللجنة بوجود شبهات ضده، استنادا لمعلومات استخباراتية سرية لا يسمح للأسير سامر ولا لمحاميه الاطلاع عليها.

ملحمة الإضراب عن الطعام

أعلن سامر العيساوي إضرابه عن الطعام في الأول من آب عام 2012 احتجاجا على إعادة اعتقاله، والمطالبة بإعادة محاكمته بناء على ملف سري لا يسمح له بالدفاع عن نفسه، وهذه العوامل دفعت سامرا لخوض الإضراب عن الطعام بشكليه الجزئي والمفتوح، للمطالبة بإطلاق سراحه وذلك لأن الإضراب عن الطعام هو السلاح الوحيد أمامه لنيل حريته.

لمحات عائلية

ينتمي سامر إلى عائلة مقدسية مكونة من ستة إخوة وأختين بالإضافة للام والأب، علما أنه أخ الشهيد فادي العيساوي الذي استشهد عام 1994 في مجزرة الحرم الإبراهيمي، كما أنه شقيق الأسير مدحت العيساوي الذي قضى تسعة عشر عاما من حياته داخل الأسر، كذلك أخته المحامية شيرين العيساوي التي اعتقلت لمدة سنة كاملة عام 2010. أما عمته الدكتورة رحاب العيساوي فقد كانت من قيادات الجبهة الشعبية، بل إنها من رائدات الحركة النضالية النسائية وكانت قد اعتقلت لمدة سنوات طويلة، وهي تمتاز بالصلابة والقوة وتم اعتقالها من قبل قوات العدو.

وسامر إنسان يحب الحياة، وهو رغم هذه المحن التي زلزلت أسرته إلا أنه احتفظ بهدوئه وثباته وظل إنسانا متفائلا، وكان يؤسس لمشروع اقتصادي خاص به، فقد أخذ الموافقة على منحه قرضا ماليا شخصيا لبناء هذا المشروع، وكان يخطط للارتباط وتأسيس حياة عائلية جديدة، ولكن الاحتلال لم يمهله لتحقيق هذه الأهداف فاعتقله، وحرمه من الاستقرار في حياته، وفرض عليه ظروفا قهرية ظالمة لم يجد مفرا أمامها سوى أن يقبل التحدي وأن يدافع عن حقه في الحياة، وعن مستقبله بهذا الأسلوب النبيل الذي يواجه فيه شبح الموت في كل لحظة والذي أثار العالم كله في استراليا وكندا والصين واليابان وأمريكا، ما أيقظ ضمير العالم بأسره، كما يشهد بذلك "الفيس بوك"، وقد هبت الجمعيات الإنسانية للدفاع عن حقوق الإنسان في كل أنحاء العالم للدفاع عن سامر لأن قضيته قضية حق وعدل وإنسانية.

وفي أثناء انعقاد المحكمة أراد سامر الأسير المقدسي أن يمد يده ليصافح أمه أثناء بدء جلسة الاستئناف في المحكمة إسرائيلية، إلا أن وحدة السجانين حوله أنزلت يده، فمدها مرة أخرى وأمسك بثوب أمه، ولكن الشرطة هجمت عليه وضربته ضربا مبرحا، واعتدت على والدته المريضة وعلى أخته المحامية شيرين العيساوي، كما اعتدت على عمه وإخوته وأبناء عمه، وقالت والدته: إن القاضي عندما شاهد هذا العدوان ترك القاعة وذهب، وطلب من الجنود أن يكفوا عن ضرب أسرة سامر. وهذه لمحة دالة على قسوة الاحتلال وعلى المأساة التي يتعرض لها مناضل فلسطيني شاب شجاع.

شجرة نضال تضرب جذورها في العيساوية

تقع قرية العيساوية شمال شرقي مدينة القدس الشريف، حيث نشأت وترعرعت أسرة المناضل الثائر سامر، وكان جده من أوائل الذين انضموا إلى منظمة التحرير الفلسطينية، فيما استشهدت جدته خلال سنوات الانتفاضة الأولى، في حين عانى والده ووالدته في مطلع السبعينيات من مرارة الاعتقال لتفجع الأسرة بعد ذلك باستشهاد شقيقه البكر في عام 1994 على أثر الأحداث التي تلت مجزرة الحرم الإبراهيمي حيث سقط شهيدا على أرض العيساوية بينما تعرض إخوته وأخواته الستة للاعتقال.

الخنساء في قرية العيساوية

والدة المناضل سامر العيساوي هي السيدة (أم رأفت) أنموذج حي للأم الفلسطينية التي ربت أولادها على القيم الوطنية، وغرست فيهم بذور الانتماء والتضحية، فالأبناء هم ثمرة أمهاتهم وألام مدرسة على حد قول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

الأم روض إن تعهده الحيا بالري أورق أيما إيراق

ومواقف أم رأفت تبعث من جديد سيرة الخنساء، الأم العظيمة التي استشهد أربعة من أولادها في إحدى المعارك الإسلامية، فهتفت بفخر الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم.

ها هي أم رأفت، تعيد إلى الأذهان صورة تلك المرأة الخالدة بثباتها وعزمها وإيمانها، وصبرها ومثاليتها، فقد اعتقلت ابنتها المحامية شيرين، كما استشهد ولدها فادي.

واعتقل ولدها مدحت لمدة تسعة عشر عاما وها هو سامر، بعد اعتقال استمر أكثر من عشرة أعوام يخوض معركته البطولية بعد أن أمضى عشرة أعوام معتقلا وراء الشمس.

وحيدا، أعزل، صامدا، صابرا يواجه الزبانية، سامر وحده يحارب دولة إسرائيل، يحارب البغي والعدوان والغطرسة، والعنصرية، يحارب الظلم التاريخي الذي يتعرض له شعبه وحده يحارب كل رموز القهر والظلم الإنساني ويحارب ببسالة، بصبر وثبات وبإيمان يحارب بسلاح الإنسانية الخالد، بالصبر والرفض والمقاومة القائمة على السلام، وعدم العنف، كأنه يجدد فصولا رائعة من مسيرة غاندي، الذي هزم أسطورة البغي والعدوان بالمقاومة السلمية والصبر والثبات على المبدأ، بالصوم، والمحبة والتضحية، حيث هزت إرادة الحق، جيش إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس.

أسرة عريقة في النضال

من المعروف أن الشعب الفلسطيني على امتداد ستين عاما أو تزيد يناضل ضد قوى البغي والعدوان، محاولا البحث عن هويته باذلا دمه في سبيل تحرير القدس والتراب الفلسطيني.

وخلال عرضنا لهذه النماذج المختلفة، لاحظت أن المبادرين لحمل راية النضال غالبا ما كانوا من أبناء الطبقات الوسطى، وبينهم قاسم مشترك واضح، وهو الثقافة والوعي والحصول على الدرجات الجامعية العالية، ولكن أبناء الطبقات الفقيرة أو العاملة من عامة الشعب، كانت هي الأخرى تشارك في النضال.

ولكن هذه الأسرة- أسرة العيساوي- تشكل ظاهرة نضالية متميزة، فجميع أفرادها ممن ينتسبون إليها ضالعين في النضال بصورة بطولية، وعلى أثر مكالمة هاتفية مع الأخ هاني أحمد علي العيساوي (أبو أسامة) الذي تربطني به ذكريات نضالية وإعلامية، فطوال فترة سجنه كنا على تواصل معه وكنا نتابع تنقله بين السجون الإسرائيلية من نفحة إلى النقب وغيرها. وكنا نقف على تفاصيل نضاله في السجن من الدكتورة رحاب وبالتالي كانت جميع المعلومات تأخذ طريقها إلى النشر عبر القنوات الإعلامية الفاعلة التي كنت أقوم بها في المكتب الفلسطيني بالقدس، وعندما تم الإفراج عنه كنا في أوائل من سعى إلى مقابلته وتهنئته بالعودة إلى حياة الحرية.

المشهد الآن كالآتي:

هاني كان معتقلا في سجون الاحتلال حيث أمضى عشرة أعوام بين عامي 1970 و 1980، وقد دخل السجن بعد إنهائه دراسته الثانوية وهو في التوجيهي، وبعد أن أمضى عشر سنوات ويفرج عنه يولد سامر البطل الذي نحن بصدد تقديمه عبر هذه المقالة.

كما أن الأخ هاني له ولد يسمى عمر وهو طالب في جامعة بي رزيت سنة ثالثة ويدرس الهندسة، وقد اعتقل وهو منذ ثمانية شهور في أسر الاحتلال. وقد سمى هاني ابنه البكر أسامة بهذا الاسم تيمنا بشقيقه أسامة البطل الشهيد الذي قضى نحبه على ارض لبنان.

في هذه السطور القليلة، نلمح بوادر هذه الظاهرة النضالية، الأب المناضل والابن الشهيد والابن المعتقل أضف إلى ذلك أن والد الأخ هاني كان مناضلا أيضا، أي أن الجد المؤسس لهذه الأسرة هو الذي أنجب هذه الأجيال من الأبطال، والحقيقة أنني أكن حبا واحتراما عظيمين للأخ أبو طارق ولم أرَ في حياتي من يكرس أسرته وأبناءه للنضال بهذه الشهامة والوطنية، مثل هذا الرجل العظيم، الذي نستعيد نسمات من بطولته في مواقف حفيده سامر.

غصن آخر في دوحة النضال العيساوية

وفي حديثنا مع هاني توقفنا عند صفحة مشرقة من تاريخ النضال الفلسطيني، فقد كان والده أحمد علي محمد العيساوي (أبو طارق) منذ مطلع شبابه مؤسسا لفرقة الكشاف المسلم المقدسية منذ عهد المفتي، وعندما انطلقت ثورة سنة 1936 كان أبو طارق أحد القادة الميدانيين في منطقة القدس، وكان معروفا في كل المحيط وتمتد قيادته إلى مناطق شرق القدس، لتشمل خطا عريضا من القرى الفلسطينية منها بير زيت، دير دبوان، مخماس، جبع ومعظم مناطق القرى في تلك الأنحاء. وكان أبو طارق يقود حملات عسكرية ومعارك ضد خط البوتاس الإسرائيلي، كما تعرض للملاحقة والمطاردة من قبل الانجليز الذين نسفوا بيته وسجنوه، والقوا به في سجن عكا حتى عام 1939 حيث أرغموه على الخروج إلى العراق ولم يعد إلا بعد انتهاء المعارك والتسوية التي وضعت العراق تحت الانتداب البريطاني.

وكان أخي أسامة مناضلاً أيضاً

ويواصل الأخ هاني استرجاع ذكرياته النضالية عن أسرته فيقول إنه كان له أخ يدرس في الولايات المتحدة واسمه أسامة وإنه كان طالبا متفوقا، ولكن عندما اندلعت حرب 1982 وتقدمت القوات الإسرائيلية لتحتل بيروت وليواجه الفلسطينيون بقيادة أبو عمار حرب بيروت الشهيرة التي استمر الحصار فيها مدة ثمانية وثمانين يوما، وعلى اثر هذه المعركة استشهد أسامة في منطقة البقاع اللبناني وكان عمره ستة وعشرون عاما.

بين فادي وسامر

ويقول أبو أسامة إن ابن أخي فادي كان له تأثير شديد على سامر وهو الذي غرس في صدره حب النضال والوطنية، وكان له رفيقا ومعلما وفي السنوات الأولى من حياته تأثر سامر إلى حد بعيد بفادي وأصبح يؤمن بالكفاح والنضال من أجل فلسطين.

وقد استشهد ابن أخي فادي صديق سامر ورفيقه وأستاذه على أرض العيساوية على أثر الهبة الجماهيرية التي اشتعلت في أرض العيساوية بعد أحداث مجزرة الحرم الإبراهيمي.

جامعيات من أسرة العيساوي على ضرب النضال

ويقول أبو أسامة: إن الدكتورة رحاب العيساوي التي حصلت على درجة الدكتوراه الجامعية كانت مشاركة بصورة فاعلة في الحركة الوطنية ما دفع الاحتلال إلى اعتقالها عدة مرات، كما أن شيرين شقيقة سامر والحاصلة على شهادة المحاماة قد تم اعتقالها لمدة عام كامل على اثر اتهامات وطنية وجهت ضدها.

والحقيقة أننا نجد أن هذا الملف الرائع في هذه القرية التي تقع على حافة القدس ظاهرة فريدة تؤكد هوية شعبنا، وإصراره على النضال والمقاومة، ومن الملاحظ أن الأكبر سنا في الأسرة رغم ما يقاسيه من العذاب والألم والهوان لا يتوجه بنصائح سلبية، تبعد الجيل الصاعد عن شرف النضال والبطولة والتضحية.

سامر أيقظ ضمير العالم

لقد أيقظ سامر ضمير العالم، واجه الموت والعذاب والظلمة والظلام بشجاعة جندي آمن بمبدأ الحق والعدالة، ليكون نبراسا يبدد الظلام حول قضية وطنه وإخوانه ورفاقه..

أي شجاعة أفضل

وأي بطولة أعظم

وأي معركة أنبل

إن معركتنا من أجل حرية شعبنا وامتنا لا تكون بالارتجال والمزايدات والخلافات والفنادق والمؤتمرات والتصريحات فهذه معطيات لا تحقق النصر، ولا تقدمنا شبرا واحدا من خط تحرير القدس. بالعمل والتضحية والإيمان، بالقدوة والموقف والشجاعة، تنتصر الأمم.

كتبت ميسم حمزة من لبنان تخاطب سامر قائلة:

اسمح لي أيها البطل الصامد في سجون العدو، أن أقبل يديك الطاهرتين، وأعاهدك عهد من تربى على مسيرات بطولية سجلها في صفحات التاريخ رواد النضال أمثال الشيخ راغب حرب، والحاج عماد مغنية، والسيد عباس الموسوي.

إنك ستبقى فينا..

وقضيتيك ستبقى قضيتنا..

وفلسطين ستبقى بوصلتنا

فاليوم اصمت، لأنك أكبر من كلماتي، فأنا على الأرض، وأنت طائر يحلق في سماء الحرية، وما قمت به لن يكون أبدا في طي النسيان وستخلد تضحياتك في قصص الأبطال الذين ضحوا من أجل الوطن.

ملح وماء على رمال النقب

وتضامنا مع سامر، استخدم شباب القدس حجارة صحراء النقب وقاموا بتلوينها بكلمتي "ملح وماء" وبكتابة اسم سامر حولها، ورفع العلم الفلسطيني لتأكيد تضامنهم مع هذا البطل الفلسطيني الأسطورة في

السجون الإسرائيلية رغم كل الظروف، ووسط الصخور والجبال الشامخة والصحراء الفلسطينية عبر الشباب المقدسي عن تضامنه وانتمائه لفلسطين وذلك من خلال الرسم بالحجارة والحصى لإيصال رسالة واضحة تظهر وعي وتماسك الشباب الفلسطيني وخاصة المقدسي. كما أن جميع سجون إسرائيل في طول البلاد وعرضها في الرملة والمسكوبية وعسقلان وسائر المدن قامت مظاهرات أمام السجون تأييدا لسامر وتضامنا معه مطالبة بضرورة الإفراج عنه، وقد دخل المتظاهرون في صراعات مع قوات الشرطة الإسرائيلية.

وشباب وجماهير مصر

وقد عبرت جماهير نادي الزمالك عن تضامنها وحبها لسامر عندما حيت بطولته وصموده، فهو المناضل الذي صمد في إضرابه عن الطعام أطول مدة في التاريخ، ولذلك رفعت جماهير الزمالك صوتها، وهي تعبر عن موقف نبيل من وسط جماهير قاهرة المعز الرائدة، حيث كتبت عبارة سامر العيساوي "أمعاؤك الخاوية رمز كرامتنا".

رسالة من البطل

وفي رسالة بعث بها البطل من سجنه يقول:

"رسالتي الأخيرة للسلطة، تحرري حيّا، فإن استشهدت فإن وصيتي أن يمنعوا الاحتلال من تشريح جسدي، وأن يصلى عليَّ في المسجد الأقصى وأن ادفن بجوار شقيقي". بهذه الكلمات التي تعبر عن الإيمان والثبات، تكتمل صورة وشخصية فارس فرسان النضال الفلسطيني، الذي يجسد رؤيا الشباب، ويختط طريقا للقدوة، والتضحية ويرسم علامات مضيئة لتعبد الطريق أمام الأجيال للوصول إلى حرية القدس وتحرير فلسطين.

لقد أرادت فئة باغية، أن تجرد انتصار الشعب الفلسطيني عندما تم الإفراج عن أكثر من ألف أسير فلسطيني، في صفقة شاليط، أرادت بكل السبل أن تطفئ جذوة هذا الانتصار، وأن تفرغه من مضمونه فعادت تلتمس الحجج والأعذار لاعتقال الأبطال وإعادتهم إلى السجون بأعذار واهية.. حيث اعتقلت حتى الآن أكثر من اثني عشر أسيرا، وكان سامر واحدا منهم، غير أن مقاومة سامر وبطولته وتحديه، جعلت الصورة معكوسة، فانقلب السحر على الساحر، وسجل سامر في صفحات النضال نصرا، أعظم من مجرد اعتقال جندي ومبادلته بأسرى الحرية.

لقد أعاد سامر إلى الأذهان صورة شعب كامل يقبع تحت الاحتلال، وتمارس ضده كل ألوان التعسف والظلم، والقهر، وأثبت للعالم، أن الطرف الآخر لا يحترم قانونا ولا عهدا ولا يلتزم بكلمة مبدأ، وانه ماضٍ في غيه، يلتمس أساليب ومسلكيات مفتعلة ليعيد اعتقال القيادات الثورية التاريخية إلى ظلام السجون.

ولا شك أن كسر سامر لشروطهم ودخوله الضفة الغربية، لا يبرر كل هذا التعسف والقهر والغطرسة والإصرار على قهره وإذلاله وإعادته إلى المعتقل ليمضي عشرين عاما.

مجرد زيارة إلى رام الله، ولو أن ذلك صحيح، لا يستحق عشرين سنة من السجن. فهل سامر، هو جيش بأسره، هل هو جيش جرار، جاء ليقاتلهم ويطردهم من ارض احتلوها وأوطان سلبوها، وحقوق أهدروها.

ومن الذي أعطى هؤلاء الناس الذين جاؤوا من آخر بلدان العالم، ليتحكموا، ويأمروا، وينهوا- ويمنعوا ابن العيساوية من مشوار إلى مدينة رام الله، والمسافة بينهما أقل من كيلو متر واحد.

هل تصبح فلسطين حراما على أبنائها البررة الذين ناضلوا واعتقلوا وماتوا دفاعا عن أرضها وترابها وتاريخها؟

"أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنسِ"

شباب القدس رؤيا وتضامن

وقد فجرت بطولة سامر وصموده الطاقات الفلسطينية المناضلة، وأيقظت روح التحدي، وزادت جذوة الحق والمقاومة اشتعالا.

يقول محمد نجم، عضو "جمعية اللقلق": لقد أصبح سامر أسطورة فلسطينية لها احترامها ومكانتها، ولهذا كان لا بد من أن نؤكد اعتزازنا لما يقوم به في سجون الاحتلال، وإصراره على نيل الحرية

وتقول رنين أبو سير، من مؤسسة "الرؤيا الفلسطينية": إن سامر يعني القدس، والقضية، والأسرى، وفلسطين بأكملها.

ونحن جميعا نحاول بكل ما لدينا من طاقة وجهد أن نؤكد تضامننا مع سامر البطل الفلسطيني الصامد، ومن الفعاليات الشبابية المعبرة عن روح التضامن مع سامر، قيام الشباب بإعداد الزجاجات التي تحتوي على الرسومات الملونة بلون صخور المنطقة التي تتزين بالعديد من الألوان الطبيعية نتيجة التغيرات الطبيعية والبراكين التي شهدتها المنطقة في الماضي، ليعبروا من خلالها عن قضيتهم وهويتهم وتضامنهم مع الأسير العيساوي.

سامر رمز فلسطين الخالد

ولا بأس من التوجه إلى أعلام وكُتّاب اليسار الإسرائيلي، وحركات السلام، والفنانين والموسيقيين والرسامين والمغنين وكل من يتعاطى فنا جماهيريا، كما أن نضال سامر أبرز الوحدة الوطنية لفلسطين بصورة رائعة حيث تعاطفت معه جماهير الشعب الفلسطيني في كل أنحاء فلسطين في القدس والناصرة والجليل وعكا وفي سهول وروابي غزة وفي المخيمات الفلسطينية وفي الشتات الفلسطيني وهكذا يكون سامر العيساوي قد وحد الأمة العربية والفلسطينية وجمعنا على هدف واحد، وهذا ما يؤكده التاريخ المعاصر والقديم أن البطولات والانتصارات توحد بيننا وتجعلنا نناضل في خندق واحد وراء قائد واحد وموقف واحد حيث تجلى ذلك في الإجماع على تأييد سامر في نضاله وهو ما لاحظته في كل أنحاء العالم وهم يهتفون بملء حناجرهم (لا تقتلوا سامراً).

(2013/2/22)

عرفات جرادات

شهيد الأسر والحرية، فجّر بركان الغضب في كل فلسطين وأشعل جذوة النضال والنصر.

وهو في طريقه لأداء صلاة الفجر في مسجد بلدته "سعير" انقضت عليه أيادي البغاة

تطبق عليه، وتصعد روحه إلى باريها بعد خمسة أيام فقط.

*** قَبّل الصغيرة "يارا" وأوصى رفيقة دربه بأن تحتفل بعيد ميلاد "محمد"**

وألقى نظرة وداع على بيت الزوجية ومضى إلى سبيل ربه.

ارفعوا رؤوسكم جميعا.. كفكفوا الدمع، لقد كان عرفات جرادات فارسا شجاعا

ثار من أجل وطنه.. وأي عجب في أن يثور الحر ويستشهد.

وتشتدُ ضراوة الاحتلال.

وتتعاظم يوما بعد يوم آيات بطشه وظلمه وعدوانه.

في كل يوم، وفي كل مناسبة، ومع مشرق كل شمس يسقط شهيد جديد وترتقي إلى العلا أرواح طاهرة من أبناء هذا الشعب الصابر، الذي أمضى ستين عاما أو تزيد وهو يقدم الشهداء والأبرار.

وما عرفات جرادات إلا أنموذج حي من نماذج التاريخ الفلسطيني ونضاله.

شاب في مقتبل العمر.. شبّ على أصوات الرصاص، وهدير المجنزرات وسلاسل الاعتقال والعدوان، ورضع من شمس وهواء سعير مقومات الحياة، ولكنه تشرب من جبالها وتربتها وأرضها وصخورها وسمائها دماء الثورة والغضب والرفض.

شاهد عرفات منذ صباه الباكر كيف يعمق جنود البغي والعدوان عوامل الشر في عائلته وقبيلته، شاهدهم وهم يغرسون بذور الكراهية والنقمة والحقد، فنما وترعرع، وفي القلب جراح وفي النفس ثورة وفي العين بريق وفي الصدر شواظ من نار ولهب.

ترعرع وجدان عرفات على الثورة والغضب، من أجل أهله وأرضه ووطنه، وأي إنسان حر نبيل لا يثور لكرامة أرضه ووطنه وشعبه.

سعير تنبت البطولات

لم يكن عجيبا ولا غريبا أن تنبت أرض سعير هذه الجذوة المشتعلة من الثورة والتي تتفجر حمما وبراكين، وترفض أن تنكس الرأس أو تحني الهامة أمام قوى البطش والعدوان والقهر.

عرفات واحد من أجيال فلسطين الشابة، نما وترعرع في سعير، أرض البطولات، الأرض التي روت دماء الشهداء ترابها، وأزهرت ورودها وأشجارها وأغصانها نماذج وطنية صادقة مشبعة بروح النضال والفروسية.

"وطني لو شُغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلدِ نفسي"

هذه الروح الوطنية الملتهبة، لم تعرف حلاوة الحياة، ولا طراوة العيش، ولم تستمتع بنسيم سعير، ولا رحيق أزهار الليمون والزيتون، شربت كأس المنايا وارتشفت السهد والجراح والألم لأن قوى البغي جاءت لتغتصب الأرض والإنسان والبسمة والفرحة.

جاءت قوى البغي لتحرم الطفل الفلسطيني من إشراقة الطفولة، والتلميذ الشادي نعمة الهدوء والطمأنينة، جاءت لتصب في آذان صغارنا آهات الحزن واللوعة، وتزرع في صدور أمهاتهم غصة الألم، وفي عيونهم دموع الحزن والشجن واليتم.

ذلك الغرس من تلك الأرض

نما وترعرع عرفات في أجواء سعير، تلك القرية الوادعة الجميلة التي شبت أجيالها على الكفاح والثورة والتحدي.

تقع سعير إلى الشمال الشرقي من الخليل، وتبعد عنها 8 كم، وترتفع 870م عن سطح البحر وتحيط بها عده جبال عالية منها (رأس طورة) في الشمال الذي يرتفع 1012م عن سطح البحر. ويقال إنها من أقدم القرى في العالم، بعد مدينة أريحا، ولا زالت آثارها ماثلة للعيان. وسميت سعير بهذا الاسم تصغيرا للكلمة الكنعانية سيعور.

وقد قطعها الشارع الالتفافي رقم (60) عن مدينتي حلحول والخليل، وعانت المدينة طيلة فترة الانتفاضة الأولى من الإغلاق لجميع المنافذ، التي تربط المدينة بالشارع الالتفافي حيث أغلقت بالسواتر الترابية والصخور والكتل الإسمنتية. وتبلغ مساحة أراضيها أكثر من 92 ألف دونم، وهي أرض غزيرة المياه تزرع فيها الخضار وتنتشر فيها أشجار الزيتون والعنب والتين وتحيط بأراضيها أراضي بيت فجار وبيت أمر وحلحول والخليل. وبلغ عدد سكانها عام 2007 أكثر من (16000) نسمة، كما بلغ عدد المغتربين والقاطنين خارج المدينة أكثر من ثلاثة آلاف نسمة. وقد سقط على ارض سعير ثمانية وأربعون شهيدا.

ولكنهم لم يتركوه

في حمى هذه البلدة الفلسطينية شب ونما عرفات جرادات.

فما الذي اقترفه هذا الإنسان البسيط الواضح المخلص ليلقى مثل هذا الجزاء؟

أي جريمة منكرة ارتكبها؟

أي أذى أو جناية سجلها في صفحة حياته؟

لقد كان مثل جميع أقرانه يتطلع إلى حياة ملؤها الطمأنينة، كان يرجو أن يظلل على زوجته وأولاده بعرائش القناعة والطمأنينة والسلام. ساقوه سوقا إلى معترك المواجهة، تحدوا إنسانيته ووجوده وكرامته، فقبل التحدي وكان ندا، صمم على أن يموت واقفا كأشجار سعير، تصدى لهم بروح الفارس المؤمن بقضية بلاده، تصدى الفارس لعدو سعير وتحداه بشجاعة المقاتل المؤمن بقدره.

ولكنهم غدروا به وحاربوه بأسلحة الخسة والخديعة، حبسوه في زنزانته منفردا وأحكموا حوله كل ألوان القهر والتعذيب، فلم يلن ولم يتراجع ولم يتقهقر، ظل ثابتا صامدا صلبا قويا فقتلوه بدم بارد.

إنهم يظنون أنهم بذلك حطموا إرادته وانتصروا عليه، وأعادوه إلى أرض وطنه سعير رمز لكل من يتجرأ ويتحداهم.

ولكن ما أضيق أفق هؤلاء الناس، وما أشد بغيهم، وما أضيع عقولهم وحكمتهم. لقد جعلوا من عرفات رمز شهيدا، بطلا. إن كل ذرة من كيانه تطلق كتائب السخط والثورة والمقاومة ضدهم.

وفي حين يعيش عرفات جرادات في وجدان شعبه وأهله، نموذجا مشرفا للبطولة والفداء يتوارى السفاح خائبا مدحورا يواجه الخزي والعار، ويحصد سخط العالم المستنير الذي لا يستطيع أن يفهم كيف تطبق قوى البغي والعدوان على هذه الوردة الفلسطينية الجبلية.

لحظات الوداع

في حياة كل إنسان منا لحظات حاسمة، لحظات يتوقف فيها القدر، وتكف الأرض عن دورانها، والشمس عن توهجها، والقلوب عن خفقانها. لحظات نادرة مشحونة بالشجن والدموع والألم، لحظات حيث:

يهون فيها كل شيء،

ويتلاشى كل شيء،

ويختفي كل شيء،

ولا يبقى إلا هذه النظرات الوادعة، الحنونة، الندية في مآقي البطل، وفي بريق عيني زوجته، وفي ابتسامة يارا وسكون محمد وبراءته.

اقتحم الزبانية بيت الشهيد في ساعات ليل سعير الوادعة، واقتادوا عرفات خارج البيت، وبعد دقائق من اعتقاله عادوا به وطلبوا منه أن يودع أبناءه وزوجته.

لم تكن تلك "الإنسانية المرهفة" من كمال أخلاق رجال المخابرات (الأشاوس)، وإنما هي وسيلة ضغط نفسي على أعصاب عرفات وزوجته لإشعاره بأنه مقدم على صدام دموي قد يكلفه حياته.

تقول زوجته: هذا الطلب الغريب من ضابط مخابرات أثار الخوف في نفسي، فشعرت بعواصف القلق والهواجس تأكل صدري، وافترست المخاوف ومشاعر الحزن والأسى والغضب كل كياني خوفا مما يدبرونه لرفيق الدرب والد يارا ومحمد، وطفل ثالث سيولد بعد خمسة شهور.

هذا الوداع بأمر من الزبانية أوقد نارا في كياني، خاصة وأنه تم اعتقال عرفات وتوقيفه قبل ذلك أكثر من مرة، ولكنه كان في كل مرة يعود.

أما هذه المرة فكانت لهجة ضابط المخابرات مختلفة، كان فيها تهديد مبطن، لم تستطع كلماته ان تخفي ما في نواياهم من سمات الغدر والنذالة.

أخذوه وذهبوا، وبقيت أنا ويارا ومحمد والوليد القادم ننتظر..

وعلى الخد دمعة، وفي القلب حسرة، وفي النفس بقايا أمل.

بانوراما عرفات جرادات

ولد الشهيد عرفات جرادات يوم 1983/1/14 في بلدة سعير شمال الخليل، وهو متزوج وأب لطفلين، يارا وتبلغ من العمر ثلاث سنوات، ومحمد وعمره عامان، فيما كان يستعد مع زوجته الحامل لاستقبال طفلهما الثالث الذي سيرى النور بعد خمسة شهور.

وكان الشهيد جرادات قد التحق بمقاعد الدراسة في جامعة القدس المفتوحة في السنة الأولى من دراسته.

ويقول قدورة فارس، رئيس نادي الأسير: إن سلطات الاحتلال قد اعتقلت الشهيد جرادات بتاريخ 2013/2/18 بتهمة الانتماء لكتائب شهداء الأقصى، الجناح العسكري لحركة فتح.

ودعا أسامة القواسمي، المتحدث باسم مفوضية الإعلام والثقافة في حركة فتح مؤسسات حقوق الإنسان في العالم والمجتمع الدولي إلى تحمل المسؤولية، الأخلاقية، المترتبة على استشهاد عرفات جرادات.

والعمل على وقف الانتهاكات والاضطهاد والتعذيب الجسدي والنفسي الذي يتعرض له الأسرى الفلسطينيون القابعون في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

الشهيد في مسلخ الجلمة

وكشف المحامي كميل الصباغ الستار عن أسرار استشهاد جرادات فقال: إن الأسير عرفات جرادات الذي استشهد في معتقل مجيدو الإسرائيلي قد تعرض للشبح والتعذيب لساعات طويلة في معتقل الجلمة على أيدي المحققين.

وأوضح الصباغ إنه حضر جلسة تمديد توقيف الشهيد جرادات والتي عقدت بتاريخ 2013/2/21 ومدد فيها قاضي المحكمة اعتقال الشهيد لمدة اثني عشر يوما بداعي استكمال التحقيق.

لحظات عصيبة

وأضاف المحامي: منذ دخولي قاعة المحكمة شاهدت الأسير عرفات جرادات، يجلس على كرسي خشبي مقابل القاضي، وكان محنيَّ الظهر، وتبدو عليه علامات الإرهاق والتعب الشديدين.

وعندما جلست بجانبه أخبرني انه يعاني ألما حادا في الظهر، كما يعاني من آلام حادة أخرى في مناطق متفرقة من جسده، بسبب ضربه وشبحه لساعات طويلة على كرسي التحقيق، وذلك في معتقل الجلمة الذي يطلق عليه الأسرى عبارة "المسلخ"، لشدة ألوان العذاب والبطش التي تلحق بكل من يساق إلى غياهبه.

ويتابع المحامي صباغ شهادته فيقول: وعندما علم الشهيد بأن القاضي سيمدد اعتقاله لأيام إضافية بدت عليه علامات الخوف الشديد وسارع بسؤالي إن كان سيبقى خلال هذه الفترة داخل الزنزانة أم لا.

فأخبرته بأنه لا يزال في فترة التحقيق وأن هذا أمر ممكن وقلت له:

- إنني كمحامٍ لا أستطيع التحكم بمكان وجوده في هذه الفترة.

وأكد المحامي صباغ على أن الوضع النفسي للشهيد كان سيئا للغاية خلال الجلسة، وقد ترافعت أمام القاضي بان الأسير في وضع نفسي وجسدي سيء، نتيجة عزله وشبحه لساعات طويلة، على كرسي

التحقيق، وقرر القاضي خلال الجلسة أن يتم فحص الأسير جسديا ونفسيا من قبل طبيب السجن إلا أن ذلك لم يتم، ومن ثمّ قرر القاضي تمديد فترة اعتقال الشهيد عرفات لمدة اثني عشر يوما وكان ذلك بتاريخ 2013/2/21 ومن ثمّ تم نقله إلى سجن مجيدو حيث استشهد هناك بتاريخ 2013/2/23.

جريمة قتل بدم بارد

ويقول عيسى قراقع وزير شؤون الأسرى والمحررين: إن الأسير جرادات كان يخضع للتحقيق منذ عدة أيام، ولا شك أن الاحتلال يتحمل المسؤولية الكاملة عن حياته.

وقال قراقع: إن الشهيد جرادات تعرض لتعذيب شديد أدى إلى وفاته، وإنه لا توجد أي دلائل على إصابته بنوبة قلبية، كما ادعت سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وقد اعتبر قدورة فارس رئيس نادي الأسير أن ما حدث لجرادات يعتبر جريمة قتل تمت بدم بارد، وقال أننا نعيش في عام 2013 ولا زالت هناك فئة تنسب زورا إلى البشرية، والحضارة ترتكب مثل هذا الجرائم ضد جنود الحرية البواسل، وأسرى فلسطين دون خجل أو وازع.

وقال: إن شبكة الحماية الأساسية للأسرى يجب أن يؤمنها شعبنا، عبر حركة جماهيرية مستمرة لإنقاذ أسرى التحرير من عمليات الاغتيال البطيء داخل أقبية زنازين الاحتلال. وعلى المؤسسات الحقوقية والمؤسسات المهنية الفلسطينية والعربية، أن تبلور إستراتيجية عمل لملاحقة المسئولين الإسرائيليين عن الجرائم التي ترتكب بحق شعبنا.

بصمات نتنياهو

إن حركة التطرف اليميني الإسرائيلية التي يرفع لواءها نتنياهو وليبرمان هي المسئولة عن ثمار هذه الأعمال الإجرامية الملطخة بدماء الأبرياء.

لا زال نتنياهو يحمل عصا المايسترو التي ورثها عن بيغن وشارون وشمير وجابوتنسكي صاحب المدرسة الصهيونية المتطرفة والمعلم الأول لنتنياهو ووالده من قبله وغيرهم من زعماء التطرف الصهيوني الأعمى.. هؤلاء الذين بفضل تعصبهم وحماقة رؤاهم لا يزال الضحايا يتساقطون في الجانبين، وعندما يوجد حكيم عاقل في الجانب الآخر يقول "كفى" للجبن والخيانة والسلبية ولتأجج نار العداوة واشتعالها لتأكل الأخضر واليابس، ربما عندئذ تغرد حمائم السلام على ربوع هذا الوطن المسكين.

لا يريد نتنياهو أن ينسى أن الفلسطينيين قتلوا أخاه، مع أن أخاه قُتل في حادثة اختطاف الطائرة الإسرائيلية في عنتيبي عندما ذهب ليشارك في عملية عسكرية بقصد تخليص بعض الرهائن، وقد قتل في تلك الحادثة ومنذ ذلك التاريخ ونتنياهو لا ينسى للفلسطينيين هذه الحادثة ويحملهم دم أخيه.

يقول نتنياهو: "لا شأن لنا بهم، ولا نريد أن نراهم، أو نسمع أسماءهم، أو ننشر أخبارهم".

تأمل هذه العبارة التي تبين عن عداء وحقد، وغضب فهي قنبلة كراهية، كل حرف من حروفها يؤكد استهانة هذا الزعيم بالقيم الإنسانية وبالشعب الفلسطيني وبالأمة العربية.

إنه منطق رجل تحاصره الأنانية والغطرسة والعنصرية وضيق النظر ولذلك، سيظل يغذي شعلة الكراهية ويؤججها، ومن ثم فانه يزرع الكراهية والشر ولا بد أن يحصد الكراهية والشر.

نصحه أقطاب المؤسسة العسكرية بأن لا يحتجز أموال المقاصة الفلسطينية، ولكنه رفض وصمم على أن ينتهز الفرصة ليحاصر الفلسطينيين، ويستذل كبرياءهم ويسلمهم إلى موجات من الجوع والتضور.

جرادات ناقوس يدق في عالم الضمير

إن الطريقة التي قضى فيها عرفات جرادات، أيقظت العالم بأسره، فالمحامي كميل صباغ يهب للدفاع عن البطل الأسير، فلما انتقل الشهيد إلى جواربه نقلت الفضائيات ووكالات الأنباء وشبكات الانترنيت ومنتديات الفيس بوك شهادة المحامي الشجاع الموثقة التي تشهد بان أيادي الغدر اغتالت جرادات بكل جبن ونذالة.

ووزير شؤون الأسرى عيس قراقع حمّل حكومة الاحتلال المسؤولية عن هذه الجريمة، وأكد أن الأسير جرادات استشهد داخل غرف التحقيق في سجن مجيدو.

وأعلنت الحركة الأسيرة في فلسطين الإضراب عن الطعام ليوم واحد، وأعلنت حكومة حماس في قطاع غزة عن استشهاد الأسير جرادات وطالبت بضرورة محاكمة الاحتلال على هذه الجريمة كمطلب شعبي.

وصرح حسام موفق حميد مسؤول العلاقات العامة بمؤسسة الأسرى أن سجن مجيدو يتم استخدامه للتحقيق مع السجناء الفلسطينيين، ونخشى أن يكون الأسير قد استشهد أثناء أو عقب التحقيق معه نتيجة التعذيب.

وأعلن قدورة فارس رئيس نادي الأسير رفضه لادعاء سلطة السجون الإسرائيلية بان وفاة الأسير جرادات ناجمة عن نوبة قلبية حادة.

ونحن نطالب بلجنة تحقيق دولية، وفي كل الأحوال، فان الحكومة الإسرائيلية تتحمل المسؤولية كاملة عن حياته، وأكدت حركة فتح أن جريمة قتل الشهيد جرادات لن تمر دون عقاب أو حساب، ولا بد من محاسبة إسرائيل على جرائمها التي يعاقب عليها القانون الدولي.

محاولات كسر إرادتنا

ويقول فؤاد الخفش مدير مركز "أحرار": إن الأسرى يعيشون في أسوأ الظروف سواء المعيشية أم الصحية داخل السجون الإسرائيلية، وأكد أن الحركة الأسيرة تمر في حالة شديدة من الاحتقان والغضب نتيجة الممارسات التي تقوم بها سلطات السجون، ضدها وخاصة ممارسة ما يعد في حكم القانون جرائم صريحة، مكتملة الأركان حيث يمارس طرف كل معطيات القوة على طرف أعزل لا يملك من أمره شيئا.

ويجب أن يتضاعف المد الشعبي والجماهيري لمقاومة هذا الظلم، الذي يقع على أبناء وطننا داخل السجون وخارجها.

وقد حمّل مركز "حريات" الحكومة الإسرائيلية ومصلحة السجون الإسرائيلية المسؤولية كاملة عن وفاة الأسير عرفات، واعتبرت "حريات" أن وفاة جرادات جاءت في الوقت الذي تشهد فيه ساحات السجون حالة من الغليان بسبب إجراءات وسياسات مصلحة السجون، التي تنفذ قرارات وتوجهات الحكومة الإسرائيلية، الرامية لإخضاع الحركة الأسيرة، وكسر إرادتها، وهو ما من شأنه أن يؤدي إلى تفجر الأوضاع داخل السجون وخارجها.

إن "حريات" تطالب بتدخل المجتمع الدولي، والأمين العام للأمم المتحدة "بان كي مون" على نحو أكثر فاعلية، وتشكيل لجنة تحقيق دولية، ولا بد لدولة فلسطين أن تسارع بالانضمام إلى اتفاقيات جنيف الأربع، والى المحكمة الجنائية الدولية، لملاحقة مجرمي الحرب في الجرائم التي ترتكب يوميا بحق الشعب الفلسطيني.

زنازين الموت لن تغيب جرادات

إن زنازين السجان لن تستطيع أن تغيب طيف هذا الفارس البطل لأنه اختار أن يموت ميتة شريفة جديرة بالإنسان المثقف الواعي المتكامل الشخصية، البصير، الحكيم الذي يعرف هدفه ولا يتراجع عنه، فالموت علينا حق، ولكن الناس يتفاضلون بأساليب استقباله، كما يتفاضلون بالتعامل مع الحياة نفسها.

يقول المتنبي:

"من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد"

وفي موضع آخر يقول:

"فأختر لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني"

لكي لا يذهب دمه هدراً

ولكي لا يذهب دم الشهيد عرفات جرادات هدرا، وتمتد يد الأيام لتسحب على ذكراه ستائر النسيان، يجب أن نأخذ من الأحداث عبرة، ودرسا وأن نستمد من آلامنا ومآسينا وجراحنا موقفا، ونرسم الطريق لتخليد الشهيد منهجا وسلوكا.

وأبسط مبادئ حق الشهيد علينا: أن نحب فلسطين، التي ضحى جرادات من أجلها، وحب فلسطين لا يكون قصيدة أو خطبة أو نشيدا أو موالا، يجب أن يكون سلوكا، يجب أن يكون عملا، فالحب سلوك مثل كل القيم العظيمة، سلوك وعمل وليس مقولات.

وإذا كانت قياداتنا في شقي الوطن تحب فلسطين وتفتديها بالروح والدم، فعليها أن تبرهن على ذلك بالسلوك لا شك أن الفرقة ضعف، وأن وجود قيادتين في إقليمين أمر مؤسف، ولا شك أن وجود جيشين ووزارتين ورئاستين في فلسطين التي نحبها أمر يدعو إلى الأسف والحزن. ولست في حاجة إلى التذكير بأهمية الوحدة ودلالتها الإستراتيجية والوطنية وخطورتها بالنسبة لقضيتنا، فإذا عرفنا كل ذلك وبقينا جناحين وقوتين وحكومتين ورئيسيين؛ فالحقيقة التي لا شك فيها أننا لم نتعلم شيئا من التاريخ.

إن الذي يعرف الحق ثم لا ينصاع له لا يعرف شيئا، وعندما نقول إن الخيانة عار والسكوت جريمة ثم لا نتورع عن ممارسة الصمت والخيانة فإن الوطنية تبدو فارغة من مضمونها.

واعذروني..

واعذروني، أنا لا أريد أن أُنظر، ولا أريد أن اجلس فوق منبر المحاضرين لأحاضر أمام قيادات في بلدي، وثقت بها الجماهير، وسلمتها زمامها، لأنها تعرف إخلاصها وحبها لوطنها. لكن اكتمال الحب لفلسطين يجب أن ينهي الانقسام ولا نحتاج إلى إنهاء هذا الانقسام المحزن إلا لسطر واحد من القيادة.

إن الذين تجرؤا على اغتيال عرفات جرادات بكل هذه القسوة والوحشية، لم يكن لهم إن يفعلوا ذلك لو كنا يدا واحدة، وقوة واحدة، ورأيا واحدا. ولكنهم تشجعوا وتجرؤا عندما رأونا ضعفاء مختلفين متنابذين.

فلكي لا يذهب دم الشهيد جرادات هدرا يجب أن يوحدنا هذا الدم المقدس الذي روىّ ثرى سعير، ولكي لا يذهب دم جرادات هدرا يجب أن ننهي مأساة هؤلاء الأبطال الأسرى.

لقد أقامت إسرائيل الدنيا وأقعدتها حتى تفرج عن شاليط، جعلت منه ضحية العصر وأسطورة الظلم وأنموذج الثبات على المبدأ، وناضلت جماهير إسرائيل وتحدت رئاسة الوزراء، وتحدت الجيش وجندت رؤساء العالم وصحافة العالم من أجل ذلك الفتى جلعاد الذي ركب الدبابة وجاء من باريس ليطلق النار على سكان المغراقة في قطاع غزة ولم يهدأ لهم بال حتى استعادوه.

ونحن أيضا يجب أن نسير خلف قيادة الرئيس محمود عباس (أبو مازن) لننهج الأسلوب السليم الذي يضمن لنا استعادة كامل حقوقنا والإفراج عن أسرانا، ذلك أن قيادة أبو مازن تتميز بالحكمة والعقلانية والثبات على المبدأ واختيار النهج المناسب للحصول على حقوقنا وذلك عبر الوسائل السلمية الشعبية في المقاومة، ولا يجب أن ننجرف وراء أصوات منفعلة، متطرفة تجر شعبنا إلى مربع الفوضى والضياع على نحو ما يقول الرئيس وعلى نحو ما عبر عنه صائب عريقات، ومن الحكمة والمنطق أن نتأمل مقوله الفيلسوف الإغريقي القديم سقراط "اعرف نفسك". كما أني لا أتردد في أن أقول إن الانجراف إلى انتفاضة ثالثة مسلحة قد يجر علينا نفس النتائج التي تعاني منها دول الربيع العربي وخاصة سوريا .

إن استشهاد جرادات وسيلة لتعرية العدو وبيان مدى ظلمه وغطرسته ولكن ذلك لا يتم بتفجير انتفاضة ثالثة فقد جنينا من الانتفاضات السابقة الحسرة والألم ومئات الآلاف من المعوقين والجرحى والشهداء.

إن العقلانية الوطنية يجب أن تكون هي مرشدنا وسبيلنا إلى السير على هدى ما ترسمه قيادتنا الحكيمة التي لا تحتاج إلى الأصوات المنفعلة الغاضبة، المتجنية على منطق التاريخ ومعطيات الحدث والأسلوب السليم، للتعامل مع العدو ومن ثمّ تجريده من كل منطق أو حجة ليسلم بحقنا في الحرية والكرامة والعزة وتحرير أسرانا وإقامة دولتنا على نحو ما يقول الرئيس محمود عباس (أبو مازن).

مناجاة

أخي المناضل عرفات جرادات

يا بن سعير الباسلة

لقد شاهدت والدك وهو يتسلم جثمانك، فلم استطع أن أسيطر على مشاعري، وانهمرت الدموع من عيني، لهذا المشهد الإنساني المؤلم حيث يتسلم الأب ولده الشهيد وحيث تتسلم الأم الثكلى فلذة كبدها.

ولي أن أقول أن أعظم أمنية لكل إنسان هي أن يكون مثلكما، حيث تقدمان للوطن هذه البطولة الفذة وهذه التضحية العظيمة، بولدكما محتسبين هذا الشهيد عند الله ونعم ذلك أجرا.

إن كل إنسان يود لو يكرمه الله بمثل هذا الموقف النبيل الذي سيبقى خالدا على مر الأجيال، فكم يموت كل يوم، وكم يرحل كل يوم، وكم يستقبل باطن الأرض من أموات كل يوم، ولكن عظمة وروعة

استشهاد هذا الابن البار حدث تاريخي سيظل خالدا، فأنتما من صنعتما هذا النموذج البطل وليجزكما الله عنه أفضل الجزاء.

أخي عرفات جرادات..

اسمح لي أن أقدم لك هذه الباقة من بستان الكلمات.. فنحن على حد ما يقول جان بول سارتر لا نملك إلا الدموع والكلمات لهؤلاء الذين قاتلوا واستبسلوا ولم ينتصروا.

اسمح لي أن أحث الملايين الفلسطينية أن تزور وتغرس على ضريحك زهرة من القدس أو سنبلة من جنين أو وردة من بيسان: فأنت رمز لكل معاني الجمال والخلود.

اسمح لي أن أشارك يارا ومحمد في غرس زيتونة فوق ضريحك الطاهر لتظلل بأغصانها الوارفة على مقاتل بطل روى ثرى سعير وزيتون ودوالي الخليل بدمائه الطاهرة.

وأرجوك أن تعذرني لعجزي وضعفي وقلة حيلتي، فانا لا أملك جيشا جرارا لانتصر لك، ولا أملك سلطة وهيلمانا وسيفا وتاجا وذهبا لأحرر أرضك وأرفع رايا.

أنا لا أملك نفطا ولا أرصدة أو أساطير ولا شواطئ أو مواني.

أنا مجرد قلم فلسطيني نشأ وترعرع في ظلال الثورة، وتوقف ليغرس مداده في دمي ووجداني وعواطفي ليكتب عن هؤلاء الأبطال الذين يتعاقبون قافلة بعد أخرى حيث يسلم الآباء الراية إلى الأبناء وكما سلمت أنت الراية إلى ولدك محمد عبر رسالتك المؤثرة إلى والدته للاحتفال بعيد ميلاده.

(2013/3/1)

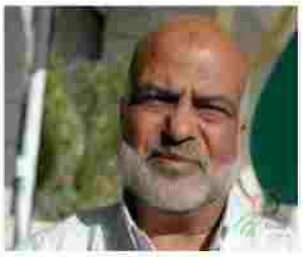

رضوان أبو عياش

عاش حياته مندفعاً في سباق مع القدر فأبدع كاتباً وشاعراً ومحاضراً ومنظراً وقائداً.
لم تفارقه روح السخرية وتناغمت في شخصيته الجدية والالتزام بالابتسامة والدمعة وبحبه العميق للحياة والناس.
كان رفيق درب، وزميل مواقف،وربانا عبرت به ومعه عواصف بحر هائج متقلبٍ في دنيا الصحافة والناس.

الدكتور رضوان إبراهيم عبد الله أبو عياش.. الفقير الموهوب يشق طريقه إلى الشمس.. بإرادة الثائر، وعزيمة الفارس، وثقافة أكون أو لا أكون.

الأديب الشاعر الإعلامي الكبير رضوان أبو عياش نسيج وحده، موهبة فذة، طاقة إعلامية وفنية وصحافية قلما تتكرر، انه كفاءة مسكونة بالكلمة بكل حروفها ومعانيها، فهو شاعر ذواقة، وأديب متدفق، ساخر، لماح، قادر على الالتقاط، صاحب بصر وبصيرة بحيث يرصد كل ما حوله ومن حوله.

وهو ميال إلى الإغراق في علم النفس، والنفاذ إلى أعماق الشخصيات، وله القدرة على الإحاطة بالأحداث ورصدها، ويصل إلى درجة رفيعة من الأداء عندما يستخدم أسلوبه الساخر في رسم الشخصيات ذات الأبعاد المميزة.. فهو قادر دائما على أن يرسم صورة قلمية كاريكاتيرية للنماذج البشرية السياسية والصحفية والاجتماعية بمقدرة وموهبة.

وعلى الجانب الآخر، فإن لرضوان جانب آخر، جانب إيماني، يعبر فيه عن خلجات نفس مؤمن، هز الإيمان شغاف قلبه، وخفق وجدانه خفقات صوفية صادقة في حب الله، والإيمان بعدالته وحلمه وغفرانه.

وهذه السيمات الوجدانية تجلت في إنتاجه بعد مشوار مع الحياة، أكسبته التجارب والخبرات والقراءات والتأمل، هذا اللون الجميل من الفكر الوجداني الإلهي الرائع.

كان صديقنا الراحل متميزا في كل عمل يقوم به، كان يؤديه بعشق وحب وحماسة، وكانت مواهبه تتوهج عندما يتصل نشاطه بعمل وطني، أو إعلامي، ونقابي نضالي.

وأشهد أنه اثبت كفاءة نادرة في القيام بمهامه الصحفية والنضالية، على مستوى مجلة "العودة" التي تواصل صدورها أكثر من أربعة عشر عاما والمكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية وكان ينسق العمل

وينظم سيل الأخبار والترجمات والتحقيقات والتقارير الواردة للمكتب والمجلة من كل أنحاء الضفة الغربية وكان محبوبا من كافة الوكلاء لإخلاصه وصدقه.

وقد لازمت هذه الصفات رضوان أبو عياش، طوال حياته، محاضرا ووكيلا لوزارة الثقافة ورئيسا لهيئة الإذاعة والتلفزيون، ورئيسا لنقابة الصحفيين.

ولكني أتوقف وآخذكم معي، إلى الساحة التي عملت فيها معه، أو عمل فيها معي، بصحبة مجموعة من الإعلاميين الذين شكلوا كتيبة من المثقفين الموهوبين.

دقات القدر المفاجئة

كنت أتخيل كل شيء..

وأتصور كل شيء..

وأتوقع كل شيء..

إلا أن أجلس وأضع أمامي أوراقا لأكتب مقالة صحافية أتحدث فيها عن الزميل رضوان أبو عياش بعد أن غيبته يد المنون، لقد اعتدنا أن نكتب معا، وأن نفكر معا، وان نخطط معا، اعتدنا على أن ندقق موضوعات "العودة العربي"، و"العودة الانجليزي"، و"النشرة" اليومية التي تصدر عن المكتب الفلسطيني بالقدس، ومن ثم ننقلها إلى مكاتب منظمة التحرير في جميع أنحاء العالم.

اعتدنا أن نخوض نضالا إعلاميا على مدار الساعة، وكان رضوان دائما يضع بصماته، وحضوره وأفكاره.

كان كتيبة "عاملة"، بخطه الجميل، وأسلوبه المميز في العربية، والانجليزية، وبروحه المرحة المنطلقة المتفائلة الخلاقة.

مدرسة في الأداء الصحفي والإعلامي

كان قريبا مني، يكاد يعرف ما أفكر به، وما أريد أن انطق به، وما أنوي أن أفعله. وكان يخجل تواضعي إلى حد الإحراج، وعندما يقول لي أنتِ مدرسة.

هل جاء دوري أن أكتب وأقول إن رضوان أبو عياش كان مدرسة في الأداء الصحافي والإعلامي والعمل الدؤوب المتواصل الذي لا يكل.

هل أقول إن جسده الفتي الشاب وبنيانه القوي، وروحه الصلبة قد وقعت فريسة لطموحه وجده واجتهاده.

سمعني بعض الزملاء يوما وأنا أقول: "إننا يجب أن نقيم لرضوان تمثالا". وكان ذلك قبل عشرين عاما تقريبا.

فهمس أحدهم: ولكننا نعمل وننتج ونذوب في عرقنا، ونبات في وجل من خطورة ما نقوم به، فليس رضوان استثناءً.

فقلت له:

- إنه يقوم بكل مهامه كسكرتير لـ "العودة" وللمكتب الفلسطيني "بروح"، وبحماس، وبإخلاص وتشعر أنه عاشق لعمله، وانه يحبه، ويمارسه بروح الهواية، بكل ما فيها من عطاء وإخلاص.

وأصبح كل منهم صاحب مدرسة ومؤسسة

كان المكتب الفلسطيني كلّ حياتنا أنا وإبراهيم قراعين، وباسم أبو سمية، وعبد الكريم سمارة، والياس زنانيري، وجواد الجعبري، وعلي قعدان، ووليد العمري، والمتوكل طه، وأحمد عبدأاحمد، ونعيم الطوباسي، وقدورة موسى، وغيرهم من صفوة الإعلاميين. وأقول بصدق ونزاهة وحياد، إن رضوان أبو عياش كان المايسترو.

ففي حين كان معظم الزملاء مهنيين، مخلصين، كان رضوان منتميا إلى "فتح"، مؤمنا بمنظمة التحرير، فهو مني، وملتزم، وكان دائما هو خط الأمان، حتى لا يسقط قلم زميل، ويتهور، ويضعنا في حرج مع هذا الفصيل أو ذاك، أو مع هذا الرقيب العسكري أو ذاك.

كان رضوان موضع ثقتي، وكان دائما على مستوى هذه الثقة، وكان حبه وصداقته لزملائه ضربا من الأخوة والإخلاص والتفاني قلما تجد هذه الصفة في واحد من العاملين في الحقل الإعلامي الصاخب على هذا النحو من التكامل والحب والإخلاص.

وقد فرقت بيننا السبل.

ومضى كل إلى غايته، كما تقول أم كلثوم: تفرقت بنا الدروب، وفرق القدر بين الأصدقاء، بحيث تولى كل واحد من الزملاء مؤسسة صحفية خدمها بتجاربه ورؤاه التي تتلمذ عليها في مدرسة المكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية، ولا أقول ذلك فخرا أو زهوا ولكنها الحقيقة التي يشهد بها الجميع.

أسس رضوان الإذاعة والتلفزيون.

ومرت الأيام..

وباعدت بيننا..

ولكن رضوان شق طريقه في الصخر بقوة وإصرار وثبات.

أسس الإذاعة والتلفزيون بتكليف من الرئيس عرفات.. أي عبقرية كانت تسكن هذا الشاب ليفكر على هذا النحو؟

وأخذ يتقدم في عمله الإعلامي عبر وزارة الإعلام، ومن ثم جمع أوراقه، وتقدم ليكون محاضرا يحمل درجة الدكتوراه.

وكنت أرنو إلى أبناء المكتب الفلسطيني من رفاقي وزملائي بكل مظاهر الحب والإعجاب، وأعتبر كل نجاح لهم نجاحا لي. لقد كانت نظرتي الموضوعية تأبى عليّ أن أنافسهم في هذا النجاح أو أنسبه إلى المؤسسة التي أوجدتها في ظروف بالغة التعقيد محاطة بكل أنواع الرقابة والمطاردة لدرجة أن بعض رفاقي كان يشعر بالخوف الشديد من مجرد الاقتراب من مكاتبي خوفا من الاعتقال والسجن.

وها قد رحل أربعة من أبناء المكتب الفلسطيني:

أحمد عبد أحمد، وعلي قعدان، وقدورة موسى، ورضوان أبو عياش.

فهاتي الدموع يا عيني وأسعفيها. في أحشائي نار عليهم، وفي قلبي ثورة، وفي وجداني بركان.

مضى علي قعدان وهو في ربيع العمر.

ومضى قدورة موسى وهو في ريعان النضج والرجولة.

ومضى رضوان شابا أو يكاد.

ورحل الشاعر المبدع أحمد عبد أحمد، ومن قبلهم الدكتور عبد اللطيف عقل، وقد ترك كل منهم موجات من الحسرة والألم في نفسي، بكيت عليهم، وأنا أستحضر ذكرياتهم ومقالاتهم وكتبهم ومواقفهم، وشجاعتهم وهم يحاربون على حد السيف من أجل منظمة التحرير الفلسطينية، ومن أجل أن يكون مكتب القدس، على مستوى المسئولية كناطق إعلامي لوزارة الخارجية الفلسطينية.

رغم القيود والعقبات

إنهم بعض نفسي

بعض حياتي، وتاريخي

إنهم فصول حقيقية من نبض الإعلام الفلسطيني الملتزم، ورحل فارس هذه النخبة المناضلة، رضوان أبو عياش.. ما زلزل أركان الإعلام الفلسطيني.

بانوراما رضوان أبو عياش

ولد رضوان إبراهيم عبد الله أبو عياش في مخيم عسكر للاجئين الفلسطينيين بمحافظة نابلس لأبوين هجرا من قرية الجماسين (الشرقي) قضاء يافا عام 1948 إبان نكبة فلسطين.

وقد تلقى أبو عياش دراسته الابتدائية والإعدادية في مدرسة مخيم عسكر.. ثم انتقل إلى مدينة نابلس ليكمل دراسته الثانوية.. ومن ثم التحق بمركز تدريب المعلمين التابعة لوكالة الغوث الدولية لدراسة اللغة الانجليزية، وبعد انتهائه من دراسته في المعهد، عمل مدرسا للغة الانجليزية في مدرسة سلواد، ومن ثم في مدرسة البيرة الجديدة.. ثم عمل مدرسا في مدرسة اللوثري في ساعات بعد الظهر، واستغرق عمله في التدريس تسع سنوات.

وقد حصل أبو عياش على شهادة البكالوريوس في تخصص اللغة الانجليزية من جامعة بير زيت، والماجستير في الإعلام من جامعة "ليستر" البريطانية، والدكتوراه في الإعلام من جامعة عين شمس المصرية.

وعمل محررا في صحيفة "الشعب" المقدسية، التي كان يصدرها الصحافي الفلسطيني المعروف محمود يعيش، ثم التحق بالمكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية بالقدس، وهنا تغير مجرى حياة رضوان بصورة كلية، فقد كان للمكتب الفلسطيني وأجوائه ورسالته وإيقاع العمل فيه أثر كبير في نفسيته، فقد كانت كل مواهبه وقدراته تنتظر الشرارة التي تنطلق منها.

ولي أن أؤكد أن مجلة "العودة" والمكتب الفلسطيني وصداقته لنخبة من الإعلاميين المتميزين أثر كبير في مسيرته الإعلامية والصحافية، ولا أنكر أن روحه القيادية كانت تظهر في كل أعماله، وفي كل ما كنت أسنده إليه من أعمال التحرير والتوجيه والاتصال على المستوى الفلسطيني في الداخل والخارج، كان موضع ثقتي التامة لان انتماءه السياسي والنضالي كان يعزز هذه الثقة، وكانت كفاءته وبعد نظره وإخلاصه تجعله دائما في مركز القيادة وموضع الثقة والريادة.

عمل رضوان أبو عياش في مجلة "العودة" وفي المكتب الفلسطيني أكثر من عشرين عاما كان فيها مثالا للإعلامي الذي يؤمن برسالته وبأن الصحافة والإعلام خندق متقدم للنضال الوطني، وشعاع كشاف ينير الطريق أمام المناضلين.

رضوان رجل المؤسسات

ساهم أبو عياش برفقة عدد من الصحافيين الفلسطينيين في تأسيس نقابة الصحفيين الفلسطينيين، وللأمانة التاريخية فإن نخبة من الإعلاميين كانوا قد أسسوا هذه النقابة ومنهم إبراهيم دعيبس، ومحمد عوض، وأحمد عبد أحمد، وصالح صيام وفؤاد رزق، وعندما انتهت صلاحية هذه اللجنة التأسيسية تقدم رضوان ونخبة من الصحافيين للترشيح ففاز رضوان بمنصب نقيب الصحفيين وتسلمت هيئة إدارية جديدة تنتهي بمنتهى الصراحة إلى حركة فتح. واستمر رضوان يقود هذه النقابة أكثر من سبع سنوات.

وقد أسس أبو عياش بعد ذلك مكتبا للإعلام في القدس، عرف باسم "مكتب العرب للصحافة" وكان ذلك بعد إغلاق المكتب الفلسطيني بالقدس، واستمر حتى عام 1993، حيث أغلق الاحتلال الإسرائيلي مكتبه ومنعه من دخول القدس المحتلة بحجة انتمائه لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كما أسس أبو عياش هيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية عام 1993 وعين رئيسا لها بتكليف من الرئيس الراحل ياسر عرفات وظل على رأس هذه المؤسسة السيادية الهامة حتى عام 2005.

كما أسس جمعية التكافل الاجتماعي عام 1988، وكان رئيسها حتى عام 1992، وشارك في عدة جمعيات ومؤسسات وطنية عديدة منها (الفلسطينية الدولية للإعلام) ومجلة "زهرة فلسطين" بالإضافة إلى العديد من المنظمات غير الحكومية.

ورضوان أبو عياش عضو في المجلس الوطني الفلسطيني، وعضو الفريق الفلسطيني المفاوض لمؤتمر مدريد للسلام، كما أنه عضو في عشرات المؤسسات الإعلامية والأدبية والدولية، كما كان عضوا في العديد من اتحادات الصحفيين في مختلف دول العالم.

وقد زار أبو عياش العديد من الدول العربية والغربية، وحضر عشرات المؤتمرات الرسمية والدراسية المتخصصة في السياسة والأدب والإعلام ممثلا لبلاده فلسطين.

وقد اعتقل أبو عياش عدة مرات اعتقالات إدارية من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي، في الفترة الواقعة بين عامي 1982 و 1991 بتهمة الانتماء إلى حركة فتح.

ومنع أبو عياش من السفر عدة مرات، وفرضت عليه الإقامة الجبرية المنزلية لمدة عام، وقد وجهت له تهمة عضوية القيادة الوطنية الموحدة في الانتفاضة الفلسطينية الأولى التي اندلعت عام 1987، وقد تم اعتقاله على خلفية هذه التهمة.

الدكتور رضوان طموح لا يتوقف

وقد عمل أبو عياش محاضرا للإعلام في جامعة بير زيت منذ العام 2001 حتى العام 2006 بوظيفة جزئية، كما عمل وكيلا لوزارة الثقافة ومحاضرا للإعلام في جامعة القدس.

ولرضوان أبو عياش عدد كبير من الإصدارات والمقالات والكتب العلمية والأدبية، يستخدم بعضها طلبة الجامعات الفلسطينية وخصوصا طلبة الإعلام، كما له عدة ترجمات، وأجرى عشرات المقابلات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية محليا وعربيا ودوليا، وقدم أوراق بحث عديدة كدراسات أكاديمية قدمت لعشرات المؤتمرات عن الإعلام والسياسة.

حس إعلامي متقدم

وأذكر أن رضوان أبو عياش كان سباقا في حسه الإعلامي الهام حيث كان يسعى لأن يكون لفلسطين تلفزيونا مستقلا وإذاعة مستقلة حتى قبل مجيء السلطة، وحتى قبل معرفتنا جميعا باتفاقيات أوسلو.

كان ذلك في عام 1993 عندما حضر رضوان أبو عياش إلى تونس العاصمة، وقابل الرئيس الراحل ياسر عرفات، ومن ثم تواصلت محاولات رضوان لإقامة هذه المؤسسة وتمسك بوجهة نظره وترافع أمام الرئيس الذي لاحظ حماسه واندفاعه في هذا الاتجاه، وقال إنه يستطيع أن يحصل على تصريح من الجهات المسؤولة ولكنه لن ينفذ ولن يقوم بأي عمل إلا بموافقة الرئيس وتوقيعه، وأذكر بهذه المناسبة أن أحدا لم يكن يجرؤ على أن يقوم بأي عمل سيادي، ولا تجرؤ أي مؤسسة على أن تتبنى فكرة معينة إلا بموافقة الرئيس وتوقيعه وهو ما كان يعرفه رضوان على وجه الدقة وبالفعل وقع له الرئيس. ومن هنا انطلقت الطاقات الفلسطينية للعمل، وكان ذلك وسط دهشتنا جميعا لهذا التوجه ولكن رضوان قال أنني في سبيل عمل (ولو دكانا صغيرا) ليكون نواة لمؤسسة سيادية فاعلة فيما بعد.

كان ذلك قبيل مجيء السلطة وبجهود ذاتية من رضوان وبعلاقاته وأسلوبه وبمساعدة مجموعة من الرفاق والأصدقاء استطاع بالفعل أن يطلق صوت فلسطين وأن يطلق التلفزيون الفلسطيني قبل مجيء السلطة بفترة زمنية لا تقل عن عام، ولما جاءت السلطة انتقلت جميع الكوادر إلى أريحا ليصبح صوت فلسطين وتلفزيون فلسطين من أهم المظاهر السيادية لدولة فلسطين الوليدة، وأشهد أننا جميعا كنا نشعر بالنشوة والانتصار والإحساس بالفخر، ونحن نستمع إلى صوت فلسطين والى موسيقى والحان وأنغام فلسطينية صرفة وأصوات وبرامج ذات طابع فلسطيني يشهد بأننا على طريق الدولة.

مجلة "العودة" والشبيبة

وكان رضوان أبو عياش يتخذ من مجلة "العودة" الأسبوعية والتي كانت تصدر في الغالب نصف شهرية، كان يتخذ منها منطلقا لاستقطاب حركة الشبيبة والنطق باسمها وتسجيل وتوثيق جميع مظاهر الفعاليات والنشاطات الوطنية والنضالية لحركة الشبيبة التابعة أصلا لحركة فتح.

وكان تردد الشباب على المكتب الفلسطيني لا يكاد ينقطع من كل أنحاء الضفة وقطاع غزة، إلى درجة أن تصبح مجلة "العودة" هي الناطقة باسم التنظيم، وكنت أحرص على أن افصل بصورة حاسمة بين العمل الصحافي المهني وبين الالتزام السياسي أو النضالي، غير أن هذا الفصل مستحيل حيث يتداخل العمل الإعلامي بصورة أو بأخرى مع العمل النضالي.

ولعل هذا الخلط هو الذي أدى فيما بعد إلى إغلاق المكتب الفلسطيني ومجلة "العودة" في أثناء الانتفاضة الأولى التي اندلعت عام 1987.

ولم أكن اغفل عن هذا النشاط وعن هذا التوجه ولكني من منطلق المسؤولية كنت أدعو رضوان أن يركز بصفة أساسية على أهم القضايا الوطنية، والمتغيرات على الساحة الفلسطينية، التي تشمل جميع الفصائل وجميع الشخصيات والتركيز على الدور الإعلامي الهام الذي يقوم به المكتب الفلسطيني في خدمة الإعلام الأجنبي لان المكتب الفلسطيني كان هو المؤسسة الوحيدة التي تقوم بهذه الخدمة وتتميز بها وتحظى بمصداقية عالية لدى جميع المراسلين الأجانب.

وكان عمل رضوان يتواصل إلى ساعات متأخرة من كل يوم كسكرتير لتحرير "العودة" التي كانت مواد ونشاطات الشبيبة تطغى على إعداد "العودة"، ولا شك أن اعتقال أبو عياش أكثر من مرة كان يتم على هذه الخلفية.

صداقة وثيقة

ولرضوان أبو عياش موقف لا أنساه. فعندما تعرضت سيارتي للتفجير من قبل عناصر مشبوهة على اثر موقفي من انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني السابع عشر، وأرادت أصابع المخابرات أن تصطاد في الماء العكر ففجروا سيارتي في ساعات الفجر، وكان رضوان أول من حضر وأول من أبلغ الشرطة وواكب جميع الإجراءات وحاول أن يخفف عني لأتقبل هذه الضريبة لمواقفي الوطنية بروح رياضية ونفس مطمئنة.

لمحات إنسانية

وفي حديث الذكريات والأشجان مع الأخت سلمى قرينة الدكتور رضوان أبو عياش استطعت من خلال الدموع والأحزان التي كانت تتخلل حديثنا فلا نكاد نعبر عن فكرة أو خاطرة أو موقف إلا وتهاجمنا نوبات من الدموع والأحزان فتجعل حديثنا سلسلة من العبرات المتقطعة التي تتخللها الجمل والكلمات.

قالت سلمى:

رضوان ابن خالتي وابن عمي، كان زواجنا تقليديا صرفا، فنحن كأسرة كنا نازحين في الأردن وقد قابلت رضوان وأنا طالبة في الصف الثالث الإعدادي، فتقدم لخطبتي، ولم نلبث أن حضرنا إلى مخيم بلاطة وتمت الخطبة بصورة رسمية، وكان أيامها يعمل مدرسا للغة الانجليزية في مدرسة سلواد براتب لا يتجاوز ثمانية وعشرين دينارا. وقد تم زواجنا بعد فترة من الخطوبة استمرت عاما ليعقد الزواج في 1975/7/12.

كنت لا أزال فتاة غضة، لم أغادر مقعد الدراسة الإعدادية إلا قليلا وهو الذي تعهدني وعلمني وجعلني أعتز بشخصيتي وكياني وأعرف قيمة العلم والانتماء، كان يدرسني باستمرار ويعلمني ويوجهني حتى حصلت على شهادة التوجيهي ومن ثم التحقت بجامعة القدس المفتوحة لأحصل على درجة البكالوريوس في الخدمة الاجتماعية وتواصل مشواري لأحصل على الماجستير من جامعة القدس أبو ديس في الإرشاد النفسي.

إلى هذا الحد أنا مدين إلى هذا الإنسان العظيم الذي جعلني أرتفع إلى مستواه، فلم يكتفِ بأن يحمل درجة الدكتوراه وإنما أصر على أن أكون صنوا له وأن احمل درجة جامعية تشرفني وتضعني في مكانة علمية وأدبية رفيعة يتمناها كل زوج مخلص لرفيقة حياته. وهذه الصفة قلما نجدها في مجتمعنا الشرقي الذي هو بالضرورة مجتمع رجولي لكن رضوان كان أبعد من ذلك نظرا وأنقى ضميرا وأصدق حبا وتوجها.

وأشهد أن تدريس رضوان لي للغة الانجليزية جعلني أتفوق في هذه اللغة ولا أعاني منها كما يعاني معظم طلابنا في المراحل الإعدادية والثانوية.

رضوان كبير عائلة أبو عياش

ليس من الحرج أن أعترف أن رضوان مثل أي لاجئ فلسطيني عاش ظروفا صعبة، ولكنه بقوة إرادته وصلابة موقفه استطاع أن يجتاز كل المراحل الدراسية فلما أصبح مدرسا براتب كان ينفق على أسرته كما

كان ينفق على عائلته الممتدة، كانت الثمانية والعشرين دينارا في يد مدبرة، حكيمة تسمح بأن ينفق على عائلته في رام الله وأن ينفق على عائلة والده في عسكر ولذلك فقد أصر على أن يتعهد إخوته الأربعة وأن ينفق عليهم حتى يجتازوا مراحل التعليم الجامعي. فاشرف وتعهد بتعليم عدنان ورياض وربيع وبلال.

وكان رضوان يتصرف دائما بروح كبير العائلة، فهو يحارب في عشرين جبهة من أجل أسرته، يدرس في رام الله صباحا، ويدرس بعد الظهر في مدرسة اللوثري، ثم يذهب ليداوم في جريدة الشعب المقدسية وبعد ذلك يكتب المقالات والمعالجات الصحافية ليرسلها إلى مصادر النشر.. فهو يواصل ليله بنهاره ليستطيع أن ينفق على أسرته الصغيرة، وعلى أسرته الممتدة.

صفات إنسانية لا تنسى

كان رفيق العمر رضوان إنسانا جديا، ملتزم في بيته وفي عمله، كريم إلى أبعد الحدود، قد يقتر على نفسه في مسائل المأكل أو المشرب أو الملبس، ولكنه يحرم نفسه لصالح عائلته ويتعامل مع جميع أفرادها بمنتهى السخاء والكرم، ويشهد كل أصدقائه بمدى كرمه وإنسانيته وحبه الشديد للمرح والدعابة والفكاهة وإطلاق روح النكتة دون تكلف، وإنما بعفوية وكل ذلك خارج من قلب ينبض بحب الناس وبتواصله معهم، وذلك كله في إطار من الجدية والالتزام والإخلاص فكان إذا آمن بشيء فإنه يعمله بكل شجاعة، ودون تردد وخاصة في ما يتعلق بالمواقف النضالية أو الوطنية.

وأشهد أن فترة عمله في مكتبكم في القدس وفي مجلة "العودة" إن هذه الفترة كانت حافلة بالعطاء، فلم نكن نراه إلا قليلا، وعندما يعود في ساعة متأخرة يكون مرهقا، ولكنه يظل قلقا يقلب الأفكار ويعيد النظر في مشوار يومه الحافل، وكثيرا ما كان يشركني في أفكاره وهمومه بل وفي موضوعات مقالاته وفي الأبواب التي يود أن يستحدثها في العودة أو في الحملات الصحفية التي يفكر في إطلاقها بعد أن يستأنس برأي رئيسة التحرير التي كنتِ خير من يقدر جهوده ومواهبه.

وما أذكره في هذا الصدد أنه كان موضع احترام زوجي داود طويل بل وكان موضع احترام كافة أفراد أسرتي، وكان هادئ الأعصاب، متزنا، طويل النفس، صبور في عمله، ويتميز بالجلد والمثابرة، فعندما كان الرقيب العسكري يشطب معظم مواد العدد فإنه كان يعود إلى تحرير الأبواب واستبدالها وإعداد العدد مجددا بكل صبر، وهذه العملية القائمة على شطب مجهود كامل وتخطيط صحافي يستغرق الوقت والجهد ثم يتم شطبه كل ذلك يبعث على الحزن والغضب والثورة ولكن رضوان كان يتجاوز كل ذلك.

وفي هذه المناسبة ونحن الآن في موسم الاحتفال بيوم المرأة العالمي فإني أشعر بأن الروح التي تتحدث بها سلمى عن زوجها جديرة أن تكون نبراسا وقدوة لكل امرأة فلسطينية.

رضوان الأب

أنجب رضوان ولدين وثلاث بنات، وأول أبنائه شادي الذي يحضر لشهادة الدكتوراه في الإعلام في بريطانيا والذي حضر بعد 24 ساعة إلى فلسطين ليفاجأ بالحدث الجلل.

يقول شادي: كان أبي يتعامل معي كصديق، وكان يشاورني في كثير من الأمور، وكانت جلساته مع أصدقائه يغلب عليها طابع المرح والفكاهة والنقاش الأدبي والفني والسياسي، وكنت أشعر وأنا أاستمع إليهم

كأني أدرس في جامعة الحياة الفن والفكر والأدب والظرف والفكاهة والسياسة والاجتماع والوطنية ومعرفة حقائق الأحداث وجوهر الناس والبشر.

هل أقول أن أبي كان مدرسة؟

إن من يعرفونه حق المعرفة يؤكدون ذلك، بل إن والدي عندما كان يتحدث كان أروع كثيرا مما كان يكتب. إنه من ذلك النوع النادر من المحدثين الذي يستولي عليك بأسلوبه وأفكاره وتعليقاته ومنه تعلمت كيف أتكلم وكيف أفكر وكيف أتعاطى مع الناس.

ورغم ملازمتي لوالدي طويلا إلا أنني في هذه الأيام الأخيرة الثلاثة المكرسة لتقبل العزاء في روحه الطاهرة عرفت حقائق وحكايات ومواقف من رفاقه لم أكن على علم بها، عشرات الحكايات والمواقف مع أصدقائه ورفاق مشواره فلكل من هؤلاء الأصدقاء الذين جاوز عددهم العشرات قصة وحكاية وموقف وعبرة ويد بيضاء قدمها أبي من منطلق الأخوة والصداقة.

كم كنت فخورا بهذا الأب الإنسان الكريم المتواضع المثقف المناضل الشجاع الذي عشق الإنسانية سلوكا وإخلاصا تجسد في هؤلاء الرفاق الذين مسحوا قليلا من عبراتي وأزالوا قليلا من غصة الزمن وقسوته وحسرته وكسوا أسرتي وأشقائي وأقاربي بباقات من الورد والزهور والاعتزاز والفخر بوالدي العزيز الذي أعاهد الله على أن أترسم خطاه وان كنت واثقا أن الوصول إلى ذلك قد يكون صعبا.

وقد أنجب رضوان ثلاث بنات (سونا، ماجستير دراسات معاصرة)، صمود (ماجستير حقوق وماجستير دبلوماسية) من اسبانيا، شذى (معهد سكرتارية).

كما أنجب ولدين هما شادي، ويحضر لشهادة الدكتوراه في الإعلام في إيرلندا، ومحمد، طالب جامعي في جامعة أبو ديس يدرس الإعلام. ويذكر أن لشادي بنتا واسمها (سلمى).

أخي رضوان .. ولا أقول وداعاً

أخي رضوان..

ولا أقول وداعا.. فلا أستطيع أن أتصور الآن صديق العمر رضوان أبو عياش قد رحل.

أمعقول هذا؟

كيف يمكن أن أتقبل هذه الكارثة.. كيف يمكن أن أسلم بأن الشمس لا زالت تشرق، وأن القلب لا زال يخفق، وأن نسمات الربيع لا زالت تعطر جو فلسطين في هذا الجو الربيعي الحزين الذي يشهد غياب هذا الصديق الذي كان يملأ الكون حبا ومرحا وإنسانية وإعلاما وفكرا، هذا الإنسان الذي علم نفسه بروح عصامية وعلم زوجته وعلم أولاده وقادهم إلى أرفع الدرجات العلمية وهو ابن النكبة الذي شق طريقه من الجماسين قضاء يافا ليصل إلى أعلى الدرجات العلمية وليعلم زوجته وبناته وأولاده وكل طلابه الذين تتلمذوا على يديه في مؤسسة التلفزيون أو الجامعة، علمهم جميعا كيف يعشقون العلم ويحصلون على أرقى الدرجات.

إن رضوان أبو عياش هو بمثابة شعلة لا تنطفئ من أبناء النكبة المقهورين الذين عبروا فوق جراحهم.

(2013/3/8)

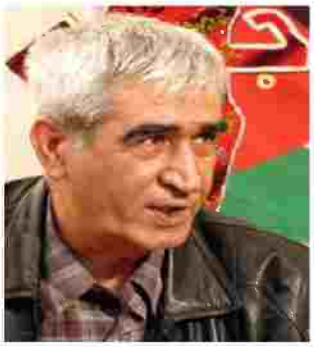

أحمد سعدات

أخرجته قوى البغي من قريته دير طريف

فصمم على العودة مؤمناً بمبدأ العين بالعين والسن بالسن.

المناضل الصامت عاش أكثر من ثلث حياته وراء القضبان وفي أعماق الزنازين الانفرادية

ربطته صداقة عميقة بالزعيم الراحل عندما تآلفت الأرواح في ليالي المقاطعة في رام الله.

لم يكن يمتلك سيارة ولا مرافقين وكان يردد: لماذا أتسبب في اغتيال الآخرين؟

عاش حياة المناضل المثقف المتحدث، المحاضر، الذي يمزج القول بالعمل،

والتنظير بالسلوك، والبطولة بالأفعال لا بالأقوال.

الرفيق أحمد سعدات، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مدرسة متميزة في الوطنية، تاريخ رائع في البطولة والفداء، منارة تهدي الأجيال في المواقف المشرفة، والثبات على المبدأ، وتقديم النفس طواعية فداء لفلسطين.

أحمد سعدات أكثر من عشرين عاما في الأسر، معظمها في زنازين الاعتقال الانفرادي، رغم كل ألوان التعذيب والاضطهاد والقهر ظل "أبو غسان" القائد الصامد الصامت الذي لا يفتح فمه أمام المحققين إلا ليزيدهم قهرا وإحباطا وإصرارا على الكتمان والثبات.

وإذا أردنا أن نقيم أحمد سعدات الذي جاء تاليا لجورج حبش وأبو علي مصطفى، فإننا سنجد أنه منارة وتاريخا وقيادة لا تقل عن رفيقيه. إن مكانته الوطنية الصادقة الشريفة المخلصة جعلت عشرات الأقلام تتسابق إلى الكتابة عنه وإعلان بطولته، كما أن ملايين الألسن رددت اسمه حبا وافتخارا في حين أن حناجر أحرار العالم، وثوار الدنيا على اختلاف دياناتهم وأطيافهم السياسية ومعتقداتهم الفكرية هتفت له، وأشادت ببطولاته وجرأته غير المسبوقة في تحدي الاحتلال ومقاومته.

كما أن الثورة الفلسطينية التي تعد من أهم الثورات المعاصرة وأكثرها نضالا، وأخصبها تجربة وأغناها مواقف، هذه الثورة سجلت بحروف من نار ونور تاريخ هذا القائد الوطني الكبير باعتباره واحدا من أبرز رموز الثورة الفلسطينية، وهو من أعظم القادة الذين يجيدون فن المقاومة والعمل السري الفلسطيني.

تجربة ثورية متكاملة

والرفيق أحمد سعدات شكل بتاريخه وسلوكه كما شكل بحاضره وماضيه تجربة ثورية متكاملة، وكان في كل تصرفاته وقراراته تجسيدا لمقولة الشهيد الخالد غسان كنفاني "إن الإنسان قضية".

ونحن في هذه العُجالة نريد أن نقدم تجربة الرفيق سعدات وتاريخه، وسيرة حياته لأننا على ثقة من أنه لم ينل حظه الذي يستحقه من الدراسة والتمجيد والإجلال.

كان أبو غسان قليل الكلام بطبعه، ولكنه صاحب العبارة المشهورة التي تقول العين بالعين والرأس بالرأس وقد أحبه المناضلون وعشاق الحرية لهذه الجرأة الصريحة.

لقد اعتقل سعدات مرات عديدة، وحكم عليه بالسجن فترات طويلة بلغت في مجموعها أكثر من عشرين عاما، وكان في غرف السجون ندا قويا، وقائدا محنكا، ومناضلا بعيد النظر، ولذلك فقد عزلوه بعيدا عن رفاقه وإخوانه الأسرى في زنازين صغيرة، معتمة وبصورة انفرادية حيث لا تعرف الشمس طريقها إلى زنزانته، ومع ذلك بقي حاضرا، غير بعيد عن أبناء شعبه، يسمو بمواقفه الوحدوية وصموده الأسطوري وشموخه النادر، ويبدع بتصريحاته الصائبة، ورؤاه الحكيمة ليسكن أفئدة الجماهير وعقولهم بمواقفه السياسية الناضجة وسلوكه الأنموذج.

ثلاث دول تتآمر على سعدات

عندما كان سعدات سجينا لدى السلطة الفلسطينية التي كانت تحافظ على حياته، وكان أبو عمار يعمل على تأمين سلامته، ورفاقه فلم يكونوا معتقلين بأي معنى. فقط كان المقصود إبعادهم عن الأيادي الآثمة لسلطات الاحتلال، ولكن السلطات الإسرائيلية تآمرت عليه، فتم اختطافه من سجن أريحا في الرابع عشر من مارس/ آذار عام 2006 من منطلق الانتقام والثأر من شخصه، ومن نهج المقاومة التي يمثلها، ومن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التي يقف على رأس الهرم فيها، والتي اتهمت باغتيال "رحبعام زئيفي" في السابع من أكتوبر/ تشرين أول عام 2001 ردا على اغتيال إسرائيل للأمين العام للجبهة الشعبية أبو علي مصطفى في الخامس والعشرين من أغسطس/ آب 2001.

وكان اختطاف سعدات ونقله إلى سجن أريحا فصلا آخر من فصول المؤامرة. فقد انسحب المراقبون الأمريكيون والبريطانيون، ومن ثم تقدمت القوات الإسرائيلية لتهدم جدران السجن جدارا بعد آخر. وبعد عشر ساعات استسلم الأبطال وتم اعتقال سعدات.

إخطبوط الاحتلال

والواقع أنه سبق لسعدات أن أمضى أكثر من ثلث عمره في السجون الإسرائيلية، وقد تم انتخابه أمينا عاما للجبهة الشعبية في بداية تشرين أول/ أكتوبر عام 2001، وقد تم انتخابه عضوا في المجلس التشريعي في انتخابات عام 2006 على رأس قائمة الشهيد أبو علي مصطفى، وكان اختطافه من سجن أريحا في الرابع عشر من آذار/ مارس 2006، وقد تم اعتقاله مع خمسة من رفاقه هم:

عاهد أبو غلمة

مجدي الريماوي

باسل الأسمر

حمدي قرعان

وعندما اقتحمت القوات الإسرائيلية سجن أريحا بعد انسحاب المراقبين الأمريكيين والبريطانيين، أخذت المدرعات الإسرائيلية تقترب رويدا رويدا وهي تهدم جدران السجن جدارا بعد آخر، وتتقدم تحت غطاء من النيران والقنابل والرصاص ولكن الأبطال لم يستسلموا ألا بعد مضي عشر ساعة.. اقتربت فيها المجنزرات إلى حد التلامس واشتد حصار الرصاص والنار على الأبطال الصامدين وشعروا بأنهم يوشكون على أن يلتحقوا بقوافل الشهداء ولكن ذلك لم ينل من عزيمتهم ولم يفت في عضدهم، فظلوا صامدين وتقدموا رافعين رؤوسهم بكل شموخ وإباء وبروح معنوية عالية، كانت لحظات استسلامهم للعدو لحظات مجد وفخار وقوة وبطولة وليست لحظات ضعف أو انهزام.

لمحات من حياة القائد الصامت

وقد أصدرت وزارة شؤون الأسرى والمحررين تقريرا بمناسبة الذكرى العاشرة لاعتقال الأسير القيادي النائب أحمد سعدات، جاء فيه أن تجربة سعدات النضالية تشبه رحلة طويلة إلى القيامة، وهي بمثابة رسول الحرية، الذي لم يتعب ولم يستكن في سبيل الكرامة والحرية لشعبه وأرضه، وهو المقاتل بصرامة ورجولة، والواقف على مبادئه وقناعاته لا يساوم عليها حتى آخر رمق من حياته.

وجاء في التقرير أن سعدات هو القائد الصامت، الذي هز أركان الدولة العبرية وقلب موازينها ونظرياتها الأمنية، واستنفد كل ما فيها من قمع واغتيالات وكراهية. وقال التقرير: "لقد وقف سعدات شامخا أمام محققيه، ولم يتكلم كلمة واحدة، رغم التعذيب والتنكيل، الذي تعرض له داخل أقبية التحقيق، تعرض للشبح، والمنع من النوم تحت أقصى الظروف إلى أن تمت محاكمته غير الشرعية، وحكم عليه بالسجن ثلاثين عاما. وكان طوال اعتقاله عرضة للنقل من زنزانة إلى أخرى ومن عزل إلى آخر ومُنع أهله من زيارته.

إن شريط حياته لا يعدو أن يكون رحلة طويلة مع الحرية يخوضها ببسالة وشجاعة.

بانوراما أحمد سعدات

ولد أحمد سعدات يوسف عبد الرسول المنحدر من قرية دير طريف عام 1953 لأسرة مناضلة تم تهجيرها من قريتها الأصلية عام 1948، ومن ثم التحق بصفوف العمل الوطني عام 1967، ثم انضم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وقد بدأت رحلة الاعتقالات مع سعدات منذ عام 1969 لتبلغ في مجموعها أكثر من ثلث حياته، وتقلد طوال مسيرته النضالية، مسؤوليات متعددة داخل السجن وخارجه، فقد انتخب عضوا في اللجنة المركزية العامة للجبهة الشعبية، كما انتخب عضوا في المكتب السياسي للجبهة الشعبية منذ العام 1981.

وعلى اثر أقدام قوات الاحتلال على اغتيال أبو علي مصطفى الأمين العام للجبهة بصاروخين استهدفا مكتبه في مدينة رام الله، تم انتخاب سعدات خليفة له وكان ذلك مع بداية أكتوبر عام 2001.

والحقيقة أن من لا يعرف سعدات، لا يعرف فلسطين، فهو اسم متألق في النضال ورمز ومدرسة لشعب قرر أن يحيا بكرامة وسيادة على أرضه، مالكا لمصيره مستقلا بقراره، إنه الند القوي والخصم

العنيد لأعداء الحرية والسلام، وإنه المتراس الأول لكل المدافعين عن العدالة والحرية في العالم. وهو عضو منتخب في المجلس التشريعي الفلسطيني عام 2006 كما أنه عضو في المجلسين الوطني والمركزي لمنظمة التحرير، وهو ضمن أعضاء المجلس التشريعي المعتقلين والبالغ عددهم 25 نائبا والذين لا زالوا في السجون حتى هذه اللحظة.

سعدات في سجن بئر السبع غرفة 2 قسم أ

ويقول عنه رفيقه في مشوار العمر والنضال حبيب هنا الذي قاسمه في المأكل والمشرب والملبس والمسكن في منتصف السبعينيات عندما انتقل من سجون الضفة الغربية إلى سجن بئر السبع. يقول حبيب:

ها هو أحمد سعدات في سجن بئر السبع في الغرفة رقم 2 قسم أ يحوطه الرفاق، وفي عيونهم حب واحترام لهذا المناضل الفذ صاحب التجربة العريقة والرؤيا النضالية الشاملة، لقد كان هؤلاء الشباب المنقطعون عن العالم الخارجي منذ إنشاء ذلك السجن الصحراوي الذي أريد له أن يكون معزولا، تماما حيث يجلد السجناء بسياط حرارته صيفا ويتعذبون بلسعات البرد شتاء. كانوا دائما في لهفة حقيقية للاستماع إلى ذلك الشاب.. القوي الفتي الذي يشكل مخزونا لا ينضب من المعرفة وشمولية الثقافة، وكلما تحدث أصغينا إليه باهتمام شديد، كأن على رؤوسنا الطير، كان متحدثا لبقا، قادرا على فرض شروط الاستماع علينا وقبولها بصمت مترقبين فيض المعلومات الذي يتدفق في حديثه.

ويواصل رفيقه في السجن حبيب هنا استعراض ذكرياته فيقول:

بعد أيام قليلة فوجئنا بإصدار كراسه الأول، عن تجربة عمل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الضفة الغربية على المستوى الحزبي. وقد ظهر أنها تجربة ناضجة، نابضة بالحياة، قابلة لإعادة النظر، حسب المعطيات، وملائمة مع ظروف العمل السري، وتشكيل نواة العمل المسلح القادر على الاستمرارية في كل الأحوال والظروف، وبما ينسجم عن مكونات الحياة اليومية للجماهير، وضرورة المحافظة عليها بهدف تعزيز صمودها، وتوفير الحد الأدنى لإمداد الجبهة الشعبية بالدماء الجديدة. ولكنه لم يتطرق إلى مفاصل العمل السري خشية أن تتسرب هذه الوثيقة إلى الاحتلال مكتوبة بخط يده، وهو الذي تعرض لكل أنواع التعذيب ليفصح عنها ولكنه صمد وظل طاويا أوراقه وأسراره.

مدرسة باريس الثورية

كانت أفكار ورؤى الرفيق احمد سعدات، وكتاباته تصادف هوى شديدا في نفوس رفاقه المتعطشين للفكر، والكتابة والآراء كأنما هم في شوق ولهفة صحراء النقب للماء والحياة.

لقد ناقشناه نقاشا جادا يرقى لمستوى التجربة التي عكفنا على دراستها، منذ السماح للسجناء بالتزود بالكتب، وكانت هذه المناقشات تزداد أصالة وعمقا لأننا وصلنا إلى مرحلة متقدمة في فهم الحياة الحزبية، وبالتالي واظبنا على عقد مؤتمراتنا الدورية بانتظام لدرجة اصطلح فيها على تسمية غرفة 2 قسم أ في تلك الفترة بكومونة باريس (موطن اجتماع مؤسسي الثورة الفرنسية) وبالتالي شكلت لاحقا مدرسة ثورية عن جدارة. ولم تكد تمر عدة أسابيع حتى صدرت الكراسة الثانية لأحمد سعدات عن الحياة الثقافية وتفاعلاتها داخل المجتمع وفي هذه الكراسة ألقى الضوء على العديد من الفرق المسرحية التي تشكلت في

الضفة الغربية والأراضي المحتلة عام 1948 ووضح دور هذه الفرق في نشر الوعي الوطني وبيان طبيعة العلاقة مع الجبهة الشعبية ودورها في خلق حركة جماهيرية فاعلة، ومتفاعلة مع الأحداث في مختلف مدن الضفة الغربية وفلسطين منذ عام 1948. وتعد هذه الدراسة عملا ثقافيا وطنيا رائدا يؤكد أهمية العروض المسرحية التي احتلت عن جدارة مكانة الصدارة من اهتمامات الجماهير، وبالتالي استقطبت الجبهة من خلالها أوسع القطاعات، وانضم إلى صفوفها العديد من الأعضاء والأصدقاء والأنصار، وباتت الجبهة تعول كثيرا على حاضنتها الطبيعية الكفيلة بحمايتها وتواصلها.

سعدات القائد المثقف

إن هذا التحرك الثقافي العميق الذي كان يتم بفضل الرفيق سعدات أصبح محل اهتمام العديد من الشباب والجماهير، التي استوعبت بحب واهتمام توجهات سعدات الفكرية والنضالية.

وفي هذه الأجواء كان الرفيق سعدات الهادئ الرزين يشق طريقه نحو القمة، وأصبح محل أنظار جميع الرفاق وهو المتفاعل إيجابا مع الجميع، وكان الرفاق يتسابقون إلى محاولة استقطاع جزء ضئيل من وقته لأجل الإفادة من كثرة المعلومات التي يمتلكها، ومن المخزون الهائل المتجدد الذي لا ينضب وذلك بغرض تحصين أنفسهم ضد تجارب الآخرين، ومعرفة أي شيء عن كل شيء، باعتبار أنهم سيحتاجون له يوما إذا ما أرادوا الانخراط في الحياة السياسية ومفاعيلها.

وعندما تم عقد المؤتمر الدوري للجبهة في سجن بئر السبع حصد فيه سعدات أعلى الأصوات ليصبح واحدا من القادة الثلاثة الذين يقع على عاتقهم قيادة العمل اليومي لمنظمة السجن، غير أنه لم يكن كالبقية الباقية التي تبوأت هذا الموقع، فقد كان متميزا عن الجميع برؤيته وأفكاره وشخصيته النضالية المتميزة.

كما كان متميزا في حرصه الشديد على مبدأ السرية وعدم الاستعراض مهما كانت الأسباب لان الإعلان أو الإشهار قد يؤدي إلى نتائج وخيمة. وكان لا يرى في المظاهر سوى تغطية فشل يعاني منه أصحابه، بل وفي أحيان كثيرة يؤدي إلى كارثة تنظيمية، كان من الممكن تجنبها قبل أن تقود إلى عمل طائش، سرعان ما تتكشف مفاصله. وهذا الأمر كان يجعله يحذر دائما من العلنية، داعيا إلى السرية، في العمل مهما كانت مبررات العلنية.

أحمد سعدات ورفيقه محمد الخواجا

عندما انتقل سعدات إلى سجون الضفة الغربية من معتقل إلى آخر كانت إدارات السجون تدرك خطورته، وكان ملف التحقيق عند الاعتقال أو عند الانتقال إلى أي سجن يسبقه، ومن هنا كانت إدارة السجون العامة تحاول عزله دائما وأبعاده عن رفاقه، حتى لا يؤثر عليهم في السجن، وحتى لا ينجحوا في تشكيل خلايا، تتواصل في ما بينها بعد انتهاء مدة محكوميتهم، لا سيما وأن جهاز المخابرات العامة يدرك تماما مدى خطورة أحمد سعدات بعد أن واكب استشهاد رفيقه محمد الخواجا الذي فضل الاستشهاد أثناء التحقيق على أن يعترف بكلمة واحدة، وكان من الممكن أن يتعرض سعدات لنفس المصير إذا واصل المحققون الضغط عليه، لانتزاع المعلومات بالقوة، إلا أن الضجة التي واكبت استشهاد الخواجا حالت دون تعريض سعدات لنفس المصير.

لقاء في رام الله

يقول رفيق سعدات حبيب هنا، بعد ثلاثة عقود تقريبا من معرفتي به ومزاملته في السجون التقيته بالصدفة في مدينة رام الله، كان لقاء حميميا بحضور رفيق آخر، تحدثنا في أمور كثيرة عن السجن وعن غزة ورام الله وعن أمور سياسية متنوعة وكعادتي انهلت عليه بالأسئلة كي أتعرف على المدى الذي وصل إليه هذا الموسوعي الذي يهرني بكم المعلومات، التي يمتلكها قبل ما يزيد عن ثلاثة عقود، وكان يجيب على أسئلتي بهدوء رزين بعيدا عن الاستعراض المعرفي غير أنه مقنع تماما، وينفذ إلى العقل مباشرة دون داعي إلى التكرار والتأكيد وبذل الجهد في الإقناع. فقلت له:

- إنك لم تتغير يا أبا غسان، بل إن الأيام زادتك قدرة وخبرة وتجربة في الربط بين القضايا المختلفة بمنطق قوي متين، لا يمتلكه الكثير من المحللين السياسيين بل ولا يستطيعون بلوغه.

لمحات من مرافعته أمام القضاء الإسرائيلي

وأمام هيئة القضاء الإسرائيلي في سجن عوفر التي نقل إليها سعدات عبر المصفحات والمدرعات في موكب عسكري شديد الحذر والتعقيد، وبصورة أمنية مشددة، وقف أحمد سعدات ليترافع عن نفسه فقال: إن أحمد سعدات "سجين ضمير"، فهو مختطف، ورهينة لمعادلات سياسية، إنه ضحية تقاطع استراتيجي بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية، وكلتا السياستين تتحكم فيها عقلية استعمارية متطرفة ضد الفلسطينيين.

ولا يمكن فصل هذه المحاكمة عن عملية الصراع التاريخي في فلسطين، والمستمر حتى يومنا هذا، إنه صراع يدور حول أرض فلسطين، حول تاريخها، وحضارتها، وثقافتها، وهويتها، وإن أي محاولة للقفز عن هذه الحقيقة تشكل تعسفا بعيدا عن الواقع ومجانبا للصواب ومحاولة لإخضاع الضعيف لمعايير وموازين القوى التي تتحكم في هذا الصراع على الأرض.

وإذا كانت وظيفة أي جهاز قضائي هي تحقيق وإقرار العدل كركن أساسي، فإن ممارسة القضاء الإسرائيلي أبعد ما تكون عن النزاهة والأخلاق، خاصة وأن هذا القضاء ليس مستقلا بل تتحكم فيه مجموعة من القواعد والقوانين المنحازة.

إن جهاز القضاء الإسرائيلي المتفرعة منه هذه المحكمة، التي تنظر في قضيتي كمناضل فلسطيني يعد إحدى أدوات الاحتلال العسكري ووظيفته إضفاء الشرعية القانونية على جرائم الاحتلال، وهو يهدف إلى فرض الرؤية الإسرائيلية التي تُعنى بإدارة الصراع وطبيعته وترفض منطق القانون الدولي في الدفاع عن النفس، فتصور المقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني بأنها إرهاب.

إن سياسة إسرائيل القائمة على القمع وإنكار حق الفلسطينيين، لا تخدم الشعارات التي تسوقها يوميا للسكان اليهود في فلسطين أو لشعوب العالم تحت عناوين الأمن.

ويقول سعدات: وعلى هذا الأساس فإني أرفض الاعتراف بشرعية محكمتكم، أو تشريع احتلالكم، أو الوقوف أمام كل منهما، فما تسمونه في لائحة اتهامكم مخالفات أمنية هي في حقيقة الأمر، واجبات وطنية، إن كانت قد حدثت فعلا أم لا، وتأتي في إطار الواجب العام في سياق مقاومة الاحتلال، حسب القوانين الدولية.

وفي الوقت نفسه فإنني كأمين عام للجبهة الشعبية أؤكد اعتزازي بانتمائي للحركة الثورية الفلسطينية، وامتدادات هذه الحركة على الصعيدين الإقليمي والقومي والدولي، وأفتخر بكوني مناضلا من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلي وتحقيق الاستقلال الوطني والعودة لأبناء شعبي إلى وطنهم.

وأحب أن أؤكد أنني أمتلك الإرادة المستمدة من عدالة قضيتنا، وعزيمة شعبنا لرفض القيام بأي دور في هذه المحكمة المسرحية، محافظا على توازن منطقي، المنسجم مع تصميمي على مقاومة احتلالكم إلى جانب أبناء شعبنا، مهما ضيقتم مساحات الحركة المتاحة لي كأسير حرية.

سعدات المناضل الذي يهب نفسه للآخرين

ولكي نعطي صورة صادقة عن فكر ورؤى وشخصية سعدات فإننا نتوقف أمام هذه العبارات التي قالتها السيدة عبلة محمد عثمان الريماوي "أم غسان" حول نهج وطريقة زوجها قائدا وإنسانا، تقول أم غسان:

بدأت حياة احمد النضالية قبل 67، والتحق بالجبهة الشعبية منذ تأسيسها، وبدأت فترة مطاردة زوجي منذ خروجه من السجن في عام 1989 كان شبه مطارد، لا يتواجد في البيت لفترة طويلة، وفي سنة 92 أعطت الحكومة الإسرائيلية أوامر للجيش الإسرائيلي لاعتقال كافة أعضاء الجبهة الشعبية في ليلة واحدة، وكانت المدن الفلسطينية في غزة والضفة الغربية تتعرض لاعتقالات كثيرة، طالت الصف الأول والثاني من القيادات في الجبهة، وجاءوا ليعتقلوا زوجي ولكنهم لم يجدوه في البيت ولم يعتقلوه، ومن ذلك الحين وهو مطارد بشكل رسمي، ومعنى ذلك أنه لم يأتِ إلى البيت، ولم يظهر في الشارع أبدا، وبعد مطاردته لفترة تسعة أشهر اعتقلوه في مدينة البيرة، بالصدفة، حيث كان يمشي في الشارع وتعرف عليه جندي من خلال الصورة التي وضعوها له على الحواجز، وبعد أن انقطع اتصالنا به لم نستطع أن نعلن عن اعتقاله، لأننا غير متأكدين من ذلك، وبعد أسبوع أعلنا اعتقال زوجي أحمد رسميا وكانت قد مرت فترة تحقيق طويلة حيث نقلوه إلى سجن "بيتح تكفا" وكان حينها مسؤول الشاباك هناك رجل يدعى "أبو شريف" وأقسم ضابط الشاباك: إما أن يقتله أو يجعله يركع، ولكن والحمد لله لم ينفذ قسمه، وفي حينها بقي في زنازين التحقيق مائة وعشرة يوما دون أن نراه، وبعد ذلك حولوه للسجن الإداري وبقي فيه خمسة عشر شهرا وبعد ذلك خرج من السجن.

وعن ذكريات زواجها تقول:

إنه تم في سنة 1981، وقد أنجبنا ولدين وبنتين، هما غسان وإباء ويسار وصمود.

وتقول أم غسان:

المعروف عن الأمين العام للجبهة الشعبية أنه كان يعيش حياة تقشف وحياة بسيطة، ففي مرحلة السلطة لم تكن لديه سيارة، وكان يتحرك بسيارات الأجرة أحيانا وقضى سنوات انتفاضة الأقصى ماشيا على قدميه، وبعد أن اشتدت المطاردة الإسرائيلية له بعد اغتيال وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي كان زوجي يعتبر مشكلة للإسرائيليين، فكيف يصلون لشخص مطلوب يقضي معظم وقته ماشيا، وينتقل مشيا على الإقدام، متخفيا، رغم أنه كان الأمين العام للجبهة الشعبية. وكان يقول لي إنه لا يفضل أن يركب معي في سيارتي لأنه كان مستهدفا، فإذا قام الإسرائيليون باغتيالي لماذا تكونين معي، هل يجب أن تقتلي مع

الأولاد، إنهم قد يضربوننا بصاروخ. وكان يرفض أن يكون له مرافقون، وكان يقول إذا اغتالني الإسرائيليون يقتلون شخصا وليس مجموعة، ولا أقبل بأن يموت آخرون بسببي. وهذه الإنسانية الرفيعة والحس الوطني بحياة الآخرين لم نسمع عنه عند أي مناضل آخر في أي فصيل، وكونه لا يوجد له مرافق يترجم عن عدم حبه لهذه المظاهر، وهذا التقشف في حياة أحمد جعلته ينتخب بأغلبية من قبل الشباب في الجبهة حيث إنه حصل على الأغلبية في غزة والضفة الغربية، وزوجي له مبدأ في حياته أن المناضل يجب أن يعيش حياة بسيطة، وهو لا يناضل من أجل نفسه بل إنه يناضل من أجل شعبه.

أم غسان في خيمة الاعتصام

في مسيرته النضالية التي امتدت أكثر من أربعين عاما كانت زوجة القائد سعدات دائما سندا له ورفيقة لكفاحه، ومؤازرة لكل قرار يتخذه وكل موقف يدافع فيه عن قضية الوطن بكل شجاعة وإخلاص، وفي الإضراب الأخير عن الطعام الذي خاضه الأسرى معلنين عن تضامنهم مع سامر العيساوي ورفاقه كان لأم غسان موقفا رائعا، فقد قالت: إنني أقف بفخر واعتزاز في خيمة الاعتصام وأعلن أن "أبو غسان" أصر على خوض الإضراب مع رفاقه وإخوانه الأسرى رغم وضعه الصحي ورغم مرضه، ومنذ إعلانه الإضراب تعرض لضغوط أكثر من حيث عزله في زنازين سجن نفحة، وحاولوا حصاره ومنع أخباره من خلال حظر زيارة المحامين له، وأشارت أم غسان أن المحامي أكد لها أن أبو غسان ورفيق زنزانته الشيخ جمال أبو الهيجا يتمتعان بمعنويات عالية، وهما مصران على مواصلة الإضراب حتى تنفيذ مطالبهم العادلة. وقالت: إننا سنبقى نناضل حتى تنتصر إرادة الأسرى التي تتطلب مواقف أكثر جرأة وفاعلية في الشارع الفلسطيني.

بين سعدات والرئيس تشافيز

من المعروف أن الشعب الفلسطيني بكل كوادره وقياداته ومثقفيه يكن إعزازا شديدا للرئيس الفنزويلي هوغو تشافيز الذي رحل قريبا على أثر مرض عضال، وينظر أبناء الشعب الفلسطيني إليه على أنه محرر أمريكا اللاتينية وأنه من قادة النضال التحرري التقدمي والإنساني في أمريكا اللاتينية والعالم أجمع، وقد قام الرفيق سعدات بالتعبير عن مشاعره المخلصة الفياضة نحو هذا القائد في البرقية التي أرسلها إلى نائب رئيس جمهورية فنزويلا، وأكد فيها أننا في حالة حزن شديد لأننا فقدنا صديق الشعب الفلسطيني، صديق الأمة العربية ونحن أحوج ما نكون إليه لأننا لن ننسى مواقفه البطولية مع شعبنا ضد العدوان والطغيان والاحتلال.

إنه أنموذج فذ للرجل القوي والسياسي الحكيم والبطل القومي الذي ينحاز إلى المظلومين والفقراء والذي أحبه الشعب حبا يذكرنا بحب الجماهير العربية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر. كيف لا وقد قال تشافيز بأنه كان ناصريا منذ أن كان طالبا في الكلية الحربية.

بين سعدات وأبو عمار

لم يلتقِ سعدات بالرئيس الراحل أبو عمار إلا عندما اعتقل في المقاطعة، ولكن إعجابه وتقديره للرئيس عرفات قوامه الشجاعة الفائقة التي كان يتميز بها أبو عمار، وهناك تواصل وجداني حميم بين الرجلين،

ففي مسيرة كل منهما تلك اللمحات الرائعة من البطولة والإصرار والتحدي والاستهانة بالموت والصمود أمام الصعوبات.

إن القراءة المتأنية لسيرة حياة سعدات تظهر بوضوح أن هناك قاسما مشتركا بينه وبين الزعيم ياسر عرفات، وبعيدا عن الخلافات والتفاصيل الإيديولوجية يظل الزعيمان كل منهما صورة من البطولة والشجاعة التي سيحكم التاريخ بأنها قلما تتكرر في الرجال.

وقد عقدت أواصر صداقة حميمة عن قرب بين الرجلين عندما كان سعدات في المقاطعة، فكثيرا ما كان الرئيس يجتمع به ويشاوره ويبادله الرأي في كل أمور النضال الفلسطيني، ونحن في معرض حديثنا عن سعدات عرفنا كم كان مثقفا وكم كان مبهرا وكم كان ثائرا ومنطقيا، ولا شك أن عرفات الذي يعرف أقدار الرجال قد ازداد قربا من سعدات وإعجابا به، وحبا له وود لو يفتديه بكل حياته ورفض بإصرار وشجاعة أن يسلمه للقوات الإسرائيلية رغم إلحاحها الشديد ورغم الضغوطات العالمية المختلفة.

كان حبه لسعدات وإيمانه بأنه رفيق درب ونضال يدعوه لأن يضحي بروحه من أجل هذا القائد الصادق الشجاع الجريء البطل.

وإذا كانت القوى الأجنبية الطاغية قد تحالفت ضد سعدات فإن ذلك تم من وراء ظهر الرئيس ياسر عرفات، لقد فوجئ بهذا الترتيب العالمي من قوى البغي والعدوان المتمثلة في المراقبين الأمريكيين والبريطانيين ومؤامرتهم المنسوجة بدقة بحيث وضع أمام الأمر الواقع.

وهو حتى اللحظات الأخيرة كان يؤمل أن يكون الحامي والراعي والمحتضن للثائر العظيم أحمد سعدات. وكم في كواليس الثورة الفلسطينية وملفاتها من مؤامرات مؤلمة واجهتها القيادة الفلسطينية لأنها كانت أقوى من ظروفها وسلسلة اغتيالات أبطال الثورة خير شاهد على ذلك على امتداد أكثر من أربعين عاما.

أخي سعدات..

كم أتوق إلى أن أراك حرا.

كم أتوق إلى أن أراك تكسر قيدك.

كم أتمنى أن أراك تعود إلى المجلس التشريعي بصوتك وصورتك ومواقفك النزيهة .

وكم أرجو أن ترفع علم الحرية عاليا على روابي القدس وعلى كنيسة القيامة وقبة المسجد الأقصى.

كم أتطلع إلى ذلك اليوم التاريخي الذي ينتصر فيه الحق على الباطل، وتشرق شمس العدالة والحرية التي تتأجج في صدرك، وتنطلق نورا وشعلة لكل أبناء فلسطين من رفح إلى جنين ومن الشواطئ إلى السهول والجبال، ومن الصحارى إلى البحار، ومن كل حبة رمل في أرضنا المقدسة، ومن كل شجرة أو سنبلة أو وردة أو زهرة.

(2013/3/15)

أيمن الشراونة

دخل غزة في مواكب النصر بعد أسطورة كفاح على حافة الموت

استمرت طوال سبعة شهور.

ثنائية الأم والابن في ملحمة بطولية تجسد قوة الإرادة

وروعة الانتصار على البغي والعدوان.

أبدعت الثورة الفلسطينية عبقريات نضالية منها أطفال الحجارة

والعمليات الاستشهادية والإضراب عن الطعام حتى حافة الموت

فإما النصر وإما الشهادة

طول فترة اعتقاله كان يواجه البرد القارس (بحرام) وحيد لا يكاد يغطي جسده المنهك

فأي عبقرية إنسانية في قلوب من اعتقلوه؟!

الحاجة زهرة دقت أبواب الستين وأثبتت أيّ أم هي المرأة الفلسطينية

وأهدت البطولة زهرة وقدوة مع إطلالة الربيع في عيد الأم.

يخوض أسرى الثورة الفلسطينية معارك ضارية مع رموز القمع والطغيان.. معارك تتجدد فصولها بين فينة وأخرى كلما ظهر فارس شجاع تحدى بإرادته وقوته وجسارته كل مفردات الخوف والقمع والاعتقال، فارس شجاع تشتعل في كيانه براكين الثورة والحقد على فئة باغية، تغتصب أرضه وسماءه، وتشرد أهله وشعبه فتدفعه دفعا إلى معترك الحرية، والدفاع عن الأرض والعرض.

فإذا قدر له أن يسقط أسيرا، فان زبانية العدو تسوقه إلى ظلام الزنازين، لتسومه كل أنواع القهر والظلم والعدوان. فإذا عرف الأحرار المناضلون من صفوة الثوار، كيف يثورون، وكيف يغضبون، وكيف يفكون الأغلال لينطلق رفاقهم إلى آفاق الحرية ضمن شروط واضحة محددة يشهد عليها أحرار العالم، وتوثقها أجهزة الإعلام ومؤسسات الضمير، ما أن يتم ذلك حتى تتراجع قوى البغي والعدوان، وتعاود مرة أخرى اعتقال هؤلاء المناضلين غير مكترثة بكل الالتزامات والعهود.

وعلى خلفية هذه الأحداث يشعر المناضلون بمشاعر الحزن والغضب والألم الشديد، لأنهم عندما ناضلوا كانوا ينطلقون عن إيمان وعقيدة، موطنين أنفسهم على الموت أو الشهادة، ولكن بعد إطلاق

سراحهم ثم اعتقالهم مجددا، فان ذلك يبعث فيهم عواصف القهر والغضب والسخط، ومن ثم فإنهم يلجأون إلى السلاح الوحيد المتاح أمامهم وهو إعلان الإضراب عن الطعام حتى الموت.

أقوى من القهر

لقد شكلت هذه الظاهرة النضالية الرائعة معلما من معالم الثورة الفلسطينية، ذلك أن تاريخ ثورتنا حافل بألوان الابتكار وعبقرية النضال، وارتجال أساليب نضالية مختلفة، فهناك ظاهرة "أطفال الحجارة" التي بهرت العالم كله، وهناك ظاهرة العمليات "الاستشهادية"، وهناك ظاهرة مهاجمة العدو بالسكاكين إلى غير ذلك من الألوان العبقرية من النضال الفلسطيني، وفي الحقبة الأخيرة تبدت ظاهرة الإضراب عن الطعام حتى الموت أو الحرية، وقد شكل سامر العيساوي وهناء شلبي وأيمن إسماعيل الشراونة ورفاقهم الأبطال مفصلاً هاما في تأصيل هذه الظاهرة، ولا يعني ذلك ان الإضراب عن الطعام لم يكن معروفا قبل ذلك في السجون ولكنه على أيدي هؤلاء الأبطال ورفاقهم أصبح ظاهرة ثورية نضالية عالمية، تتناولها جميع المفردات الإعلامية وعلى مختلف الأصعدة.

ملحمة بطولة وصمود

المناضل الشيخ أيمن إسماعيل سلامة الشراونة ابن بلدة خاراس، يشكل ملحمة نضال متكاملة فهو مناضل واجه الاحتلال بقوة وثبات، حيث قضى عشر سنوات في سجنته الأولى التي كانت بتاريخ 2002/5/10، كان يومها يعمل في محل في بلدته ولكنه لم يلبث أن ترك هذا العمل بسبب ظروف أمنية، وقد طورد بعد ذلك لمدة عامين، ولاحقته قوات الاحتلال الإسرائيلي، وهاجمت بيته وأسرته مرات عديدة مما جعل العائلة تعيش صورا صعبة من المعاناة والتشتت والترهيب تهز ضمير أي إنسان، وتقلب حياته رأسا على عقب.

بعد فترة مطاردة قام أيمن بتنفيذ عملية جريئة في مدينة بئر السبع، أُصيب على أثرها أربعة وعشرون إسرائيليا بجروح حسب مصادر الاحتلال، وفي طريق عودته تم إلقاء القبض عليه بعد رصده ليحكم عليه بالسجن لمدة ثمانية وثلاثين عاما.

أشجان ودموع الأهل والخلان

تقول زوجة المناضل أيمن (نبيلة عبد الرحمن): - إنّ كل الأعراف الدولية والقوانين الإنسانية تتيح لأهل المعتقل أن يلتقوا بابنهم المسجون في سلام وبصورة دورية، إلا في فلسطين. فالزيارة وان تمت بعد سنوات الانقطاع لا تتم إلا مثقلة بألوان القهر والقمع والتعب.

وتضيف السيدة (نبيلة): لم أتمكن من رؤية زوجي في سجنه إلا بعد سبع سنوات، وكانوا لا يسمحون لنا إلا بزيارة واحدة لمدة أربعين دقيقة كل عام مرة، ومن وراء الزجاج. وتضيف الزوجة: إنني لم أرَ أيمن خلال عشر سنوات غير أربع مرات وكنت في يوم الزيارة أخرج من منزلي الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأقف على حاجز الانتظار، وأسير على قدميّ في رحلة محفوفة بالعذاب والخوف، وكل ذلك حتى أستطيع أن أرى أيمن لدقائق لا تغني عن اشتياق ولا تكسبني إلا مشاعر الشجن والعطف والتمزق والحزن.

الإفراج عبر صفقة شاليط

وقد خرج أيمن بتاريخ 18 تشرين الأول عام 2011 بعد عشر سنوات أمضاها في سجنه، حيث كسر القيد بإرادته، وعاد منتصرا إلى أحضان قريته (خاراس) وأهله وأولاده وذويه في محافظة الخليل وامتلأت أركان البيت يمنا وسرورا.

ولكن هذه الفرحة لم تكتمل. فسرعان ما هبت علينا عواصف الأسر والفرقة لتعيد الكآبة والحزن في نفوسنا ومشاعرنا، فبعد مضي أقل من ثلاثة شهور على الإفراج وبتاريخ 31 كانون الثاني 2012 وفي ليلة شديدة السواد، حاصرت قوات الاحتلال المدججة بالسلاح منزل العائلة وطلبت ممن بداخله الخروج.

وتضيف السيدة نبيلة زوجة الأسير:

- كنا في المنزل، وكان الجو باردا ممطرا، وأتى ابني ليخبرنا أن هناك من يرجم حجارة على البيت، وفي الحال تبين لنا أن قوات الاحتلال تحاصر المنزل وتهاجمه، فأخرجوني مع الأولاد في جو الشتاء البارد وصلبونا على الحائط ثم طلبوا من أيمن وابني البكر إسماعيل أن يرفعا أيديهما ومن ثم قاموا بإخضاعهما للتفتيش الدقيق بصورة همجية ودفعوا بهما إلى المنزل.

ويكمل الابن الأكبر إسماعيل الذي يبلغ الثامنة عشر من عمره حديث والدته فيقول:

- لقد صلبوني مع والدي على جدار البيت مدة نصف ساعة، ثم أمروا أمي وإخوتي بالدخول، وبعد ذلك أدخلوني أنا ثم وضعوا أبي في غرفة وحده، ثم صحبوني لتفتيش الجبل المحيط بالمنزل، وبعد الانتهاء من هذه العملية التي كانت بمثابة عذاب وقهر، اعتقلوا والدي وعلامات الذهول والرعب مرسومة على ملامح أمي وإخوتي وكانت الدموع في عيونهم، والحسرة في نظراتهم، ومشاعر جارفة من التعاطف والأسى تحيط بوالدي وتتوسل إلى الله أن يكون في صفه.

حوار مع الضابط المسؤول

وبعد أن كفكفت أُم إسماعيل دموعها واستطاعت أن تجمع شتات نفسها، واصلت استعادة ذكريات تلك الليلة الحزينة المرعبة تقول:

- قلت للضابط المسؤول: إن أيمن لم يمكث معنا خارج السجن أكثر من شهرين بعد، فقال لي مستهزئا دون مراعاة لأي مشاعر إنسانية: بل مضى على الإفراج عنه ثلاثة شهور وعشرة أيام. وأضاف:

- إن هذه جولة تفقدية للمنطقة وليست اعتقال لأيمن. فشعرنا بنوع من الاطمئنان لحديثه، لكن سرعان ما بدد العساكر آمالنا وآمال أيمن باعتقاله من بين أبنائه الصغار، وأمام عيونهم والحسرة تأكل قلوبهم.

أيمن محارباً على خطى سامر

وشعر أيمن أن اعتقاله قد تم ظلما وقهرا وانتقاما، فلم يكن هناك ما يبرر هذا الاعتقال ولذلك قرر أن يخوض معركة الأمعاء الخاوية التي ابتدأها ثلة من الأسرى في محاولة لكسر القيود والممارسات التي يقوم بها جنود الاحتلال.

وكان الأسرى على علم بصورة أو بأخرى بما يقوم به رفاقهم في التصدي لإدارات السجون والمعتقلات من حيث إعلان الإضراب المفتوح عن الطعام حتى الشهادة أو الحرية.

وهذا السلوك القائم على التحدي والذي يفتقر إلى أي سلاح سوى سلاح الإرادة والتصميم على الوصول إلى الهدف والثبات على المبدأ مهما كانت المشقات ومهما كانت الصعوبات وبذلك يمكن أن نؤكد أن ظاهرة النضال القائم على الأمعاء الخالية بدأ يتحول من مجرد حالات فردية متباعدة أو من مجرد إضرابات تستهدف مطالب صغيرة أصبح في الواقع اتجاها شاملا وظاهرة كأنها جبهة نضالية قوية تتصدى للبغي والعدوان بثبات وقوة، بل وفي كثير من الأحيان بإعلان الانتصار وانهزام العدو وتراجعه خاصة وأن هذه الأحداث تأخذ طريقها إلى الآفاق العالمية وتحاط بهالات من التقدير والإجلال، ولا شك أن أيمن شراونة يحتل مركزا هاما في قيادة هذه الجبهة وإرساء قواعدها والنضال تحت رايتها وذلك جنبا إلى جنب مع البطل الأسير سامر العيساوي.

أُمٌّ وشجاعة محارب

تقول السيدة زهرة والدة الأسير في معرض ذكرياتها عن سجنته الأولى.. وإضرابه عن الطعام في السجنة الثانية:

- ما كاد أيمن يخرج من سجنه، حتى عمت الفرحة قلوبنا لأنه استطاع أن يفلت من الزبانية وأن ينتصر على قيد السجان، ولكن الفرحة كانت كالزهور قصيرة لم تلبث أن تبددت، فقد عاد السجان و اختطف مني فلذة كبدي ونور عيني. وعندما أضع رأسي على وسادة النوم، لا يلوح بخاطري إلا طيف أيمن، وأراه أمامي منتصبا في ساعات الليل وسكونه، فأهتف قائلة أين أنت يا أيمن، أين أنت يا ولدي، هل أنت جائع، أتراك عطشانا، وهل أنت في صحة جيدة، هل نسيت طعم الطعام وألوانه وأصنافه، هل تشتاق إلى وجبات أمك، وهل تحن إلى جلسة بين إخوتك وأبنائك، وهل تستطيع أن تصمد أمام قسوة هذا الجلاد الذي يحرمك من النوم والحنان والدفء والطعام والطمأنينة. أي طاقة وأي قوة وأي قدر فرض عليك وعلينا هذا العدو الباغي. أقول ذلك ثم لا أستطيع أن أسيطر على دموعي التي تنطلق كالنهر المنساب وأظل أبكي حتى أغفو، ولا أعرف كيف غفوت بعد أن كانت عواصف الهم والقلق تهاجمني وتحيط بي بصورة جهنمية، وتضغط على أعصابي وتجعل النوم يفر من عيني ولكني استسلم لفترات نعاس قصيرة، لأواصل مناجاة أيمن ومن ثم أطلق العنان لدموعي مجددا.

إن كل أمنيتي أن أحظى بساعة أزور فيها أيمن وأضمه إلى صدري، ثم أموت لأنني أشعر بأنه وهو بعيد عني كأن روحي خلف القضبان، وكأنني أواجه ملاك الموت الذي يريد أن ينتزع روحي من بين أحشائي.

بانوراما أيمن الشراونة

ولد أيمن إسماعيل سلامة الشراونة في خاراس يوم 1976/4/24، وهو متزوج وله تسعة من الأبناء والبنات. وقد تم اعتقاله الثاني يوم 31 كانون ثاني 2012 حوالي الساعة الثانية صباحا، حيث حضرت قوة من جيش الاحتلال وجهاز المخابرات إلى منزل الأسير، وقاموا بتفتيش المنزل وعاثوا فيه تخريبا لمدة ثلاث ساعات، ومن ثم قاموا باعتقاله، ومصادرة أوراقه الشخصية كما استولوا على الوثائق التي تتعلق بالإفراج عنه، وأخذوا جهاز الحاسوب الخاص بابنه الذي كان يستخدمه لأغراض الدراسة.

وقد اقتادت القوات المهاجمة أيمن إلى مركز توقيف عتصيون ونقل في غضون أيام قليلة إلى سجن عوفر ومن ثم نقلوه ليستقر به الحال في سجن ريمون جنوبا. ومن المعروف أن الاعتقال الأول كان قد تم

بتاريخ 2002/5/10 حيث قدمت ضده لائحة اتهام صدر على أثرها حكما عليه بالسجن لمدة ثمانية وثلاثين عاما، وكان إطلاق سراحه مشروطا بأن يمنع منعا باتا من الخروج من منطقة سكناه أي مدينة الخليل، وعليه مراجعة المخابرات الإسرائيلية كل شهرين وهذا ما وقّع عليه أيمن والتزم به طول فترة إطلاق سراحه البالغة ثلاثة شهور.

الاحتلال ومواعيد عرقوب

والواقع أن قوات الاحتلال ضربت بجميع التزاماتها نحو الأسرى عرض الحائط، لأنها سعت إلى اعتقال أيمن بعد ثلاثة شهور، دون تهمة أو محاكمة، وإنما بناء على ملف سري إداري، مفاده بأنه خرق بنود صفقة التبادل، ولم تحاول سلطات الاحتلال أن تبرر أسباب اعتقاله ولم تخبره أو تخبر محاميه بأي معلومات تفيد أنه قام بخرق قواعد إطلاق سراحه، فقد اعتقلوه على أساس أن هناك ملفا سريا قدم إلى النيابة العسكرية في محكمة عوفر، ما جعل النيابة تطالب بتفعيل الحكم المتبقي على أيمن الشراونة، أي إعادته إلى السجن ليمضي ثمانية وعشرين عاما.

وعلى أثر هذا الاعتقال الجائر، وعلى اثر احتجاز سلطات الاحتلال لجميع أوراقه وعدم تمكين محاميه من الدفاع عنه ولإيمانه بأنه تم اعتقاله بصورة متعسفة ودون أي مبرر قانوني، ولذلك فقد قرر أن يرد على هذه المظالم جميعها بإعلان الإضراب المفتوح عن الطعام بتاريخ 2012/7/1، مطالبا بإطلاق سراحه فورا.

وكانت أول ردة فعل للجهات الإسرائيلية أن قامت بعزل أيمن عن العالم الخارجي، حيث وضعته في زنزانة منفردة في سجن ريمون فور إعلانه الإضراب عن الطعام، وبعد شهر من إضرابه ونتيجة تردي وضعه الصحي نقل أيمن إلى عيادة مستشفى سجن الرملة. وقد أمضى عشرة شهور دون أن يلتقي بعائلته ولم يتمكن أي فرد من أفرادها من الحصول على تصريح بزيارته.

أيمن في قبضة لجنة شاليط

وكانت لجنة صهيونية مختصة في ما يسمى (بقانون صفقة شاليط) قد أمرت بإعادة الأسير المحرر أيمن شراونة إلى السجن لإكمال فترة محكوميته البالغة ثمانية وثلاثين عاما. وقد أفادت مصادر قانونية أن لجنة صهيونية قد فحصت ظروف الإفراج عن أيمن، وقررت أنه قد أخل بشروط الإفراج، وقدمت ذلك إلى محكمة عوفر صباح يوم الأحد 2013/2/5 طالبة من المحكمة النظر في تفعيل الحكم المتبقي عليه وإعادته إلى الاعتقال، لإكمال ثمانية وعشرين عاما من فترة حكمه، وتضيف المصادر أن هذه اللجنة لم تقدم أي بيانات علنية أمام المحكمة وأرجعت السبب إلى أنه أخل بشروط الإفراج بناء على معلومات استخباراتية سرية. وكان من ضمن هذه الشروط ألا يخرج من منطقة سكناه بمحافظة الخليل لمدة ثلاث سنوات، كما اشترطت عليه ألا يمارس أي مخالفات أمنية لمدة ثمانية وعشرين عاما المتبقية من حكمه، ووجهت له النيابة تهمة الاتصال بالمبعدين إلى غزة والخارج، وقد أنكر أيمن جميع هذه التهم. وقد عرضت عليه المخابرات الإسرائيلية الإبعاد إلى خارج الوطن إما إلى قطاع غزة أو إلى الأردن، لكنه رفض ذلك موضحا أنه رغم كل ما يعانيه من متاعب صحية إلا انه لن يستسلم لشروطهم.

تضامن ومؤازرة

وكان نادي الأسير في محافظة الخليل قد أفاد أن عائلة أيمن قد أقامت خيمة اعتصام وتضامن مع ابنها المضرب عن الطعام أمام منزله الكائن في قريته. وطالب الحاج إسماعيل الشراونة والد أيمن وهو البالغ من العمر سبعين عاما كافة القوى الوطنية والفعاليات الشعبية الوقوف إلى جانب ابنه، حيث توافدت مئات الوفود إلى خيمة الاعتصام معبرة عن تضامنها مع الأسير البطل، وقد استمرت مظاهر التأييد الشعبي الجماهيري لنصرة الأسير وعلى مختلف الأصعدة وفي كافة قنوات ومفردات الإعلام، إلى أن عرف الجميع انه نقل إلى قطاع غزة بعد أن توصل مع إدارة السجن وكان ذلك في صباح يوم الأحد الموافق 2013/3/17.

الأسير البطل أمام أصعب اختيار

بعد إضراب متواصل عن الطعام دام أكثر من سبعة شهور وأدى إلى تدهور الحالية الصحية لأيمن بشكل خطير وجد نفسه أمام اختيار صعب. فقد كان ملاك الموت يحوم فوق رأسه، وكان إحساسه بأنه سيغدو عاجزا ضريرا أو مشلولا أو ربما لحق بالرفيق الأعلى، وأمام هذه الفروض واستجابة لمبادئ الإسلام الحنيفة {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} على أثر ذلك وجد نفسه مجبرا إلى الموافقة على صفقة الإبعاد إلى قطاع غزة لمدة عشرة أعوام، وقد جاءت هذه الموافقة قبيل مثوله أمام المحكمة العسكرية التي كانت وفق جميع الدلائل والمؤشرات ستحكم عليه بالعودة إلى السجن حيث يمضي أربعة وعشرين عاما من بقية محكوميته.

ويرى الإعلامي شاكر فريد حسن أن عملية الإبعاد والنفي التي قامت بها سلطات الاحتلال بحق الأسير الشراونة هي بمثابة جريمة ضد الإنسانية، وانتهاك لحقوق الإنسان، وخرق فاضح لكل القوانين والشرائع والاتفاقيات الدولية المتعلقة بحقوق السجناء والأسرى المناضلين ضد الاحتلال. كما أنها تندرج في إطار سياسة التهجير والإبعاد الإسرائيلية المعروفة التي مارستها وتمارسها سلطات الاحتلال ضد أبناء الحركة الأسيرة، وضد رجال المقاومة، والحركة الوطنية.

واستذكر الباحث في هذه المناسبة ما سبق للاحتلال أن مارسه ضد مناضلي كنيسة المهد في بيت لحم، خلال الحصار، فقد أبعدت السلطات الإسرائيلية مجموعة من رموز حركة المقاومة إلى العديد من الدول الأوروبية والعربية كما سبق وأن نفذت سلطات الاحتلال حركة إبعاد واسعة، ضد عدد كبير من الأسرى الفلسطينيين حيث تم إبعادهم إلى "مرج الزهور" في لبنان.

وفي صفقة شاليط الأخيرة وافق المفاوضون من حركة حماس على إبعاد عدد من الشباب والمحكومين وفق قواعد وصلاحيات وضمانات مصرية. والواقع أن شعبنا الفلسطيني بكل أطيافه وفصائله وشرائحه الوطنية والديمقراطية والتقدمية المناضلة لا يسلم بمبدأ الإبعاد، ولا يقر أسلوب النفي والتهجير ويرى في ذلك جريمة من جرائم الحرب، وجزءاً من سياسة التهويد والترحيل الممنهجة، وهي مرفوضة رفضا قاطعا.

ويرى مركز "الميزان" وهو مؤسسة إنسانية عالمية أن قرار إبعاد الشراونة إلى القطاع يمثل انتهاكا جسيما لقواعد القانون الدولي وخاصة الإنساني، وأعلن المركز كذلك استنكاره لانتهاك حقوق المناضل أيمن الشراونة وحذر من أن هذه الجريمة لن تمضي دون عقاب، وطالب المجتمع الدولي وخاصة الدول الموقعة

على اتفاقية جنيف الرابعة بالتحرك العاجل والفاعل لوضع حد لهذه الانتهاكات واحترام قواعد القانون الدولي في التعامل مع المدنيين والمناضلين في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

رسالة من البطل الأسير

وقد وجه أيمن الشراونة رسالة عبر محامي وزارة الأسرى فادي عبيدات إلى مصر طالب فيها بتدخل فوري عاجل لإلزام إسرائيل بالإفراج عن كافة الأسرى المحررين في صفقة شاليط، والذين أعادت سلطات الاحتلال اعتقالهم وتهددهم بفرض الأحكام السابقة عليهم أو إبعادهم إلى خارج الوطن.

وقال أيمن في رسالته إن سياسة إسرائيل في إعادة اعتقال المحررين أصبحت تهدد كافة من أفرج عنهم في صفقة شاليط، وهي التفاف وخديعة سياسية تمارسها إسرائيل، وتنصل فاضح من التزاماتها واتفاقها حول إطلاق سراح الأسرى التي تمت تحت رعاية مصرية، وأضاف الشراونة إن حكومة إسرائيل وأجهزتها الأمنية لم توجه للأسرى الذين أعيد اعتقالهم أية تهم واضحة، ولم تستجوبهم، وإنما جاء اعتقالهم سياسيا وتعسفيا دون أي مبرر قانوني أو أخلاقي. وأكد الشراونة في رسالته أن سياسة مساومة وابتزاز الأسرى من خلال العرض عليهم بالإبعاد إلى خارج الوطن، يشير إلى النوايا الخبيثة لدولة الاحتلال، ولإشباع رغبة المتطرفين والعنصريين في دولة إسرائيل. وأكد الشراونة انه لم يحقق معه ولو دقيقة واحدة من قبل الشرطة والمخابرات، بل تم إبلاغه بأنه شخص غير مرغوب فيه بالضفة الغربية، وأنه عُرض عليه من قبل الاستخبارات الإسرائيلية الإبعاد إلى غزة أو الأردن لمدة عامين، ولكنه رفض ذلك بشدة. غير أنه كما نعرف استجاب لشروطهم تحت ضغط الظروف الصحية الحرجة التي تعرض لها.

رفاق على الدرب

ونستذكر في هذه المناسبة أن سلطات الاحتلال أعادت اعتقال ثمانية أسرى، ممن حرروا في صفقة شاليط وهم من المناضلين الاشاوس، الذين لا يستسلمون بسهولة والذين تعرف المخابرات الإسرائيلية أنهم يشكلون نواة صلبة في المقاومة والإصرار على المبدأ، ولكنهم كما يؤكد أيمن الشراونة لم يخرقوا الشروط التي التزموا بها والتي ترعاها وتراقبها الجهات المصرية، لكن الإسرائيليين يختارون النماذج الثورية الصلبة العصية على الكسر لقهرها وإذلالها وإضعافها وهؤلاء الثمانية هم:

- أيمن الشراونة من الخليل
- إبراهيم أبو حجلة من رام الله
- أيمن أبو داود من الخليل
- يوسف شتيوي من قلقيلية
- محمد معزوز مصالحة من جنين
- إياد أبو فنون من بيت لحم
- سامر العيساوي من القدس
- محمود صلاح من بيت لحم

ومن واجبنا جميعا.. كسلطة وكجمعيات وقوى شعبية أن نسعى لإطلاق سراحهم.

عائلة أيمن في مواجهة الإعصار

خلال إضرابه عن الطعام المتواصل تدهورت حالة أيمن الصحية. فقد بدأ إضرابه بتاريخ 2012/7/1، وسرعان ما تدهورت صحته وانعكس ذلك على أسرته التي كانت تشاركه لحظات الشجن والألم، وتشعر به وتتألم لألمه وتتوسل إلى الله أن يفرج كربه. كانت والدته "زهرة" تقول: إن طيفه لا يفارقها وأنها تكابد مشاعر الشوق والخوف والهلع على ابنها، بل إنها أعلنت تضامنها معه بطريقة عملية عندما شاركته الإضراب عن الطعام وهي السيدة المتقدمة في السن التي جاوزت الواحد والستين عاما. وكانت في كل مناسبة تؤكد أنها لن تكسر إضرابها عن الطعام إلا بعد الإفراج عن ابنها.

وكانت تقول إن المرض لن يهزمها ولن يجعلها تتراجع، فهي قادرة على أن تستمد من ابنها البطل الصبر والعزم وتتحمل ما لا تتحمله الجبال الراسيات، في قسم العناية القلبية المتوسطة في مستشفى عالية الحكومي في مدينة الخليل ترقد الحاجة المضربة عن الطعام مستلقية على سرير المستشفى بجسدها المنهك من قلة الماء والغذاء، متضامنة مع ابنها الذي فاقت أيام إضرابه سبعة شهور وهي تصارع بإرادتها غطرسة الاحتلال، وتحمل في قلبها مشاعر القوة والثبات فكأنها تستمد أعظم وأروع قوة بشرية بحيث تتوهج إرادتها الحديدية وتتألق معنوياتها وتزدهر طاقاتها النضالية القوية، كأنها أسماء بنت أبي بكر.. عندما رأت ابنها عبد الله بن الزبير مصلوبا.. فهتفت بشجاعة أما آن لهذا الفارس أن يترجل.

والى جانب الحاجة زهرة كان يجلس ابنها جهاد يحدق النظر في أمه تارة ويحدق في كل من حولها تارة أخرى ويبدو في عينيه طيف إعجاب وتشجيع لهذه الأم الصابرة القوية.

يقول جهاد: لقد أعلنت أمي إضرابها عن الطعام بعد فقدان الأمل ممن بيدهم الحل والعقد، وشعرت بيأس قاتل، فلم يكن لها بديل إلا أن تستنجد بإرادتها وتعلن الإضراب عن الطعام بعزيمة قوية ونفس صابرة وأمل يلوح في الأفق بأن ينتصر الحق.

صراع الإرادات

ويقول أيمن في معرض تحديه لسلطات الاحتلال: إنني ماضٍ في معركتي ولن أتراجع، فإما الشهادة أو الحرية. وهذا النداء الصادق وجد صدى رائعا في نفوس جميع أفراد هذه الأسرة الممثلة في جهاد وزهرة ونبيلة وإسلام والجد وبقية أفراد الأسرة.

يقول جهاد: إننا لن نستكين ولن نلين ونحن مستمرون في إضرابنا حتى تصحو ضمائر من نامت ضمائرهم ويتحركون، إن كل يوم يمر علينا نحاول أن نقنع والدتي بان تكسر إضرابها فتواجهنا بالرفض القاطع وتقول لنا: لا طعام بدون أيمن، لا توقظوني من نومي حتى يكون أيمن بجانبكم. إنها معركة الإرادة والتحدي والصمود والبقاء، بل إنها معركة الأمومة والحنان والحب والعطف على فلذة كبدها أيمن.

والى جانب جدته يجلس إسماعيل أكبر أبناء أيمن، كما يجلس عمه ويأخذ إسماعيل في مراقبة كل ما يجري من حوله من أحداث، فالأب مضرب عن الطعام وهو في غياهب السجون، والجدة مضربة أيضا وترقد في المستشفى بجسدها الذي أعياه هذا الظلم والقهر والتعسف وأمه في حالة ذهول، وأخواته وإخوانه يمضغون الحسرة ويطحنهم الإحساس بالعجز.

يقول إسماعيل بعيون اغرورقت بالدمع لما لحق بأسرته من عذاب لا يبدو أن له آخر. يقول: سندي ومهجتي، وعمودي وفخري، أبي، مغيب في زنازين العزل دون رقيب وبلا رحمة، وكل ما نسمعه مجرد كلمات جميلة وعبارات وقبلات دون أن يلوح لنا أمل حقيقي في تحرير والدي وعودته إلى أحضان أسرته. إننا في غنى عن القبلات والسلامات والأماني الطيبة، كل ذلك لا أريده بل أريد أبي حالا، فقد كفانا قهرا وذلا. ويضيف إسماعيل: نحن من الصابرين الصامدين حتى الرمق الأخير ولن يوقف إضرابنا إلا رجوع أبي، مرفوع الرأس، منتصرا على أعدائه.

ويقول أحد الإعلاميين الذي زار الأسرة وهي في المستشفى: خلال تواجدنا بغرفة الحاجة الشراونة كنت أرقبها من بعيد وأحدق بها وأتحرق شوقا لمكالمتها لأحييها على صمودها الأسطوري وإرادتها القوية المنقطعة النظير. وفي كل برهة كنت أفاجئ نجلها جهاد بسؤاله.. ما هي أخبارها، هل تصحو" فيجيبني: نعم فأعاود التحديق بها لأتأكد من استيقاظها وأكون أول المرحبين والمهللين بأم الإرادة الصلبة.

بعد مدة من الزمن صحت الحاجة زهرة من غفوتها، وبدأت ترحب بالحاضرين وتتلقى عبارات التقدير والإجلال، وقد أشدنا بصمودها وإضرابها كيف لا وهي أم الأسرى جميعا. ويضيف مراسل مركز "أحرار" لدراسات الأسرى وحقوق الإنسان: اقتربت منها ولاطفتها بكلام يشد من عزيمتها، ولكنها فاجأتني بقولها إن عزيمتها تحطم الصخر، وإرادتها من النوع النادر الذي قلما تجده عند أحد، وأنها بالرغم من المرض الذي يفتك بجسمها والهزال نتيجة إضرابها فإنها تظل مؤمنة ثابتة قادرة على أن تبتسم وأن تقول الحمد لله على كل حال. وتضيف بكلمات تختلط فيها الدموع: إن ولدي حبيبي، ابني الغالي أفتديه بروحي وكل ما أبذله ليس كثيرا عليه، ولن أسمح بقتله بقراراتهم الغبية مثلهم. لقد تعبت يا بني من الصرخات والنداءات وأنا استغيث ولا مغيث ما في غير الله معنا، وأنا متوكلة على الله، إن ولدي على طريق الحق ولذلك فان الله لن ينساه وسأواصل إضرابي معه حتى أراه إلى جانبي، وحتى احتضنه واشم رائحته وأقبله قبل أن أموت.

صديق المحنة ومشوار الألم

وقد وصف الأسير عوض الصعيدي البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاما والمعزول بجانب زنزانة الأسير أيمن الشراونة في سجن بئر السبع معاناة هذا الأسير البطل فقال:

- إن هذه الأيام هي الأكثر صعوبة عليّ وعلى الأسير الشراونة، وقال: إنه كان لا ينام طوال الليل من شدة خوفه على الأسير الشراونة، وهو يحاول بكافة الطرق التأكد أن أيمن لا يزال بخير وانه حي يرزق وذلك بالطرق على جدران زنزانته، خصوصا بعد التدهور الخطير الذي طرأ عليه عقب نقله إلى جلسة المحكمة الأخيرة، ويؤكد الصعيدي إن الشراونة ضرب أروع الأمثلة في الصمود على الإضراب ببسالة وقوة وإصرار رغم خطورة حالته.

وروى الأسير الصعيدي أنه وقبل عدة أيام سقط الأسير الشراونة على الأرض بسبب الإنهاك والظلام في الحمام، ومع كل هذا فإنه ظل صامدا ولم يتراجع، وقد مارست إدارة السجن ضده ضغوطا نفسية وذلك بأن زجت بزنزانته بمجرم جنائي بهدف التضييق عليه وكان هذا المجرم يواصل الصراخ وإصدار الكلمات البذيئة طوال أربع وعشرين ساعة.

وورد في تقرير صادر عن نادي الأسير قول الصعيدي للمحامي أنه على الرغم من نقل الأسير الشراونة أكثر من مرة إلى مستشفى سوروكا إلا أنه كان يعاد في كل مرة للعزل بعد أن يكون قد رفض تلقي العلاج، موضحا أن ظروف عزله قاسية جدا وأنه في ظل البرد الشديد لا يملك إلا "حراما" وحيدا يغطي به جسده المتعب المنهك.

عودة البطل إلى غزة

لقد شكلت ملحمة مقاومة الشراونة لعدوان وبطش زبانية الاحتلال فصلا رائعا من البطولة انتهى نهاية تاريخية محفوفة بالانتصار والزهو وانتصار الحق.

لقد دخل الشراونة تاريخ النضال الفلسطيني كواحد من الفرسان الأبطال، الذي أثبت للدنيا بأسرها أن القضية الفلسطينية قضية شعب لا يموت، وأن هنالك مئات الآلاف من الفرسان والأبطال ومئات الكوادر والقيادات والفصائل التي تقف في خط النضال، وتقاتل بكل ما لديها من أسلحة الحق والثورة في سبيل تحرير أرض فلسطين.

إن أيمن الشراونة كتيبة كاملة من الأبطال، الذين انتصروا في أشرس معركة وواجهوا بأيديهم الفارغة وصدورهم العارية كل مفردات القوة، والبغي واستطاعوا أن ينتصروا وأن يؤكدوا هذه الحقيقة هي أن حق القوة لا يمكن أن يصمد أمام قوة الحق.

إن الأجيال الفلسطينية الصاعدة وأن أفواج الشباب والمناضلين وأبناء هذه الأرض الطيبة، سيحفظون اسم هذا البطل على أنه نموذج حي للقدرة على الانتصار، كما أن أسرته وخاصة والدته الحاجة زهرة ستظل رمز' للمرأة الفلسطينية القادرة على العطاء، المرأة المحاربة التي تشهد العالم كله على أنها قادرة على أن تبذل آخر نفس في حياتها من أجل انتصار وعودة ابنها.

إن هذه الثنائية الرائعة بين الابن والأم، ستكون دائما صفحة رائعة في سفر النضال الفلسطيني.. صفحة مضيئة في تاريخ الثورة الفلسطينية، صفحة تذكرنا دائما بأننا سنعود يوما إلى أرضنا ما دامت هذه الأرض قادرة على أن تنجب هذه النماذج الرائعة التي تؤمن بما يقوله محمود درويش إن على هذه الأرض ما يستحق أن نعيش من أجله.

(2013/3/22)

الدكتور عمر سليم نزال

درس وأبدع وتفوق ليمسح دمعة ألم لا تزال في مآقي بلدته قلقيلية.

كان واحداً منهم.. تلك النخبة الرائعة التي درست في ألمانيا،

وحملت الكتاب باليمين وقسم الثورة والتحرير باليسار.

حقق المعادلة الصعبة..

التفوق الدراسي والمهني من جهة، والزهد في المناصب والثروة من جهة أخرى.

كان حضوره لمناقشة القضايا السياسية والعلمية في منزلنا

مع القناصل والمفكرين مفخرة للثقافة والفكر الفلسطيني.

أحببت فيه التواضع والرقة والسلاسة والخلق النبيل

وتقديم المساعدة والعلاج للفقراء دون مقابل.

الدكتور عمر سليم نزال أنموذج متكامل للإنسان الخلوق، المثابر، المبدع، الذكي، الخجول، المتواضع.. نشأ وترعرع في ظلال بلدته قلقيلية بجمالها الساحر، وأرضها الخصبة، وشمسها الساطعة، ونسيمها العليل، وجوها الصريح البديع.

امتص رحيق قصب السكر من حقولها واستهوته أزهار الجوافة وثمرها، ورضع من هوائها ونسيمها وشب فوق سهولها وأوديتها، وملأ صدره من رحيق بساتينها وأزهارها، تغلغلت الطبيعة الجميلة في مساحات وخلايا وجينات الشاب اليافع عمر نزال، فنشأ وترعرع جميلا كطبيعة بلاده، رقيقا كزهرها، وديعا محبا رومانسيا هادئا كشمسها وقمرها وخرير مياهها.

إن الدارسين للبيئة والطبيعة يؤكدون أن ملامح البيئة تنطبع على سلوك أُناسها، وهذه الحقيقة التمسها بصدق في خلق وسلوك ومواقف الصديق عمر نزال، فهو مزيج متكامل رائق من ثقافة الطبيب المعالج، والإنسان المتعاطف الذي يسعده أن يخفف آلام الناس بعلمه وثقافته وخبراته كطبيب متخصص حصل على أرقى الدرجات العلمية، ومع ذلك ظل ودودا، متواضعا، إنسانيا يقدم الوصفة الطبية لمرضاه عبر ابتسامة صادقة ومشاركة وجدانية لطيفة مشفوعة بالأمل والحب والنور الذي يبعث على التفاؤل والشفاء.

بداية المشوار

في مطلع سنوات الستينيات، في فترة المد الناصري، والذي فجر طاقات الشباب العربي وانطلق صوت عبد الناصر، يملأ فضاء الأمة العربية من المحيط الهادئ إلى الخليج الثائر، انطلق نخبة من شباب فلسطين، يجمعون أوراقهم من مدارسهم الثانوية في القدس ورام الله ونابلس وغزة، ومن ثم يشدون الرحال إلى ألمانيا الغربية. كان هؤلاء الشباب، لا يزالون في أعمارهم الغضة كالورد، ما أن انهوا الدراسات الثانوية حتى اتجهوا بكل حماس وقوة واندفاع إلى الدراسة في الجامعات الأوروبية، وخاصة ألمانيا.

من هؤلاء الشباب نخبة رائدة، جمعت بين حماسة الثورة والانتماء، وبين الرغبة القوية الطموحة في الحصول على أعلى الدرجات العلمية. وكان من هذه الكوكبة البديعة من أبناء فلسطين، ومن أرقى عائلاتهم خلقا وانتماء وثروة وثورة، كل من عبد الله الافرنجي، وغازي حنانيا، وهاني الحسن، وعبد الحميد أبو الهول، وأمين الهندي، وإبراهيم اللدعة، وعمر سليم نزال.

المعادلة الصعبة

وكانت المعادلة الصعبة التي يفترض أن يتعامل معها هؤلاء الشباب، كيف يمكن أن يجمعوا بين الدراسة والتفوق في بيئته العلمية جادة وعبر مناهج مكثفة قوية تميزت بها جامعات ألمانيا.

التقى هؤلاء الشباب في اتحاد الطلبة بألمانيا على عهد ومبدأ وصمموا على أن يكونوا طليعة نضالية ثقافية للدفاع عن قضية فلسطين، وعن وطنهم المغتصب. وكان اتحاد الطلبة في القاهرة بقيادة ياسر عرفات وصلاح خلف قد قطع شوطا في تجميع الطاقات الشبابية الفلسطينية، ورص الصفوف للدفاع عن الحق الفلسطيني والعمل على استرداد الوطن المغتصب.

ويستذكر الدكتور عمر، أنهم، في مرات عابرة، التقوا صلاح خلف، وخليل الوزير، لقاءات سريعة لم يتم فيها بحث أي مخططات أو نشاطات، ولكن نظرات العيون، وخفقات القلوب، ومشاعر الإحساس والوجدان، كانت تلتقي على هدف بعيد، ورؤية نضالية مشتركة، فان ذلك الجيل من الشباب، كانوا يعلمون أن الشهادة سلاح، مجرد وسيلة، وأنهم في قلب أوروبا، وفي عاصمة العلم والثورة الصناعية في قلب ألمانيا، لا بد أن يكون هدفهم القدس وحيفا وعكا، واسترجاع ما أخذ بالقوة، بالعلم والدراسة والتنظيم والوحدة والثبات على المبدأ. وما جدوى المال والعلم والشهادات، إذا لم تكرس لهدف قومي نبيل، وأي هدف أعظم وأسمى من تحرير فلسطين. ومن هنا، نظم شباب فلسطين أنفسهم في اتحاد الطلبة في ألمانيا، وأخذوا يجوبون المدن الألمانية، معرفين الشعب الألماني بحقيقة قضيتهم، كما أصدروا كثيرا من المجلات والصحف، وعقدوا عشرات المؤتمرات، وحاولوا دائما، أن يكسروا عقدة الذنب التي يختفي خلفها العدو، وكان منطق هؤلاء الشباب قويا، واضحا كالشمس، كالحقيقة نفسها.

في ألمانيا تكاملت شخصيتي

ويستذكر الدكتور عمر نزال تلك الأيام كثر من الحب والشجن والانفعال، ويلمع في عينيه بريق ممزوج بالحب والذكرى، فعهد الدراسة عزيز على كل نفس، وخاصة إذا اقترن بالغربة، وامتزج بالتفوق، وتخطى الصعاب، والقفز من فوق الأشواك.

وكان عبور الصف الثالث عشر بعد التوجيهي حاجز هام، لان سنوات التوجيهي الأردني كانت اثنتا عشرة سنة، بينما التوجيهي الألماني، ثلاث عشرة سنة.

وكانت اللغة الألمانية والسيطرة عليها كتابة وقراءة، في فترة وجيزة، امتحان عسير يحتاج إلى المثابرة والجد والتفوق، وكانت دراسة اللغة اللاتينية تشكل عقبة لا بد من اجتيازها لان دراسة الطب لا يمكن أن تتم إلا بعد النجاح في هذه اللغة الصعبة المعقدة، وخاصة في قواعدها.

وهنا أستذكر ما قاله طه حسين، إنه كان أول طالب مصري في جامعات فرنسا نجح في اللغة اللاتينية من الدور الأول.

ويتوقف الدكتور عمر قليلا، ويتأمل في وريقات إمامه، ويسرح بذهنه بعيدا، ثم ليستجمع شتات نفسه ويقول:

يعد أبسط وأهون ما تعلمته في ألمانيا في فرانكفورت، هو علم الطب، أما ما تعلمته حقا وأثر في حياتي وأسهم في بناء شخصيتي وفكري هو ما تعلمته من الشعب الألماني، الجدية والإخلاص وإدمان الإتقان وتقديس العمل، كما تعلمت الذوق الأوروبي الرفيع، والإحساس بالجمال، تعلمت فن الحياة، كيف أتعامل في وسائل المواصلات العامة، وفي المطاعم والمنتديات وكيف احترم المرأة، كيف أقدم باقة ورد، وكيف أقدم الطعام، وكيف أقدس النظافة والترتيب والأناقة وكيف أجعل كل ما حولي جميلا منسجما، وكيف اعشق النزهة والاستقامة والعفة.

كنت دائما أقيم في غرفة صغيرة، مع إحدى العائلات ولكني كنت حريصا على أن أكون سفيرا لبلدي وعنوانا لشعبي، ونموذجا مضيئا مبهرا، سواء في دراستي أو في سلوكي، وتعاملي.

هكذا كان عمر نزال، بنى شخصيته العلمية والأكاديمية والأخلاقية والإنسانية، من خلال بعثته الدراسية.

وهنا أستذكر ما كان يقوله العلامة المفكر أحمد أمين: إن بعض طلبة البعثات إلى أوروبا، لا يعملون شيئا سوى أنهم ينتقلون بكتبهم وملابسهم من القرية في أعماق الريف المصري، إلى غرفهم في باريس، أو لندن لا يعرفون إلا الشارع الذي يقودهم إلى الجامعة، ومن ثم ينكبون على كتبهم.

هذا النوع من المبعوثين، لم يقيدوا من بعثاتهم ولم يغيروا في حياتهم ولا حياة شعوبهم قليلا أو كثيرا. إن رواد الثقافة والفكر العرب هم الذين أناروا عقولهم بالعلم والفكر وأناروا وجدانهم بفن الحياة وروح الحضارة وشذا العلم والعبقرية.

وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر

يقول محمود درويش عبارته الرائعة "وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر"، وقد أثرت فيّ هذه العبارة وانطبعت في وجداني وفكري، فالوطن أغلى وأعظم من أي منصب ومن أي مركز ومن أي مكان في العالم.

ويستذكر الدكتور عمر في مشوار حياته تلك المحطة الهامة عندما عمل كبيرا للأطباء في أحد مستشفيات ألمانيا في مدينة فيلتس، حيث كان يتقاضى ثمانية آلاف مارك في الشهر أي حوالي ستة عشر ألف شيكل في الشهر، وقال: لقد كان في إمكاني في تلك الفترة أن أاشتري كل ثلاثة شهور أحدث سيارة مرسيدس، ولكني رغم هذه الثروة في سنوات الستينيات ومطلع السبعينيات آثرت أن أعود إلى وطني وأن

أضحي بكل هذه الإغراءات، ضحيت بالمركز والثروة والحياة النظيفة الرائعة والمستوى الاجتماعي والأخلاقي الرائع، وفضلت أن أعود إلى وطني لأخدم أبناء شعبي وأكرس كل ما تعلمته على امتداد ست سنوات في كلية الطب وخمس سنوات في التخصص.

ولا أشعر قيد أُنملة بالندم أو الأسف، فقد قدمت علمي وخبراتي لمعالجة أبناء شعبي، وللحقيقة فاني أشعر بالرضا عن نفسي رغم أن ما حققته من هامش مادي لا يذكر.

***

والحقيقة أن ما أعرفه عن الدكتور عمر سليم نزال أنه كان ضمن كوكبة من أطباء فلسطين ممن يشكلون الريادة في إرساء قواعد العلاج والمستشفيات والحركة المتصلة بالطب والصحة في فلسطين سواء قبل فك الارتباط مع الأردن أو بعد فك الارتباط، وأذكر من هؤلاء الدكتور عيسى السلطي، والدكتور ياسر عبيد، والدكتور درويش نزال، والدكتور عمر جار الله، والدكتور شحادة شحادة. ومن ضمنهم صديقنا الدكتور عمر نزال، فقد كان أحد المترددين على بيتي ضمن كوكبة كبيرة من السياسيين والمفكرين والأدباء والقناصل، وكانت تربطه صداقة حميمة بزوجي داود طويل. وفي هذه الأثناء كان الدكتور عمر يساهم في تحرير مجلة "العودة" بل أنه أسس الباب الطبي في هذه المجلة، كما أنه كان طبيب الأسرة.

وعندما نال كل هؤلاء الأطباء المراكز الهامة الحساسة لم يشعر الدكتور عمر بأي نوع من المرارة أو الحسد، ولكني أؤكد أنه لم ينل حقه، وكان جديرا بأصحاب السلطان أن يضعوه على رأس وزارة الصحة منذ عودة السلطة عام 1994، وأقول صادقة ودون مجاملة أنه يجمع بين العلم والخلق والنزاهة والإخلاص وهو دارس ومتمرس ونجح بشكل رائع في أعظم المراكز والمستشفيات الطبية الأوروبية.

ومع ذلك فانه كان دائما يعمل في صمت سواء أكان الرجل الثاني أو المساعد أو نائب المدير لزملائه ياسر عبيد، وعيسى السلطي وشحادة شحادة وكان يخلص في عمله ويبذل كل جهد ممكن لإنجاح المؤسسة الطبية التي ينتمي إليها. إنه أنموذج رائع للعالم الطبيب الخبير الذي يجد سعادته في التفوق في عمله حتى وان فاته بريق السلطة أو بريق الأضواء.

بانوراما الدكتور عمر سليم نزال

ولد عمر سليم يونس نزال في بلدة قلقيلية عام 1942 وكان ذلك في 10/30، وقد أنهى تعليمه الابتدائي في المدرسة السعدية الثانوية، وبعد ثلاث عشرة سنة انتقل مع أسرته ووالده إلى رام الله، وكان ذلك في شهر تشرين الأول عام 1956 وذلك على أثر الهجوم الذي شنته القوات الإسرائيلية على قلقيلية ودمرتها، وجاء هذا بعد العدوان الثلاثي الشهير على مصر من قبل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل.

لقد اجتاحت القوات الإسرائيلية قلقيلية ودمرتها، وقد شاهدت بنفسي القنابل وهي تتساقط على البلدة، بل إن ساحة بيتنا سقطت عليها ثلاث قنابل.

ويقول الدكتور عمر: لقد اعتاد سكان قلقيلية وشبابها وسكان القرى المجاورة من المجازفة وركوب الخطر وعبور الخطوط الأمامية للوصول إلى أراضيهم ومحاولة استعادتهم أملاكهم التي اغتصبها العدو الصهيوني، ولا أقول انه كان هناك تنظيمات نضالية أو عسكرية ولكن حركات عفوية يحركها الإحساس بالظلم والرغبة في استعادة ما أخذه العدو غصبا من أبناء بلدتي، كما كان الحرس الوطني والجيش الأردني

يؤازرون الشباب في موجات العبور ومحاولة استعادة حقوقنا، وعلى أثر هذه الهجمات الجريئة من قبل أبناء أريحا جاء الهجوم الغادر الكاسح الذي عصف بقلقيلية فدمرها واحدث فيها خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، ومن هنا تركنا البلدة مع بقية أبناء قلقيلية وجاء بالأسرة لتستقر في مدينة رام الله.

ذكريات لا تنسى

ويستذكر الدكتور عمر أنه بين سنتي عام 1949/ 1950 انه تم تعديل الخطوط الأمامية وعلى أثرها أصبح ساحل قلقيلية الذي يشمل الأراضي الزراعية تابعا للدولة الإسرائيلية المغتصبة. ويقول الدكتور عمر إن معظم أراضينا الخصبة التي كانت تمتد على الساحل قد أصبحت مصادرة وكانت هذه الأراضي من أجود الأراضي الزراعية وأخصبها وكانت تشتهر بزراعة القصب والجوافة.

ويستذكر الدكتور عمر أن أخاه الشقيق "نظام اليونس" كان يعمل مديرا للزراعة، وكان مشرف على برنامج الزراعة في الإذاعة الأردنية.

وفي معرض ذكرياته يقول لقد سكنا في رام الله في شارع يافا، وكان أخوتي قد تلقوا تعليما جامعيا، فالدكتور يونس درس في اسبانيا وتخصص في الطب العام، وشقيقتي امتياز نزال مديرة لمدرسة عزيز شاهين وهي بالمناسبة أول عضو نسائي ينضم إلى بلدية من بلديات الضفة الغربية. كما أن أختي ممتاز نزال كانت مديرة لمدرسة من مدارس وكالة الغوث. أما أنا فقد التحقت بالكلية الوطنية التي كان قد أسسها ويديرها الأستاذ الرائد خليل أبو ريا، وقد حصلت على التوجيهي العلمي الأردني عام 1962. ومن المعلمين الذين لا أنساهم في تلك الفترة أستاذ اللغة العربية خليل الحسيني والأستاذ سيف الدين الرمحي ومعلم اللغة الانجليزية نبيل هاشم من نابلس.

مع الرفاق في فرانكفورت/ ألمانيا

وبعد حصولي على التوجيهي ذهبت إلى ألمانيا لدراسة اللغة في مدينة ميونخ في معهد غوتا، كما كان علي أن انهي الصف الثالث عشر الألماني لالتحق بالجامعة. وواجهت صعوبة في دراسة اللغة اللاتينية وفي السيطرة على اللغة الألمانية، ولكن إصراري على أن أواصل الدراسة وأن اجتاز كل عقبة في سبيل الالتحاق بكلية الطب جعلني أكرس كل وقتي وجهدي للدرس والتحصيل محاولا أن أنبذ كل ألوان الترف أو اللهو في مجتمع غربي منفتح، وهكذا التحقت بالجامعة لدراسة الطب البشري .

وجمعت في الدراسة بين تشرب العادات الاجتماعية والتقاليد الغربية الراقية وأساليب ونمط الحياة العصرية القائم على الذوق والرقي والسمو الأخلاقي واحترام المرأة وعدم الاستهتار بأي قيمة من القيم الأخلاقية أو الاجتماعية. وكنت مبهورا بمستوى الشعب الألماني ومسلكياته وحرصه الشديد على النظافة وتقديسه لحرمة الشارع واحترامه للآخرين سواء أكان ذلك في الشوارع أو في المستشفيات أو في معاهد التعليم أو في الميادين والمنتزهات.

أمضيت في كلية الطب ست سنوات، وفي السنة الثالثة حصلت على منحة كانت تغطي جميع نفقاتي ما أكسبني الثقة بنفسي والإحساس بالرضا خاصة وأنني استطعت أن أخفف عن والدي وأهلي أعباء التعليم الصعبة والتي تصل إلى أرقام فوق طاقة أي إنسان في ذلك الوقت من السبعينيات.

ومن أهم الرفاق في تلك المرحلة أمين الهندي، الذي شغل بعد ذلك منصب مدير المخابرات العامة والصديق عبد الله الافرنجي عضو اللجنة المركزية وسفيرنا في ألمانيا ومن ثم سفيرنا لدى الاتحاد الأوروبي. ومن هؤلاء الزملاء إبراهيم اللدعة الطبيب الاختصاصي في الحنجرة ، لقد كنا مجموعة من الشباب الذين لم يتجاوزوا العشرينيات إلا بقليل، وكانت مشاعرنا معبأة بقوة للتحصيل والتفوق العلمي، بل إننا كنا نشكل مجموعة من أربعة طلاب عليهم أن يواجهوا الممتحنين مجتمعين، وهو نظام فريد في الامتحانات ولكنه أسلوب تعليمي متطور بحيث يستوعب الطلاب المادة العلمية بشكل جيد.

وعلى المستوى الوطني كنا فريقا واحدا يعمل بكل إخلاص للدفاع عن القضية الفلسطينية وشرحها لأبناء الشعب الألماني. وأذكر أنه في أكثر من مرة كنا نلتقي بالقيادات الفلسطينية الشابة وكان التنسيق بيننا وبينهم يجري على أعلى المستويات، ولا شك أن أحداث ميونخ فيما بعد أثرت على النشاط الطلابي الفلسطيني في المجتمع الألماني.

وفي عام 1965 كنا قد قمنا بمظاهرات ونشاطات وطنية تجوب كل شوارع ألمانيا، وكان ذلك على نفقتنا الخاصة، فقد كنا حريصين على أن نمول هذه النشاطات الوطنية من مصاريفنا القليلة محاولين أن نجعل من رابطة الطلبة الفلسطينيين منطلقا وطنيا وقوميا يستقطب أحرار الألمان وأصحاب الرأي والفكر ممن كانوا قادرين على تفهم أبعاد السياسة الإسرائيلية القائمة على ابتزاز الشعب الألماني عبر مذبحة الهولوكوست.

وأذكر أنني كنت من مؤسسي رابطة الطلبة الفلسطينيين الأوائل، وكان من أصدقائنا في تلك الفترة الدكتور عدنان حماد بالإضافة إلى الزملاء الذين سبق أن ذكرتهم.

وبعد ذلك أمضيت سنة تحضيرية هي سنة الامتياز في مستشفيات ألمانيا وتخصصت في الأمراض الباطنية وأمراض القلب بعد ذلك لمدة خمس سنوات وكان ذلك في جامعة دوسلدروف، وقد أنهيت هذه المرحلة من الدراسة بمساعدة منحة تفوق الطالب الجامعي وهي أكبر منحة يمكن أن يحصل عليها طالب في ألمانيا. ثم تخصصت في دراسة الجهاز الهضمي، وتم تعييني كبيرا للأطباء في أحد مستشفيات ألمانيا في مدينة فليتس، وكان راتبي الشهري في تلك الفترة ثمانية آلاف مارك، أي ما يعادل 16 ألف شيكل بعملة اليوم.

لحظات عتاب ولكن بلا مرارة

ويستذكر الدكتور عمر نزال أنه كان رفيقا لمجموعة من الأطباء المتفوقين في منتصف السبعينيات وما تلاها، ورغم كل شيء فانه على يقين بأنه لم يأخذ حقه كاملا بعد هذا المشوار الماراثوني الطويل من الدراسات والتخصص والخبرات العلمية المكثفة، ولكن ذلك لم يترك في نفسه إحساسا بالمرارة ولا الحسد ولم يدفعه للتراجع عن أداء عمله بمنتهى الإخلاص في كل موقع قدر له أن يشغله.

ويقول الدكتور عمر: لست ملاكا لأكتم مشاعري وأزعم أنني لم أشعر بالندم ولم أشعر بالإحساس بالظلم، لكن ذلك كله لم يكن ليستمر طويلا لأن سعادتي الحقيقية كانت في تخفيف آلام الناس، فالطبيب الحق لا تهمه المادة ولا يشعر بان نجاحه الأدبي مرتبط برصيده في البنوك، وأقول صادقا إن عيادتي الخاصة كثيرا ما تستقبل الفقراء من المرضى الذين ألاحظ بسهولة حرجهم وهم يحاولون دفع أتعابي ولكني أقول لهم بصدق ادفعوا ما تيسر، وإذا كان ذلك متعذرا فإني أشاركهم في صرف روشيتة الدواء.

أقول ذلك ليس من قبيل الفخر ولا من قبيل الاستعراض، ولكن لأهدي هذه الحقيقة للأجيال الشابة التي تتخرج من كليات الطب وتتخصص ثم تتناسى واجبها الإنساني، وأستذكر هنا انك كنت من الأطباء الذين التزموا بقسم فيثاغورس وما فيه من مبادئ لخدمة الإنسانية قبل أي

بعض ما قرأته عن (الدكتور الكاتب) الإنسان الذي كان يعالج الرئيس عبد الناصر وكانت عيادته الخاصة تستقبل المرضى الفقراء مقابل أتعاب لا تزيد عن "شيلن".

عالمي في عيادتي

في 1978/10/15 التحقت بالعمل في مستشفى رام الله، وفي نفس الوقت قمت بافتتاح عيادتي في قلب مدينة رام الله والتي لا أزال أمارس عملي فيها. وعندما ضقت ذرعا بالروتين الحكومي توجهت إلى عيادتي وكرست كل جهودي فيها ولم أكن انظر لحظة إلى المردود المادي، بل إني سافرت مجددا إلى ألمانيا محاولات التخصص في تنظير المعدة والأمعاء، وفي عام 1980 اشتغلت في المركز الصحي العربي كمدير طبي وبقيت أمارس مهنتي في هذا المركز إلى أن تم فك الارتباط وعندما جاءت السلطة عام 1994 عدت مجددا إلى العمل في مستشفى رام الله وبقيت أواصل عملي فيه إلى أن أحلت على التقاعد في العام 2000.

ويستذكر الدكتور عمر انه في عام 1988 قام بعمل دورة لتشخيص أمراض القلب والموجات فوق الصوتية لأنه حريص دائما على مواكبة كل جديد في عالم الطب.

في قسم التحويلات

ومن ملف ذكرياته يستذكر الدكتور عمر أنه عين فيما بعد وبالذات في عام 1979 تم تعييني رئيسا لقسم التحويلات في الضفة الغربية. وكان هذا القسم شديد الحساسية ويحتاج إلى حسم وأمانة ومصداقية وشفافية لأنه يترتب على المصادقة على أي تحويل لأي مريض إلى مستشفيات إسرائيل أو إلى أي مستشفيات أخرى يعتبر مسؤولية هامة خاصة وأن التحويل إلى مستشفى هداسا مثلا يعني مئات الآلاف من الدولارات، بل إن هذا التحويل كان يعتمد فقط على توقيعي دون وجود أي لجنة أخرى ما يضاعف مسؤوليتي وأشهد بمنتهى الموضوعية أنني كنت حريصا على أن أؤدي واجبي بعيدا عن أية مساومات أو وساطات سواء أكانت مباشرة صريحة أو غير صريحة.

ومرة أخرى أؤكد أن الطبيب إذا لم يكن نقيا أخلاقيا فانه لن يكون نقيا مهنيا. وكل من يحاول أن يستغل نكبات الناس ومآسيهم ويتاجر في آلامهم يفقد حسه الإنساني بل يفقد وجوده وكيانه. واذكر في هذه المناسبة أن مهنة المحاماة كثيرا ما تتعرض للإغراءات المادية وكذلك مهنة الأطباء، فإذا كان الطبيب أو المحامي على درجة من الوعي والأخلاق والانتماء فان شرف مهنته يكون مقدما على أي شيء.

ومن موقع إلى آخر

ويقول الدكتور عمر انه عمل في مستشفى المطلع كرئيس قسم للأمراض الباطنية بالإنابة كما أنه عمل في السنوات ما بين 1985 - 1994 كمدير طبي للمركز الصحي العربي في البيرة وكان نائبا لمديره العام الدكتور ياسر عبيد، كما عمل نائبا لرئيس جمعية أصدقاء المريض الخيرية كما انتخب مرتين متتاليتين لعضوية

نقابة الأطباء التي استمر كعضو فيها والتي ظلت رغم فك الارتباط تضم عددا كبيرا من الأطباء الفلسطينيين الأردنيين.

ويستذكر الدكتور عمر أنه ألقى عشرات المحاضرات في مختلف المدن الفلسطينية وانه كان يتبرع بهذه المحاضرات من أجل رفع المستوى الصحي لأبناء الشعب الفلسطيني، وكان يجيب على جميع الأسئلة التي توجه إليه بل إنه في كثير من الأحيان كان يقوم بعمل دراسات وأبحاث طبية خاصة وكان يعمل على وضعها في خدمة ومتناول كافة الأطباء.

زميلا في بلاط صاحبة الجلالة

وقد عمل الدكتور عمر في العديد من الصحف محررا وكاتبا للزوايا الطبية سواء في الصحف اليومية أو في مجلة "العودة" الأسبوعية، فقد نشر عشرات المقالات في جرائد "الفجر" و"الشعب" و"القدس" و"النهار"، كما كان مؤسسا للزاوية الطبية في مجلة "العودة" حيث تلاحقت مقالاته على امتداد أعوام طويلة وكانت هذه المقالات تنشر تطوعا، كما أنه عمل معنا في مجلة "العودة" بصورة متواصلة متطوعا وكان ملتزما في معظم الأعداد التي صدرت طوال سنوات وسنوات.

ملامح أسرية

يقول الدكتور عمر: تزوجت عام 1979 من السيدة رندة المالكي، وقد أنجبنا ابنتين وولدين هما دانا ورزان وأحمد وياسر، وقد انهوا جميعا دراساتهم الجامعية بتفوق ونجاح.

أخي عمر..

لا زلت اذكر أنك كنت وجها من الوجوه المثقفة المتعلمة الدارسة الذي يشغل مكانة رفيعة على المستوى الاجتماعي والمستوى الطبي والمستوى الوطني، وكنت أرتاح لوجودك في بيتي عندما أستقبل قناصل الدول والشخصيات السياسية الغربية والمثقفين من كل أنحاء العالم، فكان حضورك مبعث فخري وارتياحي لقدرتك بصوتك الهادئ وعباراتك العقلانية وشخصيتك الناضجة بحث تعكس تاريخ ونضال الشعب الفلسطيني.

إن تجربتك الغنية في ألمانيا مع الشباب الذين عادوا ليكونوا في طليعة منظمة التحرير الفلسطينية قد أكسبك الالتزام والإيمان بعدالة قضيتنا ما انعكس على أفكارك ومداخلاتك لهذه الشخصيات وخاصة وأنك تحمل أرقى الشهادات من أرقى جامعات العالم من ألمانيا، ثم إن إتقانك للغة من جهة وإتقانك لفهم أبعاد المواقف الفلسطينية جعلك صوتا نقيا أرتاح إلى وجوده في كل مناسبة وخاصة أنك كنت مرجعا في النواحي السياسية كما أنك كنت مرجعا في النواحي الطبية باعتبارك متخصصا.

ولا زلت أستذكر مدى إنسانيتك وما فيها من نبل وحب للفقراء وتعاطفك معهم ووضعك كل خبراتك وتجاربك في خدمة أبناء فلسطين دون تفريق، هذا الكرم النبيل الذي يفيض من أخلاقك ووجدانك زادك احتراما وقيمة لكل من عرفوك وليس هذا غريبا عليك، فأنت أحد أبناء قلقيلية المدينة الزاهرة التي أنجبت نخبة من الأعلام ومنهم الدكتور درويش نزال الذي جمع بين عبقرية السياسة والوطنية وعبقرية الطب، كذلك الشيخ المناضل عكرمة صبري والحاج حسين صبري رئيس بلدية قلقيلية والشاعر المتوكل طه نزال وشقيقتاك امتياز وممتاز اللتين احتلتا مراكز رفيعة رائدة على المستوى التربوي.

أخي عمر..

ما أقصر الحياة وما أسرع مضي الأيام، وكل شيء صائر إلى الزوال ولكن نستطيع دائما أن نجعل حياتنا أعمق وأطول وأكثر عرضا ومساحة بهذه اللمسات الإنسانية وبهذا السلوك النبيل الذي يكسبنا الإحساس بإنسانيتنا ويبقى ما بقي الزمن.

وإني أقدم إليك هذه الباقة من الورد ممزوجة بمشاعري وأحاسيسي باعتبارك رائدا أكاديميا لان الوطنية الصادقة لا تقتصر على منابر السياسة وساحات المعارك بل أنها تتجسد في سلوك علمي رفيع ومبادرات إنسانية خلاقة تبني فلسطين وتعلي من قيمتها ومركزها، فما أعظم ما أشعر به نحوك وما أقل أمثالك ممن جعلوا القيم المادية غير واردة في حساباتهم الإنسانية والوطنية.

(2013/3/29)